التفسير التحليلي لسورة يوسف

إعداد
الدكتورة / عفاف على النجار
الأستاذ المساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن
كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات
بجامعة الأزهر ـــ القاهرة

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

الناشر
مكتبة ومطبعة الغد
للطبع والنشر والتوزيع

الإهداء

إلى الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا .

إلى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

إلى جميع المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها أهدى هذا العمل وأحتسب أجرى عند الله ،،،

عفاف النجار

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى أنـزل الكتـاب قيمـا ليكـون للنـاس بشـيرا ونذيرا ، وصلى الله على من بعثـه الله ليبيـن للنـاس مـا نُـزّل إليهم وسراجا منيراً . وعلى أله الأطـهار ، وصحبـه الأبـرار ، ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الديـن .

وبعد ،،،،

فهذا تفسير لسورة كريمة هـى " سـورة يوسـف " استقيته من أمهات كتب التفسير ، ومما فتح الله علـىَّ بـه .

وسورة يوسـف رصينـة الألفـاظ ، عظيمـة الآيـات ، بديعـة المبـانى ، آياتـها متناسـقة متشـابكة ، وهـى تمتـاز برقتـها وسلاسـتها .

وهى وإن كانت من السور المكية التى تحمل ـ فى الغـالب ـ طابع الإنذار والتهديد ، إلا أنها اختلفت عنها فى هـذا الميـدان ، فجاءت فى أسلوب سلس ممتع ، لطيف رقيق ، يحمل جو الأنـس والرحمة ، والرأفة والحنان ، ولهذا قال خالد ابن معدان : " سـورة يوسف ومريم مما يتفكه بهما أهل الجنة فى الجنة " وقال عطـاء : " لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها " .

نزلت هذه السورة الكريمة على رسول الله ﷺ فى فترة حرجة عصيبة ‥ حيث توالت الشدائد والنكبات ، على الرسول وعلى المؤمنين ، واشتد عليه أذى المشركين ، وبوجه خاص عندما فقد عليه الصلاة والسلام نصيرية : زوجه الطاهرة الحنون " السيدة خديجة " التى كانت كثيراً ما تخفف عنه الآلام والأحزان ، وفقد فيه عمه " أبا طالب " الذى كان يناصره ويدافع عنه ، وكان له خير معين ، وخير نصير مع أنه لم يدخل فى الإسلام ـ وبموتهما اشتد الأذى والبلاء على رسول الله ﷺ حتى عرف ذلك العام عام الحزن .

فى تلك الفترة العصيبة من حياة الرسول الكريم ، وفى ذلك الوقت الذى كان يعانى فيه ـ عليه السلام ـ الوحشة ، والغربة ، والانقطاع من جاهلية قريش ، وتعانى معه الجماعة المسلمة هذه الشدة ، كان الله سبحانه ينزّل على نبيه الكريم هذه السورة الكريمة ، تسلية له ، وتخفيفا لآلامه بذكر قصص المرسلين ، وماتحملوه فى سبيل تبليغ دعوة الله ، حتى يصبر كما صبروا . قال تعالى : ﴿ **فاصبر كما صبر أولى العزم من الرسل** ﴾ (١) .

وكأن الله سبحانه يقول لنبيه الكريم : لا تحزن يامحمد لتكذيب قومك وإيذائهم لك ، فإن بعد الشدة فرجاً ، وإن بعد الضيق مخرجا ، بدَّ أن يأتى اليسر بعد العسر والفرج بعد تلك

(١) الأحقاف من الآية ٣٥ .

الشدائد والأهوال ٠٠ ولهذا لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها .

هذه السمات والأوصاف شأن كل سورة من سور القرآن العظيم ، فهو يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، ويحذر من الشر ومن إتباع خطوات الشيطان الرجيم ، وكله حقائق ووقائع ، وإعجاز فى إيجاز . وسيظل العلماء إلى أن تقوم الساعة يغوصون فى بحاره ، ويستخرجون بين الحين والحين بعض لآلئه التى يرزقهم الله بها ويفتح عليهم بفهمها ، ولكن فى النهاية لا يحيط بأسراره ومعانيه إلا الله سبحانه .

قال تعالى : ﴿ **قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا** ﴾ [١]

وقال جل ذكره : ﴿ **ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم** ﴾ [٢]

ولهذا : أقرر أنه مهما قلت أنا وغيرى عن هذه السورة ، فلن نوفيها حقها ، ولن نحيط بأسرارها ، وهو شأن كل سورة من سور القرآن العظيم .

---

(١) سورة الكهف الآية ١٠٩ .

(٢) سورة لقمان الآية ٢٧ .

والله أسأل أن يجعل القرآن العظيـــم ربيـــع قلوبنــــا ، وشـــفاء صدورنا وجلاء همنا وحجة وشفيعا لنا يــــوم لقـــاءه وأن يجعــل هذا العمل خالصا لوجهه الكريــــم ، وأن يحظـــى بـــالقبول لــدى أهل العلم خاصة والمســـلمين عامـــة ، وأن ينتفـــع بـــه الجميـــع كما أسأله ســـبحانه أن يبــارك جـــهدنا ، ويضيـــئ طريقنـــا إنـــه سميع الدعاء . وصلـــى الله تعـــالى وســـلم علـــى ســـيدنا محمـــد وعلى آله وصحبه أجمعيـــــن .

د / عفاف النجار

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾

صدق الله العظيم

(١٢) سُورَةُ يُوسُفَ مَكِّيَّة
وآياتها إحدى عشرة ومائة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ٣ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ٤ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ٥ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ

وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ
إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦ ۞ لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ
لِّلسَّآئِلِينَ ٧ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ
عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٨ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ
أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ٩
قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ
بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ١٠ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۫نَّا
عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ١١ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ
وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ١٢ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن
يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ١٣ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ
وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ١٤ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ
أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا
وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٥ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ١٦ قَالُواْ
يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ
ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ

بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ

عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ

دَلْوَهُ ۖ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ

﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ

﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن

يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ

مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ

لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي

الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ

الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ

إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ

رَبِّهِ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا

الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا

سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ

أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا

إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ٢٦ وَإِن كَانَ
قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٧ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ
قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ٢٨ يُوسُفُ أَعْرِضْ
عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ٢٩ * وَقَالَ
نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا
إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ٣٠ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ
وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ
عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا
هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ٣١ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى
فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ
لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ٣٢ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا
يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن
مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ٣٣ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ٣٤ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ
حِينٍ ٣٥ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا

وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا
بِتَأْوِيلِهِ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا
نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ۚ إِنِّي
تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ
مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ
بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ
أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً
سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ
إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا
الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ۚ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ
تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ
فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ
الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ

سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن
كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ
ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ
أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا
فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ
خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾
قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا
قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ
مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ
عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ
فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي
قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ
إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن
سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن
نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ

وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ * وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ
لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ
الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا
مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾
وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ
بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ
خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ
فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ
بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ
وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي
وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾
وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا
إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ
قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ
لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ

مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ
وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا
رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ
كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ
ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ
مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟
مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا
لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟
مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا
حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ
قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم
بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا
ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾
قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾

قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾

قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى

رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ

قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ

مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ

مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ

سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ

قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ

إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾

قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا

لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ

تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ

فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ

وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ

سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾

وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾
قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ
جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ
يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ
تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾
قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾
يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ
إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟
عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ
مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ
﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ
﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ
عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟
تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ
عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾

ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى
بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ
يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ
﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ
إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ
إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ
ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ
وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا
رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ
مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا
يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن
تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا
وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ
نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾

وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣ وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ
مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤ وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ١٠٥ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم
بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ١٠٦ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ
أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٠٧ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ
أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ
ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ
ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ
مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩ حَتَّىٰٓ إِذَا
ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ
وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ
لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ
يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١

بين يدى السورة الكريمة

معنى السورة

السورة هى طائفة مستقلة من آيات القرآن ذات مطلـــع ومقطـــع ، وهى مأخوذة من سور المدينة ، لما فيها من وضع كلمة بجانب كلمـــة وآية بجانب آية كالسور توضع كل لبنة فيه بجانب لبنة ، ويقـــام كـــل صف فيه على صف . وأيضاً : لإرتفاع رتبتها ومنزلتها كارتفاعه .

وهى مكية كلها ، وهو القول الصحيح ، ولا إلتفات إلى قول مـــن قال : " بأن فيها آيات مدنية " [١] .

قال الألوسى [٢] : سورة يوسف كلها مكية على المعتمـــد ، وروى عن ابن عباس . وقتادة أنهما قالا : إلا ثلاث مـــن أولـــها ، واســـتثنى بعضهم رابعة ، وهى قوله سبحانه : ﴿ **لقد كان لكم فى يوسف وأخوته آيات للسائلين** ﴾ وكل ذلك واه جداً لا يلتفت إليه ، وما اعتمدناه كغيرنا هو الثابت عن الحبر ــ أى عن ابن عباس ــ من حديث طويل يحكـــى فيه قدوم رافع مكة وإسلامه وتعليم رسول الله ﷺ إياه هذه السورة . أ . هـ

وقال الشيخ سيد قطب [٣] : والسورة مكية بجملتها ، على خلاف ما ورد فى المصحف الأميرى من أن الآيـــات (١ ، ٢ ، ٣ ، ٧) منـــها مدنية . ذلك أن الآيات الثلاث الأولى هذا نصها ﴿ **الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ(١)إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(٢)نَحْنُ نَقُـــصُّ عَلَيْـــكَ**

---

(١) انظر تفسير القرطبى ٩ / ٧٩ .

(٢) روح المعانى مجلد ١٢ / ١٧٠ .

(٣) فى ظلال القرآن ٤ / ١٩٤٩ ــ ١٩٥٠ .

أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنْ الْغَافِلِينَ(٣) ﴾ .

وهذه الآيات هى مقدمة طبيعية لما جاء بعدها مباشرة من البدء فى سورة يوسف ــ عليه السلام ــ ونص الآية التالية فى السياق هو : ﴿ **إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَاأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ(٤)** ﴾ ثم تمضى القصة بعد ذلك فى طريقها إلى النهاية .

فالتقديم لهذه القصة بقول الله تعالى ﴿ **نحن نقص عليك أحسن القصص ...** ﴾ هو التقديم الطبيعى المصاحب لهذه القصة .

وكذلك هذه الأحرف المقطعة (الر) وتقرير أنها آيات الكتاب المبين . ثم تقرير أن الله أنزل هذا قرآنا عربيا .. هو كذلك من جو القرآن المكى ، ومواجهة المشركين فى مكة بعربية القرآن الذى كانوا يدعون أن أعجميا يعلمه لرسول الله ﷺ ، وتقرير أنه وحى من الله كان النبى ﷺ من الغافلين عن اتجاهه وموضوعاته .

ثم إن هذا التقديم يتناسق مع التعقيب على القصة فى نهايتها وهو قول الله تعالى : ﴿ **ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم ومهم يمكرون** ﴾

فهناك حبكة بين التقدمة للقصة والتعقيب عليها ، ظاهر منها نزول التقدمة مع القصة والتعقيب .

أما الآية السابقة فالسياق لا يستقيم بدونها أصلا ، ولا يتأتى أن تكون السورة قد نزلت فى مكة وهى ليست من سياقها ثم أضيفت إليها

فى المدينة ! ذلك أن فى الآية الثامنة ضميراً يعود على يوسف وإخوته فى هذه الآية السابقة ، بحيث لا يستقيم نزول الآية الثامنة دون أن يكون معها الآية السابقة وهذا نصها : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ(٧)إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(٨) ﴾ مما يقطع بأن الآيتين نزلتا معا فى سياق السورة الموصول " أ . هـ

بهذا يتبين لنا أن السورة كلها مكية .

وعدد **آيات السورة** إحدى عشرة ومائة آية ، وعدد كلماتها ١٧٤٦ وحروفها ٧١٦٦ .

ووجه تسميتها بهذا الإسم :

لأنها مشتملة على قصة يوسف ـ عليه السلام ـ مع إخوته ، ومع إمراءة العزيز ، ومع ملك مصر فى ذلك الوقت .

ولم يذكر اسم يوسف ـ عليه السلام ـ فى غير هذه السورة سوى مرتين :

إحداهما : فى سورة الأنعام فى قوله تعالى ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(٨٤) ﴾ [1] .

---

(١) سورة الأنعام ٨٤ .

والثانية : فى سورة غافر فى قوله تعالى : ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات . . ﴾ (١)

تسمية السور توقيفية :

- وتسمية هذه السورة باسم " يوسف " تسمية توقيفية أى تتوقف على نقلها عن النبى ﷺ وكذلك كل أسماء السور التى اشتهرت بها توقيفيـة ، لأن الذى سماها هو الله تعالى .

وللسور القرآنية اسم واحد توقيفى ، وقد يكون لها اسـمان أو أكثر كسورة الفاتحة ، وسورة البقرة ، وقد يسمى بعض الصحابـة ﷺ — وبعض التابعين — رحمهم الله — سورا باجتهادهم ، وتكون تلـك التسمية بمثابة الأوصاف لتلك السورة ، وكما سمى سفيان بن عيينة — رحمه الله — سورة الفاتحة بالوافية — وهكذا نجـد سـورا فـى القرآن الكريم وصفها بعض السلف الصالح بأوصاف باجتهادهم . ولكن العبرة باسم السورة التوقيفى المنزل من عند الله تعالى .

تقسيم القرآن إلى سور وآيات توقيفى :

أيضا تقسيم القرآن الكريم إلى سور ، وتقسيم السور إلى آيـات ، أمر توقيفى . روى عن ابن عباس — رضى الله عنه — أنه قـال : " كان رسول الله ﷺ إذا نزلت عليه سورة دعا بعض من يكتـب ، فقال : ضعوا هذه السورة فى الموضع الذى يذكر فيه كذا وكذا (٢)

---

(١) سورة غافر من الآية ٣٤ .

(٢) مناهل العرفان للشيخ الزرقانى ١ / ٢٤٠ .

وكان هذا التأليف عبارة عن ترتيب الآيات حسب إرشـاد النبـى ﷺ ، وكان هذا الترتيب بتوقيف من جبريل ـ عليه السلام ـ فقد ورد أن جبريل ـ عليه السلام ـ كان يقول : ضعوا كذا فى موضع كـذا " ولا ريب أن جبريل كان لايصدر فى ذلك إلا عن أمر الله عز وجل [١]

ترتيب السور حسب النزول :

سورة يوسف ـ عليه السلام ـ هى السورة الثانية عشرة فـى ترتيب المصحف فقد سبقها فى الترتيب سور: الفاتحة ، والبقـرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفـال ، والتوبة ، ويونس ، وهود .

أما ترتيبها فى النزول ، فكانت السورة الثالثة والخمسـين ، وكان نزولها بعد سورة هود ـ عليه السلام ـ [٢] .

علاقة فاتحة سورة يوسف بسورة هود التى قبلها :

إن علاقة فاتحة هذه بخاتمة سورة هـود فـى غايـة الـترابط والتناسق . ذلك أنه تعالى لما قال فى خاتمة سورة هـود ﴿ **وكـلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ...** ﴾ [٣] وكـان فى تلك الأنباء المقصوصة فيها ما لاقى الأنبياء من قومهم ، فـأتبع

---

(١) المرجع السابق .

(٢) التفسير الوسيط . للأستاذ الكتور / محمد سـيد طنطـاوى . شـيخ الأزهـر المجلد السـابع ص ٢٩٩ .

(٣) سورة هود الآية ١٢٠ .

ذلك بقصة يوسف ، وما لاقاه من إخوته ، وما آلت إليه حاله من حسن العاقبة ، ليحصل للرسول التسلية الجامعة لما يلاقيه من أذى البعيد والقريب [1] ، فجاءت هذه القصة مستوفاة من قوله تعالى : **﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ... ﴾ الآيات .**

وأيضا قد وقع فيما قبل – سورة هود – **﴿ فبشرناه بإسحاق ومن بعد إسحاق يعقوب ﴾** وقوله سبحانه : **﴿ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ﴾** ووقع هنا حال يعقوب مع أولاده ، وما صارت إليه عاقبة أمرهم مما هو أقوى شاهد على الرحمة ، وقد جاء عن ابن عباس وجابر بن زيد أن يونس نزلت . ثم هود . ثم يوسف ، وعد هذا وجها آخر من وجوه المناسبة [2] .

علاقة خاتمة سورة يوسف بسورة الرعد التى بعدها :

قال البقاعى : " لما ختم – سبحانه – سورة يوسف بالدليل على حقية القرآن ، وأنه هدى ورحمة لقوم يؤمنون [3] ، بعد أن أشار إلى كثرة ما

---

(1) راجع البحر المحيط لأبى حيان ٦ / ٢٣٤ ، وأسرار ترتيب القرآن للسيوطى ص ١٠٩ .

(2) روح المعانى للألوسى ١٢/١٧٠ .

(3) وذلك فى قوله تعالى ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه كل شئ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ سورة يوسف الآية ١١١ .

يحسونه من آياته فى السموات والأرض مع الإعراض [١] ، ابتـــداء هـــذه بذلك عن طريق اللف والنشر المشوش [٢] ، لأنه أفصح فى نشـــره بالأقرب فالأقرب " [٣] .

وقال نقلا عن الإمام أبى جعفر بن الزبير فى برهانه : " هـــذه السورة ـــ أى سورة الرعد ـــ تفصيل لمجمل قولـــه سـبحانه فـــى خاتمة سورة يوسف ـــ عليه السلام ـــ **﴿ وَكَـــأَيِّنْ مِـــنْ آيَـــةٍ فِـــي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ(١٠٥)وَمَـــا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْـــرِكُونَ(١٠٦)أَفَـــأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَـــهُمْ**

---

(١) وذلك فى قوله تعالى : **﴿ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهـم عنها معرضون ﴾** سورة يوسف الآية ١٠٥

(٢)اللف والنشر : أن يذكر متعدد ثم يذكر ما لكل من أفراده شائعا مـــن غـــير تعيين ، اعتمادا على تصرف السامع فى تمييز ما لكل واحد منها ، ورده إلى ما هو له .
وهو نوعان : (أ) إما أن يكون النشر فيه على ترتيب الطى ، نحو قولـــه تعالى : **﴿ ومن رحمته أن جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا مـــن فضله ﴾** ، فقد جمع بين الليل والنهار ، ثم ذكر السكون لليل وابتغاء الــــرزق للنهار على الترتيب . (ب) وإما أن يكون النشر على خلاف ترتيب الطـــى ـــ نحو : **﴿ فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضـــلا مـــن ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب ﴾** . ذكر ابتغاء الفضل للثانى ، وعلـــم الحساب للأول على خلاف الترتيب . انظر : جواهر البلاغة فى المعانى والبيان البديع للسيد أحمد الهاشمى . ص ٣٠٠ ، ٣٠١ .

(٣) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور ١٠ / ٢٦٢ ـــ ٢٦٣

(٣) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور ١٠/٢٦٢ ـــ ٢٦٣ .

غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ(١٠٧)قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّـــهِ وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ(١٠٨) ﴾ (١) .

فبيان آى السموات فى قوله : ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَـيْرِ عَمَـدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُـلٌّ يَجْـرِي لأَجَـلٍ مُسَمًّى ﴾ (٢) ، وبيان آى الأرض فى قوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ (٣) .

فهذه آى السموات والأرض ، وقد زيدت بيانا فى مواضـــع . وفى قوله تعالى : ﴿ يغشى الليل النهار ﴾ ما يصدر من الآيـــات عن السموات والأرض ، لأن الظلمة التى لليل صادرة عن حـــرم الأرض ، وضياء النهار يكون من نور الشمس ، وهى سماوية . ثم زاد تعالى آيات الأرض بيانا وتفصيلا فى قوله : ﴿ وفي الأرض قطـع متجاورات ﴾ إلى قوله :﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ (٤) .

أيضا فقد قال مثل ما سبق السيوطى (٥) والألوسى (٦) . وأرى أنهما قـد تأثرا برأى أبى جعفر بن الزبير ، إلا أن السيوطى أضاف قائلا : " هذا مـع

---

(١) سورة يوسف الآيات من ١٠٥ ــ ١٠٨ .

(٢) سورة الرعد الآية ٢ .

(٣) سورة الرعد الآية ٣ .

(٤) الآية سورة الرعد : ٤ ، والنص انظر : نظم الدرر ١٠ / ٢٦٤ ــ ٢٦٥ بتصرف .

(٥) فى أسرار ترتيب القرآن ص ١٠٩ ــ ١١٠ .

(٦) فى روح المعانى ١٣ / ٨٤ .

اختتام سورة يوسف بوصف الكتاب بالحق ، وافتتاح هذه أى ـ سورة الرعد ـ بمثل ذلك . وهو من تشابه الأطراف " [١] .

وبهذا يتضح لنا أن هاتين السورتين مترابطتان تمام الترابط ، وتظهر الوحدة الموضوعية بين سور القرآن الكريم وكأنه عقد منظوم منتهى التناسق والتماثل بين حباته ، أو حلقة مفرغة لا يعرف بدايتها من نهايتها ، وهذا يدل على أن القرآن الكريم معجز ليس فى تشريعاته وأحكامه وأسلوبه ... فحسب بل أيضا فى ترتيب آياته وسوره . فكل سورة تمهد للسورة اللاحقة فى تسلسل فكرى متصل أتم الإتصال ، وأن خاتمة كل سورة متناسبة تمام المناسبة لمفتتح السورة اللاحقة .

سبب نزول سورة يوسف :

وقد ورد فى سبب نزولها روايات متعددة منها :

روى عن سعد بن أبى وقاص أنه أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه على أصحابه زمانا فقالوا : يا رسول الله لو قصصت علينا فنزلت [٢] .

وقيل هو تسلية للرسول ﷺ عما كان يفعل به قومه بما فعل إخوة يوسف به [٣] .

وقيل إن اليهود سألوا الرسول ﷺ أن يحدثهم بأمر يعقوب وولده ، وشأن يوسف فنزلت [٤].

---

(١) أسرار ترتيب القرآن ص ١١٠ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ٩ / ٧٩ .

(٣) البحر المحيط لأبى حيان ٦ / ٢٣٤ .

(٤) المرجع السابق .

وقيل إن كفار مكة أمرتهم اليهود أن يسألوا رسول الله ﷺ عن السبب الذى أحل بنى اسرائيل بمصر فسألوه فنزلت [1] .

ويستشهد للقولين الأخيرين ما أخرجه البيهقى فى الدلائل عن طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن حبرا من اليهود دخل على رسول الله ﷺ ، فوافقه وهو يقرأ سورة يوسف ، فقال يا محمد ، من علمكها ؟ ! قال : " الله علمنيها " فعجب الحبر لما سمع منه ، فرجع إلى اليهود ، فقال لهم : والله أن محمدا ليقرأ القرآن كما أنزل فى التوراة ، فانطلق بنفر منهم حتى دخلوا عليه ، فعرفوه بالصفة ، ونظروا إلى خاتم النبوة بين كتفيه ، فجعلوا يستمعون إلى قراءته بسورة يوسف فتعجبوا منه وأسلموا عند ذلك [2] .

وقد عقب الألوسى على الرواية السابقة فقال : " وفى القلب من صحة الخبر ما فيه " [3] .

الوحدة الموضوعية لسورة يوسف :

تعتبر سورة يوسف من أعظم المسليات التى واسى الله ـ تعالى ـ بها نبيه ﷺ فقد أخبره عما دار بين يوسف وإخوته ، وعما تعرض له هذا النبى الكريم من مصائب الدنيا .

---

(١) روح المعانى للألوسى ١٢ / ١٧٠ .

(٢) انظر الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للسيوطى ٤ / ٣ .

(٣) روح المعانى للألوسى ١٢ / ١٧٠ .

ولا شك أن فى قصة يوسف وما يشبهها ، تسلية للرسول ﷺ عما أصابه من قومه .

والذى يطالع هذه السورة الكريمة بتدبر وتركيز يجدها قد تناولت حكم وأحكام ، وعبر وعظات بأسلوب مشوق حكيم ، تهدى النفوس ، وتشرح الصدور ، وتكشف عن الخفايا التى لا يعلمها أحد إلا الله تعالى ، وتصور أحوال النفس الإنسانية تصويرا بديعا معجزا . وتهون على أصحاب البلوى والمحن بأن النقم والمحن قد تكون ذريعة لكثير من النعم لمن اتقى ﴿ **إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين** ﴾ .

وقد هدتنى قراءتى لسورة يوسف قراءة مطمئنة ، ودراسة فاحصة لطالبات الدراسات العليا بالكلية إلى تقسيمها إلى هذه الموضوعات ، وكلها تدل على الوحدة الموضوعية للسورة .

الموضوع الأول [1] : قصص يوسف عليه السلام أحسن القصص .

إن الذى يقرأ السورة بإمعان وتدبر يجد فاتحتها تدل فى براعة الإستهلال على هدفها .قال جل ذكره ﴿ **الــر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ(١)إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(٢)نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ(٣)** ﴾ .

---

(١) الآيات من ١ ـ٣ .

هذه الآيات هى فاتحة السورة ، وتعتبر مقدمة طبيعية لمــا جــاء بعدها مباشرة من البدء فى قصة يوسف ــ عليه السلام ــ وهــذا مــا يسميه علماء البلاغة ب (براعة الإستهلال) .

قال السيوطى : " ومن الإبتداء الحسن نوع أخــص منــه يســمى براعة الإستهلال ، وهو أن يشتمل أول الكلام على ما يناســب الحــال المتكلّم فيه ،ويشير إلى ما سبق الكلام لأجله " [1]

فلما كان جسم هذه السورة قصة ، فقد أبرز ذكر القصص من مادة هذا الكتاب على وجه التخصيص ، وهو جزء من القرآن الموحى به .

الموضوع الثانى [2] : يوسف فى دور الطفولة مع أبيه وقــد رأى رؤيا ونُصح أبيه له :

قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ(٤)قَالَ يَابُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ(٥) ﴾

الموضوع الثالث [3] : يوسف وإخوته وما كان منهم :

تناولت السورة فى هذا الموضوع مكر أخوة يوسف به ، وحسدهم له ، وتآمرهم على الإنتقام منه وإجماعهم على أن يلقوا به فى الجــب ، وتنفيذهم لذلك بعد خداعهم لأبيهم ، وزعمهم له بأنهم سيحافظون علــى أخيهم يوسف .

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٣ / ٣١٨ .تحقيق محمد أبوالفضل ابراهيم .

(٢) الآيات من ٤ ــ ٦ .

(٣) الآيات من ٧ ــ ١٨ .

قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(٨)اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ . . . . ﴾ الآيات

الموضوع الرابع [١] : يوسف مع السيارة :

فقد حدثتنا السورة عن انتشال السيارة ليوسف من الجب ، وعن بيعهم له بثمن بخس دراهم معدودة . قال تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَابُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ(١٩)وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنْ الزَّاهِدِينَ(٢٠) ﴾ .

الموضوع الخامس [٢] : يوسف فى بيت عزيز مصر :

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . . . ﴾

الموضوع السادس [٣] : يوسف مع امرأة العزيز وكيف كانت محنته ؟

فى هذا الموضوع تحدثت الآيات عن محنة يوسف عليه السلام فى دار العزيز ومراودة امرأته ليوسف لأجل أن يريد منها ما تريد هى ،

---

(١) الآيتان ١٩ ــ ٢٠ .

(٢) الآيتان ٢١ ــ ٢٢ .

(٣) الآيات من ٢٣ ــ ٢٩ .

وإعدادها الوسائل لذلك . ثم تحدثت عن تمنّعه من ذلك وردهـا معـتزا بالإيمان بالله وبالأمانة لسيده وفى ذلك يقول الله تعالى :﴿ **وَرَاوَدَتْهُ الَّتِـي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتْ الأبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّـهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ....** ﴾ .

ثم تحدثت عن إجلاء الحقيقة بشهادة شاهد من أهلها وافتضاح أمرهـا فيقول : ﴿ **وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُـوَ مِنْ الْكَاذِبِينَ(٢٦)وَإِنْ كَانَ قَمِيصُـهُ قُـدَّ مِـنْ دُبُـرٍ فَكَذَبَـتْ وَهُـوَ مِـنْ الصَّادِقِينَ(٢٧)فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُـنَّ إِنَّ كَيْدَكُـنَّ عَظِيمٌ(٢٨)يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْـتَغْفِرِي لِذَنْبِـكِ إِنَّـكِ كُنـتِ مِـنْ الْخَاطِئِينَ(٢٩)** ﴾ .

الموضوع السابع [1] : شيوع الخبر فى المدينة وما ترتب على ذلك

تحدثت السورة فى هذا الموضوع عن شيوع خبر امرأة العزيز مع فتاها ، وعما فعلته تلك المرأة مع النسوة الاتى أشعن الخبر ، وعـن لجـوء يوسف ــ عليه السلام ــ إلى ربه يستجير به من كيد هؤلاء النسوة ، وحبـه لدخول السجن مما يدعونه إليه من ارتكاب الفاحشة .

قال تعالى حاكيا هذا المشهد بأسلوب معجز : ﴿ **وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا...** ﴾ إلى قولـه : ﴿ **فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ .

---

(١) الآيات من ٣٠ ــ ٣٤ .

(٢) الآيات من ٣٥ : ٤٠ .

الموضوع الثامن [1] : يوسف فى السجن :

تحدثت السورة الكريمة فى هذا الموضوع عن يوسف السجين المظلوم ، وكيف أنه لم يمنعه السجن من دعوة رفاقه فيه إلى وحدانية الله ، وإلى إخلاص العبادة له سبحانه .

﴿ يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ(٣٩)مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلاَ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَ تَعْبُدُوا إِلاَ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ(٤٠) ﴾ .

الموضوع التاسع [2] : تأويل يوسف لرؤيا صاحبيه :

قال سبحانه : ﴿ يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ٠ ﴾ .

الموضوع العاشر [3] : تأويل يوسف لرؤيا ملك مصر ودعوته للإلتقاء به :

تحدثت السورة فى هذا الموضوع عن الرؤيا المفزعة التى رأها ملك مصر فى ذلك الوقت ، وكيف أن حاشيته عجزت عن تفسيرها ، ولكن يوسف الصديق فسرها تفسيرا صحيحا أعجب الملك ، وحمله على دعوته للإلتقاء به .

---

(١) الآيات من ٣٥ : ٤٠ .

(٢) الآيتان ٤١ ، ٤٢

(٣) الآيات ٤٣ ــ ٥٢

قال تعـــالى ﴿ وَقَـــالَ الْمَلِـكُ إِنِّـي أَرَى سَـبْعَ بَقَـرَاتٍ سِـمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُـنْبُلاَتٍ خُضْـرٍ وَأُخَـرَ يَابِسَـاتٍ يَاأَيُّـهَا الْمَلأُ أَفْتُونِـــي فِـي رُؤْيَــاي إِنْ كُنْتُـمْ لِلرُّؤْيَـا تَعْـبُرُونَ(٤٣)قَـالُوا أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَـأْوِيلِ الأَحْـلاَمِ بِعَـالِمِينَ(٤٤)وَقَـالَ الَّـذِي نَجَـا مِنْـهُمَا وَادَّكَـــرَ بَعْــدَ أُمَّـــةٍ أَنَــا أُنَبِّئُكُـمْ بِتَأْوِيلِــهِ فَأَرْسِلُونِ(٤٥)يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَـا فِـي سَـبْعِ بَقَرَاتٍ سِـمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاَتٍ خُضْـرٍ وَأُخَـرَ يَابِسَـاتٍ لَعَلِّـي أَرْجِـعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُـونَ(٤٦)قَـالَ تَزْرَعُـونَ سَـبْعَ سِـنِينَ دَأَبًـا فَمَـا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّـا تَـأْكُلُونَ.... ﴾ الآيـات .

الموضوع الحادى عشر [1] : النفس أمارة بالسوء :

لما اعترفت امرأة العزيز فى الآيـات السـابقة بصـدق يوسـف عليه السلام وقالت ﴿ الآن حصحص الحق أنا راودتـــه عـن نفســه وإنه لمن الصادقين .. ﴾ ثم قالت هنـــا ﴿ وَمَــا أُبَـرِّئُ نَفْسِـي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّـي غَفُـورٌ رَحِيـمٌ ﴾ ، وهذا اعتراف بالحق ، والإعتراف بـالحق فضيلـة .

الموضوع الثانى عشر [2]: تولية يوسف رئيسا لحكومـة مصـر ومهيمنا على ماليتها :

فى هذا المشهد بيان سنة مـن سـنن الله تعـالى التـى لا تتخلـف ، والتى تتمثل فـى حسـن عاقبـة المؤمنيـن حيـث يقـول سـبحانه

(١) الآية ٥٣ .

(٢) الآيات من ٥٤ ــ ٥٧ .

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ(٥٤)قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ(٥٥)وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ(٥٦)وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ(٥٧) ﴾ .

الموضوع الثالث عشر [١]: اللقاء الأول الذى تم بين يوسف وإخوته ، وطلبه أن يحضروا أخيهم من أبيهم :

يحكى هذا المشهد كيف تم اللقاء بين يوسف وإخوته حين جاءوا من بلادهم بفلسطين إلى مصر يلتمسون الزاد، وأنه عرفهم دون أن يعرفوه ، وطلب منهم أن يحضروا إليه من بلادهم ومعهم أخوهم من أبيهم ــ وهو شقيقه بنيامين ــ وكيف أن أباهم وافق على إرسال "بنيامين" معهم بعد أن أخذ عليهم العهود والمواثيق لكى يحافظوا عليه .

قال تعالى : **﴿ وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ٠٠٠ ﴾ الآيات .**

---

(١) الآيات من ٥٨ ــ ٦٦ .

الموضوع الرابع عشر [1] : يعقوب يوصى أبنائه الذاهبين إلى مصر:

تحدثنا الآيات عن وصية يعقوب عليه السلام لأبناءه ألا يدخلوا مصر من باب واحد ولكن يدخلوها من أبواب متفرقة حتى لا يحسدهم حاسد أو يكيد لهم كائد فيحل بهم مكروه .

قال جل ذكره ﴿ **وَقَالَ يَابَنِيَّ لاَ تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ...** ﴾ .

الموضوع الخامس عشر [2] : اللقاء الثانى بين يوسف وإخوته ، وتدبير حيلة لإبقاء أخيه بنيامين عنده :

تحدثنا الآيات عن حضور إخوة يوسف للمرة الثانية ومعهم " بنيامين " شقيق يوسف ، وكيف تعرف يوسف عليه ثم تدبير حيلة ليحتجزه عنده .

قال تعالى : ﴿ **وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٦٩)فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ(٧٠)قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ(٧١)قَالُوا نَفْقِدُ**

---

(١) الآيتان ٦٧ ، ٦٨ .

(١) الآيات من ٦٩ ــ ٨٧ .

صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ(٧٢)قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ(٧٣)قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنتُمْ كَاذِبِينَ(٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ(٧٥)فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ٠٠ ﴾ .

وينتهى هذا الموضوع بقول يعقوب ــ عليه السلام ــ لأبنائه بعد أن عادوا إليه وليس معهم أخوهم " بنيامين : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ٠٠٠ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

الموضوع السادس عشر [١] : اللقاء الثالث بين يوسف وإخوته وتعرفهم عليه .

تتحدث السورة فى هذا الموضوع عن اللقاء الأخير بين يوسف وإخوته ، وكشفه عن نفسه فى هذا اللقاء ، وأمرهم أن يعودوا إلى أبيهم ويلقوا بقميصه على وجه أبيه .

---

(١) الآيات من ٨٨ ــ ٩٣

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَاأَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ(٨٨)قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ(٨٩)قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ(٩٠) ٠٠٠٠ ﴾ الآيات .

﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ(٩٣) ﴾

الموضوع السابع عشر[1] : يعقوب وقد جاء البشير :

لقد شم يعقوب ــ عليه السلام ــ رائحة قميص ابنه منذ فصلت العير من مصر وهنا لا ننكر أن خارقة من الخوارق يمكن أن تقع لنبى كيعقوب من ناحية نبى كيوسف وهذا مسطور فى النص القرآنى قال تعالى ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتْ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِي٠٠٠ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ .

الموضوع الثامن عشر[2] : تأويل رؤيا يوسف من قبل .

فى النهاية يجئ ذلك الموقف الجليل الرائع . موقف اللقاء الجامع ويوسف فى أوج سلطانه وأوج تأويل رؤياه وتحقق احلامه . وإذا به ينسلخ من هذا كله وينتحى جانبا مناجيا ربه .

---

(١)الآيات من ٩٤ ــ ٩٨ .

(٢) الآيات من ٩٩ ــ ١٠١ .

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ .

الموضوع التاسع عشر[1] : القصة وما تشير إليه من أهداف :

هذا هو الموضوع الأخير من السورة ، وهو تعقيب على ما جاء فى تلك القصة من حكم وأحكام ، ومن عبر وعظات ، ومن آداب وهدايات .

وهذا التعقيب يترابط مع التقديم للقصة ، حيث قال سبحانه ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ .

ومن ثم يعقب ذلك،التسرية عن قلب الرسول ﷺ وتهوين أمر المكذبين على نفسه وبيان مدى عنادهم وإصرارهم وعماهم عن الآيات المبثوثة فى كتاب الكون ، وهى حسب الفطرة السليمة فى التنبه إلى دلائل الإيمان . ثم تهديدهم بعذاب الله الذى قد يفاجئهم وهم غافلون قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ(١٠٢)وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ(١٠٣)وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ(١٠٤)وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ(١٠٥)وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ(١٠٦) ﴾ .

---

(١) الآيات من ١٠٢ ــ ١١١.

ولما كان الغرض من القصص القرآنى العبرة والعظة بمن تقدم من الأمم فضلا عن أنها دليل النبوة لما فيها من الأخبار التى لا تعرف إلا بالوحى للرسل ، لهذا ختم سبحانه السورة بقوله **﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾** .

هذا عرض مجمل لأهم الموضوعات التى اشتملت عليها سورة يوسف ــ عليه السلام ــ ومن هذا العرض نرى الوحدة الموضوعية فى السورة الكريمة .

يقول الشيخ السيد قطب [١] : " والسورة كلها لحمة واحدة عليها الطابع المكى واضحا فى موضوعها وفى جوها وفى ظلالها وفى إيحاءاتها . بل إن عليها طابع هذه الفترة الحرجة الموحشة بصفة خاصة .. ففى الوقت الذى كان رسول الله ﷺ يعانى من الوحشة والغربة والإنقطاع فى جاهلية قريش ــ منذ عام الجزن ــ وتعانى منه الجماعة المسلمة هذه الشدة كان الله ــ سبحانه ــ يقص على نبيه الكريم قصة أخ له كريم ــ يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم ــ عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين ــ وهو يعانى صنوفا من المحن والإبتلاءات : محنة كيد الإخوة . ومحنة الجب والخوف والترويع فيه . ومحنة الرق وهو ينتقل كالسلعة من يد إلى يد على غير إرادة منه . ولا حماية ولا رعاية من أبويه ولا من أهله . ومحنة كيد امرأة العزيز والنسوة ، وقبلها ابتلاء الإغراء والشهوة والفتنة ! ومحنة السجن بعد رغد العيش

---

(١) فى ظلال القرآن ٤ / ١٩٥٠ بتصرف .

وطراوته فى قصر العزيز ، ثم محنة الرخاء والسلطان المطلق فـى يديه ، وهو يتحكم فى أقوات الناس ... ومحنة المشاعر البشرية وهـو يلقى بعد ذلك إخوته الذين ألقوه فى الجب وكانوا السبب الظاهر لـــهذه المحن والإبتلاءات كلها .. هذه المحن والإبتلاءات التى صبر عليـــها يوسف ــ عليه السلام ــ وزوال دعوته إلى الإســلام مــن خلالـــها ، وخرج منها كلها متجردا خالصا ، منيبا إلى ربه ...

فلا عجب أن تكون هذه السورَة بما احتوته من قصة ذلـــك النبـــى الكريم تسلية للرسول ﷺ ولأصحابه عما أصابهم من أعدائهم ، وتسرية لقلوبهم وتطمينا لنفوسهم .

وكأن هذه السورة ايحاء من الله لنبيه ﷺ بالإخراج من مكة إلى دار أخرى يكون فيها النصر والتمكين ! كما أخرج يوسف من حضن أبيه ، ليواجه هذه الإبتلاءات كلها ، ثم لينتهى بعد ذلك بالنصر والتمكين " .

وبعد :

فهذه مقدمة لسورة يوسف ــ عليه السلام ــ رأيت أن أسوقها قبل البدء فى تفسيرها ، لعلها تعين القارئ على فهم ما اشتملت عليه من حكم وأحكام . ومن عبر وعظات ..
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

عفاف النجار

قصص يوسف ـ عليه السلام ـ أحسن القصص

قال الله تبارك وتعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ(١)إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(٢)نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنْ الْغَافِلِينَ(٣) ﴾ .

افتتحت سورة يوسف ـ عليه السلام ـ ببعض حروف التهجى .

وقد وردت هذه الفواتح تارة مفردة بحرف واحد ، وتارة مركبة من حرفين ، أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة .

فالسور التى افتتحت بحرف واحد ثلاثة وهى سورة : ص ، ق ، ن .

والسور التى افتتحت بحرفين تسعة ، وهى : طه ، طس ، يس ، حم فى ست سور ، وهى : غافر ، فصلت ، الزخرف ، الدخان ، الجاثية ، الأحقاف

والسور التى بدئت بثلاثة أحرف ، ثلاثة عشرة سورة وهى ألم فى ست سور ، وهى : البقرة ، آل عمران ، العنكبوت ، الروم ، لقمان ، السجدة ، والر فى خمس سور هى : يونس ، هود ، يوسف ، إبراهيم ، وطم فى سورتين هما : الشعراء ، القصص .

وهناك سورتان بدئتا بأربعة أحرف وهما : الأعراف ، الرعد .

وسورتان بدئتا بخمسة أحرف وهما : مريم ، والشورى .

فيكون مجموع السور التى افتتحت بالحروف المقطعة تسعا وعشرين سورة ..

هذا ، وقد وقع خلاف بين العلماء فـــى المعنـــى المقصـــود بتلـــك الحروف المقطعة التى افتتحت بها بعض السور القرآنية ، ويمكن إجمال خلافهم فى رأيين رئيسيين :

الرأى الأول : يرى أصحابه أن المعنـــى المقصـــود منـــها غـــير معروف ، فهى من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه .

وروى فى ذلك عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قـــال : " لكل كتاب سر وسر القرآن أوائل السور " [1] .

وعن على ــ رضى الله عنه ــ : " أن لكل كتاب صفوة ، وصفـوة هذا الكتاب حروف التهجى " [2] .

كما روى عن الشعبى أنه سئل عن هذه الحروف فقال : " ســـر الله فلا تطلبوه " [3] .

وأورد القرطبى عن الربيع بن خثيم [4] قال : " إن الله تعالى أنـــزل هذا القرآن فاستأثر منه بعلم ما شاء ، وأطلعكم على ما شاء . فأما مـــا استأثر به لنفسه ، فلستم بنائليه فلا تسألوا عنه . وأما الذى أطلعكم عليـــه ،

---

(1) انظر مفاتيح الغيب للفخر الرازى ٢ / ٣ ، وروح المعانى للألوسى ١ / ١٠٠ .

(2) مفاتيح الغيب ٢ / ٣ .

(3) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١ / ١٥٤ .

(4) هو الربيع بن خثيم بن عائذ بن عبد الله أبو يزيد الكوفـــى . وهـــو تـــابعى . روى عن النبى ﷺ مرسلا، وعن ابن مسعود وغيره . قال عنه الشعبى: كـــان من معادن الصدق . مات بعد قتل الحسين ــ رضى الله عنه ــ سنة ٦٣ هـــ . انظر تهذيب التهذيب لابن حجر ٣ / ٢٤٢ .

فهو الذى تسألون عنه وتخبرون به ، وما بكل القرآن تعلمون ، ولا بكل ما تعلمون تعملون . " (١)

ونهج السوطى هذا المنهج فقال : " والمختار فيها أنها من الأسرار التى لا يعلمها إلا الله تعالى (٢) وذهب إليه أبوحيان (٣)

ومن الإعتراضات التى وجهت إلى هذا الرأى ، أنه إذا كان الخطاب بهذه الفواتح غير مفهوم للناس ، لأنه من المتشابه ، فإنه يترتب على ذلك أنه كالخطاب بالمهمل ، أو مثل ذلك كمثل المتكلم بلغة أعجمية مع أن أناس عرب لا يفهمونها .

وقال الفخر الرازى : " واعلم أن المتكلمين أنكروا هذا القول . وقالوا : لايجوز أن يرد فى كتاب الله تعالى ما لا يكون مفهوما للخلق " (٤) .

وقد احتجوا عليه بآيات كثيرة نحو قوله تعالى : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾ (٥) ، وأنه ﴿ بلسان عربى مبين ﴾ (٦) ، وأنه جاء : ﴿ تبيانا لكل شئ ﴾ (٧) ،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١ / ١٥٤ .

(٢) الاتقان فى علوم القرآن ٢ / ١١ .

(٣) فى البحر المحيط ١ / ٣٥ .

(٤) مفاتيح الغيب ٢ / ٣ .

(٥) سورة النساء الآية ٨٢ .

(٦) سورة الشعراء الآية ١٩٥ .

(٧) سورة النحل الآية ٨٩ .

ونحو ذلك من الاستلال بالآيات والأخبار والمعقول . وكل هذه الصفات لا تحصل فى غير معلوم .

وقد أجيب عن ذلك ، بأن هذه الألفاظ لم ينتف الإفهام عنها عند كل الناس ، فالرسول ﷺ كان يفهم المراد منها ، وكذلك بعض أصحابه المقربين ، ولكن الذى ننفيه أن يكون الناس جميعا فاهمين لمعنى هذه الحروف المقطعة فى أوائل السور .

أما الرأى الثانى فيرى أصحابه : أن هذه الفواتح مما يدرك بالعقول وتصل إليه الأفهام ، وأنه لا حرج من البحث فيها .

ولذا فقد خاض العلماء فى بيان معناها ، وتعددت أقوالهم ، لأنه لم يثبت فيها عن الرسول ﷺ شئ ، ولو ثبت عنه شئ فيها ، لما كان لغيره مجال لرأى أو اجتهاد .

قال الشوكانى : " لا نعلم أن رسول الله ﷺ تكلم فى شئ من معانيها ، بل غاية ما ثبت عنه هو مجرد عد حروفها " (١) .

والدليل على قوله هذا ما ورد عن ابن مسعود قال : " قال رسول الله ﷺ : " من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف " (٢) .

---

(١) فتح القدير ١ / ٣١ ــ ٣٢ .

(٢) أخرجه الترمذى . كتاب فضائل القرآن . باب ما جاء فيمن قرأ حرفا من القرآن ٥ / ١٧٥ قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

فما روى فى بيان معناها عن بعض الصحابة فهو من اجتهاداتهم واستباطاتهم ، لهذا تعددت أقوالهم أهمها ما يأتى :

١ ــ **أنها أسماء الله تعالى .**

٢ ــ **أنها رموز لبعض أسماء الله تعالى أو صفاته أو أفعاله .** وكل حرف منها لمعنى غير معنى الحرف الآخر . فقد روى عن ابن عباس أنه قال فى (الم) : الألف إشارة إلى أنه أحد ، أول ، آخر ، أزلى ، أبدى . واللام إشارة إلى أنه ملك ، مجيد . منان " [(١)]

٣ ــ **ومنها انها أسماء للسور .** واستدلوا على هذا برواية أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى صلاة الصبح يوم الجمعة (الم السجدة) و(هل أتى على الإنسان) [(٢)] .

٤ ــ **ومنها أنها أقسام أقسم الله بها .**

٥ ــ **وقيل : إنها للإنتباه والإستماع** ، إذ أعرض المشركون عند سماع القرآن الكريم ، وصموا آذانهم عنه . فأراد سبحانه أن ينبههم بتلك الحروف ليستمعوا لما سيتلى عليهم بعدها .

فقد روى أن الكفار لما قالوا : ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ [(٣)] وتواصوا بالإعراض عنه ، أراد الله تعالى لما

---

(١) مفاتيح الغيب ٢ / ٦ ، والإتقان فى علوم القرآن ٢ / ١١ ــ ١٢ .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب الجمعة . باب ما يقرأ فى صلاة فجر يوم الجمعة ٢ / ٣١٤ من الفتح .

(٣) سورة فصلت الآية ٢٦ .

أحب من صلاحهم ونفعهم أن يورد عليهم ما لا يعرفونه ليكـــون ذلـــك سببا لإسكاتهم واستماعهم لما يرد عليهم من القرآن ؛ فأنزل الله تعـــالى عليهم هذه الحروف فكانوا إذا سمعوها قالوا كالمتعجبين : اسمعوا إلـــى ما يجئ به محمد عليه السلام ، فإذا أصغوا هجم عليهم القرآن فكان ذلك سببا لاستماعهم وطريقا إلى انتفاعهم . وقد نسب هذا القول لابـــن روق وقطرب [1] .

٦ ــ **ومنها أنها تدل على انقطاع كلام واستئناف كـــلام آخـــر .** قـــال الطبرى : " افتتح الله بها ليعلم أن السور التى قبلها قد انقضـــت ، وأنه قد أخذ فى أخرى فجعل هذا على انقطاع ما بينهما [2].

٧ ــ **وقيل أنها للتحدى والإعجاز .**

نخلص من هذا إلى أن الله تعالى أنزل هذه الحروف فـــى أوائـــل السور ، وسكت عنها صاحب الشرع ﷺ ، ليطلق الحرية للعقول فـــى فهمها ، ويذر الناس يبحثون فيها ، تنبيها على القدرة التامة فى جـــانب الله عز وجل ، والقصور فى جانب العباد . وستظل لله فيها أسرار .

وبهذا يتضح لى أن كل ما قال برأى ، إنما قاله من وجهة نظـــره ، ومن خلال فهمه واستنتاجاته ليس أكثر .

---

(١) انظر مفاتيح الغيب للفخر الرازى ٢ / ٦ ، وجامع البيان فى تفسـير القـــرآن للطبرى ١ / ١٥٥ ، والبرهان فى علوم القرآن للزركشى ١ / ١٧٥ .

(٢) جامع البيان فى تفسير القرآن ١ / ٦٩ .

ولعل أقرب الأقوال إلى الصواب أنها للتحدى والإعجاز ، وكأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يبين لهؤلاء المعاندين المكابرين أن هذا القرآن الذى تحداهم به وعجزوا عن الإتيان بمثله ، أو بعشر سور، أوبسورة واحدة ، إنما هو مؤلف من جنس هذه الحروف التى ينطقون بها ، ومن اللغة العربية التى ليست دخيلة عليهم ، فى حين أنهم كانوا فى ذلك الوقت علماء الفصاحة والبيان فلما عجزوا ، دل ذلك على أن القرآن الكريم من عند الله عز وجل ، وليس من عند البشر كما زعموا .

ومما يشهد لصحة هذا الرأى : أن الآيات التى تلىهذه الحروف المقطعة تراها تتحدث صراحة أو ضمنا ــ عن القرآن الكريم وعن كونه من عند الله تعالى ــ وعن كونه معجزة للرسول ﷺ ففى مطلع سورة البقرة : ﴿ **الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ...** ﴾ وفى مطلع سورة آل عمران : ﴿ **الم الله لا إله إلا هو الحى القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه ، وأنزل التوراة والإنجيل ...** ﴾ وفى أول سورة يونس : ﴿ **الر * تلك آيات الكتاب الحكيم * أكان الناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ...** ﴾ .

وهكذا **نجد** أن معظم الآيات التى تلى الحروف المقطعة ، منها ما يتحدث عن أن هذا الكتاب من عند الله سبحانه ومنها ما يتحدث عن وحدانية الله تعالى ومنها ما يتحدث عن صدق الرسول ﷺ فى دعوته .

وهذا كله يدل على أن القرآن من عند الله ، وأنه المعجزة الخـــالدة للرسول ﷺ .

ولكن مهما قيل من أقوال وآراء ، فما هي إلا قطرة أو قطرات فـي بحر خلق الله الذى لا يعرف مداه سواه سبحانه وتعالى : ﴿ **قل لو كـان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنـا بمثله مددا** ﴾ [1] . وقال تعالى : ﴿ **ولو أنما فى الأرض مـن شـجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفـدت كلمـات الله إن الله عزيز حكيم** ﴾ [2] .

ثم قال تعالى : ﴿ **تلك آيات الكتاب المبين** ﴾

﴿ **تلك** ﴾ اسم إشارة ، والمشار إليه الآيات أى آيات هذه السـورة وأشير إليها مع أنها لم تكن قد نزلت جميعها ، لأن الإشارة إلى بعضـها كالإشارة إلى جميعها [3] ، وقيل : لأنها مترقبة فأنزلها منزلة المتقـدم . أو لجعل حضورها فى الذهن بمنزلة الوجود الخارجى . واستخدم اسـم الإشارة للبعيد ، لأن ما أشير إليه لما لم يكن محسوساً نزل منزلة البعيد لبعده عن حيز الإشارة أو لعظمته وبعد مرتبته [4] .

---

(١) سورة الكهف الآية ١٠٩ .

(٢) سورة لقمان الآية ٢٧ .

(٣) التفسير الوسيط للقرآن الكريم . المجلد ٧ / ٣١٥ .

(٤) روح المعانى ١٢ / ١٧٠ بتصرف .

الكتاب : المراد به القرآن الكريم .

المبين : من أبان بمعنى بان أى ظهر . فهو الظاهر أمره فى كونه من عند الله تعالى . والمبين حلاله وحرامه ، وحدوده وأحكامه ، وهُداه وبركته .

والمعنى : تلك الآيات التى نتلوها فى هذه السورة وفى غيرها هى آيات الكتاب الظاهر أمره ، والمظهر لما شاء من حلال وحرام وأحكام وتشريعات ، والمرشد إلى مصالح الدنيا وسبيل الوصول إلى سعادة الآخرة .

ثم بين سبحانه الحكمة من إنزاله بلسان عربى مبين فقال : ﴿ **إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون** ﴾

﴿ **أنزلناه** ﴾ : الضمير عائد على القرآن . أى أنزلنا هذا الكتاب الذى فيه قصة يوسف . والتأكيد بحرف (إن) ، للرد على المشركين الذين أنكروا أن يكون هذا القرآن من عند الله .

وسمى القرآن قرآنا ، لأنه فى اللغة مصدر مرادف للقراءة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه** .. ﴾ ثم نقل من هذا المعنى المصدرى وجعل اسما للكلام المعجز المنزل على النبى ﷺ ، من باب اطلاق المصدر على مفعوله ، وهذا ما اختاره الشيخ الزرقانى [1] وهو اسم جنس يقع على كله وبعضه ، والقرآن حال من الضمير فى أنزلناه أو بدل منه .

---

(١) فى مناهل العرفان ١ / ٧ .

قوله :﴿ عربيا ﴾ : صفة للقرآن . ومعنى كونه عربيا أى أنه منسوب إلى العرب باعتبار أنه نزل بلغتهم . روى محمد بن على بن الحسين عن آبائه ﷺ أجمعين عن النبى ﷺ قال : " أول من فتق لسانه بالعربية المبينة إسماعيل ـ عليه السلام ـ وهو ابن أربعة عشرة سنة [1] وهذا موافق لما هو مشهور على الألسنة أن إسماعيل ـ عليه السلام ـ أبو العرب .

قال ابن كثير [2] : وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها وأكثرها تأدية للمعانى التى تقوم بالنفوس فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات على أشرف الرسل بسفارة أشرف الملائكة .وكان ذلك فى أشرف بقاع الأرض ، وابتدئ فى إنزاله فى أشرف شهور السنة وهو رمضان ، فكمل من كل الوجوه " أ . هـ

وقال الجمل [3]: " واختلف العلماء هل يمكن أن يقال : فى القرآن شئ غير عربى .

قال أبو عبيدة : ومن قال بأن فى القرآن شئ غير عربى فقد أعظم على الله القول . واحتج بهذه الآية **﴿ إنا أنزلناه قرآنا عربيا ﴾**

وروى **ابن عباس** ومجاهد وعكرمة بأن فيه من غير العربى مثل : سجيل ، والمشكاة ، واليم ، وإستبرق ، ونحو ذلك .

وهذا هو الصحيح المختار ، لأن هؤلاء أعلم من أبى عبيدة بلسان العرب وكلا القولين صواب إن شاء الله .

---

(١) روح المعانى ١٢ / ١٧٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢ / ٤٤٨ .

(٣) انظر حاشية الجمل على الجلالين ٢ / ٤٣٢ .

ووجه الجمع بينهما أن هذه الألفاظ لما تكلمت بـــها العـــرب ، ودارت على ألسنتهم صارت عربية فصيحـــة ، وإن كـــانت غـــير عربية فى الأصل ، لكنهم لما تكلموا بها نسبت إليهم ، وصارت لهم لغة ، فظهر بهذا البيان صحة القولين ، وأمكن الجمع بينـــهما . أ . هـــ

وجملة ﴿ **لعلكم تعقلون** ﴾ بيان لحكمة إنزاله بلغة العـــرب أى لكى تعلموا معانيه ، وتفهموا ما فيه . وحذف مفعول " تعقلـــون " للإشارة إلى أن نزوله بهذه الطريقة ، يترتب عليه حصـــول تعقـــل أشياء لا حصر لها .

ثم بين سبحانه أن هذا القرآن مشتمل على أحسن القصص فقـــال : ﴿ **نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هـــذا القـــرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين** ﴾

سبب نزول هذه الآية :

ورد عن ابن عباس ﷺ قال : قالوا : يارسول الله لو قصصت علينا ؟ فنزلت [1] .

والقصص : اتباع الخبر بعضه بعضا وأصله فـــى اللغـــة مـــن المتابعة . يقال : قصصت الشئ إذا تتبعت أثره شيئا بعد شئ ، ومنـــه

---

(١) تفسير ابن كثير ٢ / ٤٤٨ .

قوله تعالى : ﴿ **وقالت لأخته قصيه** ﴾ [1] أى اتبعى أثـره [2] . وقـال تعالى : ﴿ **فارتدا على آثارهما قصصا** ﴾ [3] أى : اتباعا .

قال الفخر الرازى : " وإنما سميت الحكاية قصصا لأن الذى يقـص الحديث يذكر تلك القصة شيئا فشيئا كما يقال : تلا القرآن إذا قرأه لأنـه يتلوا أى يتبع ما حفظ منه آية بعد آية " [4].

﴿ **أحسن القصص** ﴾ أى : أحسـن الإقتصـاص فنصبـه علـى المصدرية إما لإضافته إلى المصدر . أو لكونه فى الأصل صفة مصدر أى : قصصا أحسن القصص . " وفيه مع بيان الواقع إيهام لمـا فـى اقتصاص أهل الكتاب من القبح والخلل " [5] . والمفعول محـذوف أى مضمون هذا القرآن ، والمراد به هذه السورة .

قال الألوسى [6] : " ووجه احسنيتها اشتمالها على حاسد ومحسود ، ومالك ومملوك ، وشاهد ومشهود ، وعاشق ومعشوق ، وحبس وإطـلاق ، وخصب وجدب ، وذنب وعفو ، وفراق ووصال ، وسقم وصحة ، وحل وارتحال ، وذل وعز " .

---

(١) سورة القصص من الآية ١١ .

(٢) لسان العرب ٧ / ٧٤ .

(٣) سورة الكهف من الآية ٦٤ .

(٤) تفسير الفخر الرازى ١٨ / ٨٥ .

(٥) تفسير أبى السعود ٤ / ٢٥١ .

(٦) روح المعانى ١٢ / ٢٧٦ .

وقال **الفخر الرازى** [1]. " لما فيه من العبر والنكت والحكم والعجائب التى ليست فى غيرها فإن إحدى الفوائد التى فى هذه القصة :

أنه لا دافع لقضاء الله تعالى ولا مانع من قدرة الله تعالى وأنه تعالى إذا قضى للإنسان بخير ومكرمة فلو أن أهل العالم أجتمعوا عليه لم يقدروا على دفعه .

الفائدة الثانية : دلالتها على أن الحسد سبب للخذلان والنقصان .

الفائدة الثالثة : أن الصبر مفتاح الفرج كما فى حق يعقوب ـ عليه السلام ـ لما صبر فاز بمقصوده ، وكذلك فى حق يوسف عليه السلام .

قال الجمل [2]: " والمعنى نحن نبين لك أخبار الأمم السالفة أحسن البيان .

وقيل : المراد خصوص قصة يوسف وإنما كانت أحسن القصص لما فيها من الحكم والنكت وسير الملوك والمماليك والعلماء ومكر النساء والصبر على الأذى والتجاوز عنه أحسن التجاوز وغير ذلك من الفوائد الشريفة .

قال خالد بن معدان سورة يوسف وسورة مريم تتفكه بهما أهل الجنة فى الجنة . وقال عطاء لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استرح إليها " أ . هـ

---

(١) تفسير الفخر الرازى ١٨ / ٨٥ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ٤٣٣/٢ .

وعن سر تكرار قصص الأنبياء فى القرآن وعدم تكرار قصة يوسف :

قال الألوسى [1] : " **وقال الأستاذ أبو اسحاق** : إنما كرر الله قصص الأنبياء وساق هذه القصة مساقا واحداً إشارة إلى عجز العرب ، كأن النبى ﷺ قال لهم : إن كان من تلقاء نفسى فافعلوا فى قصة يوسف مافعلت فى سائر القصص وهو وجه حسن ... "

والباء فى قوله ﴿ **بما أوحينا إليك هذا القرآن** ﴾ للسببية متعلقة (بنقص) ، و (ما) مصدرية أى : بسبب ايحائنا أى : نقص عليك ونحدثك أحسن ما يُقَصُ ويُتحدث عنه موضوعا وفائدة ، لما يتضمنه من العبر والحكم ، بإيحائنا إليك هذه السورة من القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذى هو فى الذروة العليا فى بلاغته وتأثيره فى النفوس .

وجملة ﴿ **وإن كنت من قبله لمن الغافلين** ﴾ حال من كاف الخطاب فى (إليك) و " إن " مخففة من الثقيلة وإسمها ضمير الشأن أى " وإنه " والجملة خبر ، والمعنى : وإن الشأن كنت . وقوله ﴿ **لمن الغافلين** ﴾ أى عن هذه القصة ــ قصة يوسف ــ فلم تخطر ببالك ولم تقرع سمعك قط . وهو تعليل لكونه موحىً . والتعبير عن عدم العلم بالغفلة ، لإجلال شأن النبى ﷺ وإن غفل عنه بعض الغافلين [2] .

---

(١) تفسير الألوسى ١٢ / ١٧٦ .

(٢) تفسير أبى السعود ٤ / ٢٥١ .

وقيل أنه كان من الغافلين عن الدين والشريعة قبل ذلك كما قال تعالى ﴿ **ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان** ﴾ [١].

والمعنى : نحن نقص عليك أحسن القصص بسبب ما أوحينا إليك من هذا القرآن . والحال أنك كنت قبل إيحائنا إليك بهذا القرآن من الغافلين عن تفاصيل هذا القصص ، وعن دقائق أخباره وأحداثه ، شأنك فى ذلك شأن قومك الأميين .

---

(١) سورة الشورى الآية ٥٢ .

يوسف فى دور الطفولة مع أبيه وقد رأى رؤيا ونُصح أبيه له

قال تعالى ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَاأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ(٤)قَالَ يَابُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ(٥)وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٦) ﴾

إذ : ظرف متعلق بمحذوف تقديره : **أذكر** .

ويوسف : علم أعجمى لا عربى مشتق من الأسف وسمى به لأسف أبيه عليه .أو أسفه على أبيه . أو أسف من يراه على مفارقته لمزيد حسنه [١] ، وأبوه : هو يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليهم السلام .

روى عن ابن عمر ﷺ أن النبى ﷺ قال : " الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليهم السلام " [٢] .

---

(١) روح المعانى للألوسى ١٢ / ١٧٧ .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب أحاديث الأنبياء باب أم كنتم شهداء إذا حضر يعقوب الموت ٧/٢٢٨ من الفتح .

أيضا روى عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ أى الناس أكرم ؟ قال : " أكرمهم عند الله أتقاهم " قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : " فأكرم الناس يوسف نبى الله بن نبى الله بن نبى الله بن خليل الله " قالوا ليس عن هذا نسألك ، قال : " فعن معاون العرب تسألوننى ؟ قالوا : نعم قال : " فخياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فَقِهُوا " [١] .

وعاش يوسف ـ عليه السلام ـ مائة وعشرين سنة وبينه وبين موسى أربعمائة سنة [٢] .

قوله ﴿ إنى رأيت ﴾ نصب مفعولين الأول : أحد عشر ، والثانى : ساجدين . فقد رأى يوسف عليه السلام أحد عشر كوكبا نزلت من السماء ومعها الشمس والقمر فسجدوا له .

قال الجمل [٣] : والمراد بالسجود تواضعهم له ودخولهم تحت أمره . وقيل : المراد حقيقة السجود لأنه كان التحية فيما بينهم السجود .

و ﴿ رأيت ﴾ أى : فى المنام . من الرؤيا لا من الرؤية لقوله ﴿ لا تقصص رؤياك ﴾ فإن مصدر رأى المنامية الرؤيا ، ومصدر البصرية الرؤية .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب أحاديث الأنبياء . ٢٢٥/٧ من الفتح .

(٢) انظر التحبير فى علم التفسير . للسيوطى ص ٣٨١ .

(٣) حاشية الجمل على الجلالين ٢ / ٤٣٤ .

قال أبو السعود [1] : " ولأن الظاهر أن وقوع مثل هـــذه الأمـــور البديعة فى عالم الشهادة لا يختص برؤية راء دون راء ، فيكون طامـــة كبرى لا يخفى على أحد من الناس " .

وقال النووى [2] : " قال الإمام المازرى مذهب أهل السنة فى حقيقـــة الرؤيا أن الله تعالى يخلق فى قلب النائم اعتقادات كما يخلقها فى قلب اليقظان وهو سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء لا يمنعه نوم ولا يقظة فـــإذا خلـــق هـــذه الإعتقادات فكأنه جعلها علما على أمور أخر يخلقها فى ثانى الحال أو كان قد خلقها فإذا خلق فى قلب النائم الطيران وليس بطائر فأكثر ما فيه أنه اعتقـــد أمرا على خلاف ما هو فيكون ذلك الإعتقاد علما على غيره . كمـــا يكـــون خلق الله سبحانه وتعالى الغيم علما على المطر . والجميع خلق الله تعـــالى ، ولكن يخلق الرؤيا والإعتقادات التى جعلها علما على ما يُسر بغير حضـــرة الشيطان ويخلق ما هو علم على ما يُضر بحضرة الشـــيطان فينســـب إلـــى الشيطان مجازا لحضوره عندها . وإن كان لا فعل له حقيقة ، وهذا معنـــى قوله ﷺ " الرؤيا من الله والحلم من الشيطان لا على أن الشيطان يفعل شيئا " وقوله ﴿ **أحد عشر كوكبا** ﴾ .

قال ابن كثير [3] : " وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنـــام أن الأحد عشر كوكبا عبارة عن إخوته وكانوا أحد عشر رجـــلا ســـواه ، والشمس والقمر عبارة عن أمه وأبيه .روى هـــذا عـــن ابـــن عبـــاس

---

(١) تفسير أبى السعود ٤ / ٢٥١ .

(٢) شرح النووى على صحيح مسلم ١٥ / ١٧ .

(٣) تفسير ابن كثير ٢ / ٤٥٠ .

والضحاك وقتادة وسفيان الثورى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة . وقيل ثمانين سنة وذلك حين رفع أبويه على العرش وهو سريره وإخوته بين يديه ﴿ **وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا ..** ﴾ أ . هـ

وعن أسماء الكواكب التى رأها يوسف ـ عليه السلام :

روى عن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال : أتى النبى ﷺ رجل من يهود يقال له بستانة اليهودى فقال يامحمد أخبرنى عن الكواكب التى رآها يوسف ساجدة له ما أسماؤها ؟ قال : فسكت رسول الله ﷺ فلم يجبه بشئ ونزل عليه جبريل وأخبره بأسمائها قال : فبعث رسول الله ﷺ إليه فقال : " هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها . قال : نعم . فقال : " جربان ، والطارق ، والذيال ، وذو الكتفين ، وقابس ، ووثاب ، وعمودان ، والفليق ، والمصبح ، والضروح ، وذو الفرع ، والضياء والنور . فقال اليهودى : والله إنها لأسماؤها [(١)] .

وعن المراد بالشمس والقمر ، وسر ذكرهما بعد الكواكب :

قال أبوالسعود : [(٢)] : " وقيل الشمس والقمر أبواه . وقيل : أبوه وخالته ـ لأن أمه كانت ماتت ـ وإنما أخر الشمس والقمر عن الكواكب لإظهار مزيتهما وشرفهما على سائر الطوالع بعطفهما عليها كما عطف جبريل وميخائيل على الملائكة عليهم السلام . وقد جوز أن

---

(١) تفسير ابن جرير الطبرى ١٢ / ٩٠ـ٩١ .

(٢) تفسير أبى السعود ٤ / ٢٥٢ .

تكون الواو بمعنى مع أى : رأيت الكواكب مع الشـــمس والقمـــر . ولا يبعد أن يكون ذلك إشارة إلى تأخر ملاقاته عليه السلام لـــهما عـــن ملاقاته لإخوته " أ . هـ

سر تكرار ﴿ **رأيتهم** ﴾ :

قال الزمخشرى [1] : " (فإن قلت) ما معنى تكرار رأيـــت ؟ (قلت) : ليس بتكرار ، وإنما هو كلام مستأنف على تقدير ســؤال وقع جوابا له ، كأن يعقوب ــ عليه السلام ــ قال له عند قولـــه : إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر ، كيف رأيتـــها ســـائلا عن حال رؤيتها ؟ فقال : رأيتهم لى ساجدين " أ . هـ

وإن قيل : إن لفظ ﴿ **ساجدين** ﴾ لا يليق إلا بالعقلاء ، والكوكـــب جمادات فكيف جاز ذلك ؟

أجاب الطبرى [2] قائلا : " الكواكب والشمس والقمر إنما يخبر عنها بفاعلة وفاعلات ، لا بالواو والنون ، إنما هى علاقة جمع أسماء ذكـــور بنى أدم والجن والملائكة ، وإنما قيل ذلك .كذلك لأن " السجود " مـــن أفعال من يُجمع أسماء ذكورهم بالياء والنون أو الواو والنون . فـــأخرج جمع أسمائها مخرج جمع أسماء من يفعل ذلك كما قيـــل ﴿ **يـــا أيـــها النمل أدخلوا مساكنكم** ﴾ [3] أ . هـ

---

(١) الكشاف ٢ / ٢٤٢ .

(٢) تفسير الطبرى ١٢ / ٩١ .

(٣) سورة النمل من الآية ١٨ .

وقال الفخر الرازى [1] : " إن جماعة من الفلاسفة الذين يزعمون أن الكواكب أحياء ناطقة احتجوا بهذه الآية ، وكذلك احتجوا بقول الله تعالى ﴿ وكل فى فلك يسبحون ﴾ [2] والجمع بالواو والنون مختص بالعقلاء .

وهذا سائغ ، وهو أن يعطى الشئ حكم الشئ للاشتراك فى وصف ما ، وإن كان ذلك الوصف أصله أن يخص أحدهما . والسجود : سجود كرامة وتواضع ، كما سجدت الملائكة لآدم عليه السلام .

وتقديم الجار والمجرور ﴿ لىَ ساجدين ﴾ ، لإظهار العناية والإهتمام بما هو الأهم ، مع ما فى ضمنه من رعاية الفاصلة .

متى رأى يوسف عليه السلام هذه الرؤيا ؟

لاشك أنه ــ عليه السلام ــ رآها حال الصغر ، فأما ذلك الزمان بعينه فلا يعلم إلا بالأخبار .

قال وهب : " رأى يوسف ــ عليه السلام ــ وهو ابن سبع سنيين أن إحدى عشرة عصا طوالا كانت مركوزة فى الأرض كهيئة الدائرة . وإذا عصا صغيرة وثبت عليها حتى ابتلعتها فذكر ذلك لأبيه فقال : إياك أن تذكر هذا لإخوتك ثم رأى وهو ابن ثنتى عشرة سنة الشمس والقمر والكواكب تسجد له فقصها على أبيه ، فقال : " لا تذكرها لهم فيكيدوا لك كيدا " [3] .

---

(1) تفسير الفخر الرازى ١٨ / ٨٦ .

(2) سورة يس من الآية ٤٠ .

(3) راجع هذه الرواية فى تفسير أبى السعود ٤ / ٢٥٢ ، وتفسير الفخر الرازى ١٨ / ٨٧ ، وروح المعانى للألوسى ١٢ / ١٨٠ ، وحاشية الجمل ٢ / ٤٣٤ .

وقيل : كان بين رؤيا يوسف ومسير إخوته إليه أربعون سنة ، **وقيل** : ثمانون سنة .

قال علماء التعبير : إن الرؤيا الرديئة يظهر أثرها عن قريب ، والرؤيا الجيدة إنما يظهر تعبيرها بعد حين . والسبب في ذلك أن رحمة الله تقتضى أن لا يحصل الإعلام بوصول الشر إلا عند قرب وصوله ، حتى يكون الحزن والغم أقل ، وأما الإعلام بالخير فإنه يحصل متقدما على ظهوره بزمان طويل حتى تكون البهجةِ الحاصلة بسبب توقع حصول ذلك الخير أكثر وأتم .

ثم حكى ـ سبحانه ـ بعد ذلك ما قاله يعقوب لابنه يوسف بعد أن قص عليه رؤياه فقال : ﴿ **يابنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين** ﴾

وقوله ﴿ **يابنى** ﴾ تصغير ابن ، وصغره للتحبيب له ، والشفقة عليه ، والتلطيف معه ، ويحتمل أن يكون لذلك ولصغر سنه ، والجملة استئناف مبنى على سؤال ، كأنه قيل : فماذا قال الأب بعد سماع هذه الرؤيا العجيبة من ابنه ؟ فقيل : قال : ﴿ **يابنى ..** ﴾ .

وقوله ﴿ **رؤياك** ﴾ من الرؤيا التى هى مصدر رأى العلمية الدالة على ما وقع للإنسان فى نومه ، أما " رأى " البصرية فيقال فى مصدرها الرؤية .

قال الزمخشرى [1] : " أسماء إخوة يوسف يهوذا ، وروبيل ، وشمعون ، ولاوى ، وربالون ، ويشجر ، ودينة ، ودان ، ونفتالى ،

---

(١) الكشاف ٢ / ٢٤٣ .

وجاد ، وآشر ، ثم قال : السبعة الأولون من " ليا " بنت خالة يعقوب ، والأربعة الآخرون من سريتين : زلفة وبلهة ، فلما توفيت " ليا " تزوج يعقوب أختها " راحيل " فولدت له بنيامين ويوسف .

وقوله تعالى : ﴿ **فيكيدوا لك ..** ﴾ أى فيحتالوا لإهلاكك حيلة عظيمة لا تقدر على مقاومتها ومدافعتها .

والمعنى : قال يعقوب لابنه يوسف ـ عليهما السلام ـ بعطف وحنان ، بعد أن سمع منه ما رآه فى منامه : يا بنى لا تخبر إخوتك بما رأيته فى منامك ، لأنك إن أخبرتهم بذلك احتالوا احتيالا خفيا لإهلاكك إهلاكا لا قدرة لك ولا حيلة لمدافعتها ومقاومتها .

وإنما قال يعقوب ذلك ، لأنه فهم من هذه الرؤيا أنه سيكون ليوسف شأن عظيم وسيسود قومه حتى أباه وأمه وإخوته ، وخاف أن يسمع إخوته بها فيحسدوه ويكيدوا له كيدا فنهاه عن أن يقص رؤياه على إخوته .

قال الفخر الرازى [1] : " قال أهل التحقيق : وهذا يدل على أنه قد كان لهم علم بتعبير الرؤيا وإلا لم يعلموا من هذه الرؤيا ما يوجب حقدا وغضبا " .

والتنوين فى قوله " كيداً " للتعظيم والتهويل ، زيادة فى تحذيره من قص الرؤيا عليهم .

وجملة ﴿ **إن الشيطان للإنسان عدو مبين** ﴾ واقعة موقع التعليل للنهى عن قص الرؤيا على إخوته . وفيها إشارة على أنهم لو أقدموا

---

(١) تفسير الفخر الرازى ١٨ / ٨٩ .

على الكيد لكان ذلك مضافا إلى الشيطان . ونظيره قول موسى ـ عليه السلام ـ ﴿ هذا من عمل الشيطان ﴾ [1] . وقال يعقوب ذلك ، حتى لا يثير فى نفس يوسف كراهية لإخوته ، وهذا شأن الآباء مع أبنائهم يجمعون ولا يفرقون .

والرؤيا حالة شريفة ، ومنزلة رفيعة قال ﷺ : " رؤيا المسلم جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة وهى على رجل طائر ما لم يحدّث بها فإذا حدّث بها وقعت " [2] .

وأما وجه تحديدها بذلك . لما روى عن السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها قالت : " أول ما بدء به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم فكان لايرى رؤيا إلا جائت مثل فلق الصبح ... " [3]

قال بعض أهل العلم [4] : " إن الله أوحى إلى نبيه فى المنام ستة أشهر . ثم أوحى إليه بعد ذلك فى اليقظة بقية مدة حياته . ونسبة الوحى فى المنام إلى الوحى فى اليقظة بقية مدة حياته جزء من ستة وأربعين جزءا ، لأنه عاش بعد النبوة ثلاثا وعشرين سنة على الصحيح "

---

(١) سورة القصص من الآية ١٥ .

(٢) أخرجه الترمذى . كتاب الرؤيا : باب ما جاء فى تعبير الرؤيا ٤ / ٥٣٦ قال أبوعيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه . كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ ١ / ٢٤ ـ ٣٠ من الفتح .

(٤) انظر فتح البارى ١٦ / ١٧ .

ولم يبق بعد النبوة والرسالة إلا رؤيا المسلم عن انس بن مـــالك قال : قال رسول الله ﷺ : " إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رســول بعدى ولا نبى ، قال : فشق ذلـــك علـــى النـــاس . فقـــال : لكـــن المبشرات . قالوا : يارسول الله وما المبشرات ؟ قال : رؤيا المسلم وهى جزء من أجزاء النبوة " [١] .

والرؤيا الصالحة هى بشرى الحياة الدنيا للأولياء قال تعـــالى: **﴿ ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون الذيـــن آمنـــوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴾** [٢] .

عن عبادة بن الصامت قال : سألت رسول الله ﷺ عن قولـــه " لهم البشرى فى الحياة الدنيا " ؟ قال : هى الرؤيا الصالحة يراهـــا المؤمن أو تُرى له ." [٣] .

ومن رأى رؤيا حسنة فليحدث بها مـــن يحـــب ، ومـــن رأى رؤياسيئة فليتعوذ بالله من شرها . فقد روى عن أبى سلمة قال : لقد كنت أرى الرؤيا فتمرضنى حتى سمعت أبا قتادة يقول : وأنا كنـــت

---

(١) أخرجه الترمذى . كتاب الرؤيا . باب : ذهبت النبوة وبقيت المبشـــرات ٤ / ٥٣٣ . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه .

(٢) سورة يونس الآيات ٦٢ ـــ ٦٤ .

(٣) أخرجه الترمذى . كتاب:الرؤيا . باب : لهم البشرى فى الحياة الدنيـــا ٤ / ٥٣٤ ـــ ٥٣٥ . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

أرى الرؤيا فتمرضنى حتى سمعت النبـــى ﷺ يقــول : " الرؤيــا الحسنة من الله ، فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث بـــه إلا مـــن يحب ، وإذا رأى ما يكره فليتعوذ بالله مـــن شـــرها ، ومـــن شـــر الشيطان وليتفل ثلاثا ولا يحدث بها أحدا فإنها لن تضره " (١)

وفى رواية للترمذى : " ولا يحدث بها إلا لبيبا او حبيبا " (٢) .وفـــى أخرى " ولا يقص الرؤيا إلا على عالم أو ناصح " (٣) .

قال القاضى أبو بكر بن العربى (٤) : أما العالم فإنه يؤولها لـــه على الخبر مهما أمكنه ، وأما الناصح فإنه يرشده إلى مـــا ينفعـــه ويعينه عليه ، وأما اللبيب وهو العارف بتأويلها فإنه يعلمه بما يعول عليه فى ذلك أو يسكت ، وأما الحبيب فإنه إن عرف خيرا قالـــه ، وإن جهل أو شك سكت "

وحاصل ما ذُكر من أدب الرؤيا المكروهة أشياء :

١ ــ التعوذ من شرها .

٢ ــ وشر الشيطان .

٣ ــ أن يتفل حين يهب من نومه عن يساره ثلاثا .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب : التعبير . باب : إذا رأى ما يكره فـــلا يخبر بها ولا يذكرها ١٦ / ٩٠ من الفتح .

(٢) أخرجه الترمذى . كتاب الرؤيا باب : ما جاء فى تعبير الرؤيا ٤ / ٥٣٦ .

(٣) انظر فتح البارى ١٦ / ٢٣ .

(٤) المرجع السابق نفس الجزء والصفحة .

٤ ــ لا يذكرها لأحد . قال القاضى عياض [١] : " ويحتمل أن يكون إخفاءها لمخافة تعجيل اشتغال سر الرائى بمكروه تفسيرها . لأنها قد تبطئ . فإذا لم يخبر بها زال تعجيل روعها وتخويفها .
ويبقى إذا لم يعبرها أحد له بين الطمع فى أن لها تفسيرا حسنا . أو الرجاء فى أنها من الأضغاث . فيكون ذلك أسكن للنفس " .

٥ ــ أن يتحول عن جنبه الذى كان عليه لما رواه مسلم [٢] عن جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال : " إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثا وليستعذ بالله من الشيطان ثلاثا وليتحول عن جنبه الذى كان عليه "

٦ ــ أن يقوم فيصلى لما ورد فى صحيح البخارى [٣] عن رسول الله ﷺ قال : " ... فمن رأى شيئا يكرهه فلا يقصه على أحد وليقم فليصل .... " .

٧ ــ زاد ابن حجر (سابعة) وهى قراءة آية الكرسى . ولعل ذلك مأخوذ من حديث أبى هريرة " ولا يقربنك شيطان " وينبغى أن يقرأها فى صلاته المذكورة [٤] .

---

(١) المرجع السابق ١٦ / ٢٦ .

(٢) صحيح مسلم . كتاب : الرؤيا ١٥ / ٢٠ شرح النووى .

(٣) صحيح البخارى . كتاب : التعبير . باب القيد فى المنام ١٦ / ٦٢ ــ ٦٥ من الفتح .

(٤) فتح البارى ١٦ / ٢٤ .

قال القرطبى [1] : " قال علماؤنا : وهذا كله ليس بمتعارض ؛ وإنما هذا الأمر بالتحول ، والصلاة زيادة ، فعلى الرأى أن يفعل الجميع ، والقيام إلى الصلاة يشمل الجميع ؛ لأنه إذا صلى تضمن فعله للصلاة جميع تلك الأمور ؛ لأنه إذا قام إلى الصلاة تحول عن جنبه ، وإذا تمضمض تفل وبصق ، وإذا قام إلى الصلاة تعوذ ودعا وتضرع إلى الله تعالى فى أن يكفيه شرها فى حال هى أقرب الأحوال إلى الإجابة ، وذلك السحر من الليل "

وقال الدكتور الحسينى أبو فرحة [2] : " قد سمعت من صالح من علماء المسلمين هو فضيلة الشيخ بسيونى البدوى الخليلى ـ عليه رحمة الله ـ وكان من علماء معهد طنطا الأزهرى .

سمعت منه : أن الرؤيا المكروهة من قبيل الوعيد . والوعيد يجوز تخلفه شرعا لأن تخلفه من الرحمة . كما أنها يجوز أن تكون معلقة على شئ . ولا يقع ما علقت عليه كما انها قد تكون للإنذار لتوجيه العبد إلى ما يصلحه . وقد ترفع بدعاء أو صدقة .

وأما الرؤيا المبشرة فلا تختلف لأنها من قبيل الوعد . ووعد الله لا يختلف لأن خُلف الوعد مما لا يليق بكرم الله ، قال تعالى : ﴿ **وعد**

---

(١) تفسير القرطبى ٩ / ٨٥ ـ ٨٦ .

(٢) الرؤيا فى الكتاب والسنة ص ١٤ .

الله لا يخلف الله وعده ﴾ [1] **. وقال تعالى : ﴿ وعد الله حقـــا ومـــن أصدق من الله قيلا ﴾** [2] **.**

فقوله **﴿ لا تقصص رؤياك على إخوتك ... ﴾** أصـــل فـــى ألا تقص الرؤيا على غير شقيق ولا ناصح .

ويستفاد من هذه الآية ما يأتى :

١ ــ **هذه الآية دعوة لكتمان السر حتى عن أقرب الأقارب إذا وجدنـــا** فيهم من لا يقدر على حمل أمانة السر .

٢ ــ **يباح للمسلم أن يحذر أخاه المسلم ممن يخافه عليه ، ولا يكـــون** داخلا فى معنى الغيبة ؛ لأن يعقوب ــ عليه السلام ــ قد حـــــذر يوسف أن يقص رؤياه على إخوته فيكيدوا له كيدا .

٣ ــ **يجوز للإنسان فى بعض الأوقات أن يخفى بعض النعم التى أنعـــم** الله بها عليه عند من يخشى منه الحسد والكيـــد . وفـــى الأثـــر " استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان " .

٤ ــ **وهى دليل على معرفة يعقوب** ــ عليه السلام ــ بتأويل الرؤيـــا ؛ فإنه علم من تأويلها أن يوسف سيظهر على إخوته ، ولم يبال بذلـــك من نفسه ، فإن الأب يود أن يكون ولده خيرا منه ، والأخ لا يـــود ذلك لأخيه .

---

(١) سورة الروم الآية ٦ .

(٢) سورة النساء من الآية ١٢٢ .

٥ ــ **ويدل أيضا على أن يعقوب ــ عليه السلام ــ كان أحس من بنيه** حسد يوسف وبغضه ؛ فنهاه عن قصص الرؤيا عليهم خـــوف أن تغل بذلك صدورهم ، فيعملوا الحيلة فى هلاكه .

٦ ــ **كذلك أخذ جمهور العلماء من هذه الآية أن إخوة يوسف لم يكونوا** أنبياء

قال الألوسى[1] : " والظاهر أن القوم ــ أى إخوة يوسف ــ كـانوا بحيث يمكن أن يكون للشيطان عليهم سبيل ، ويؤيد هذا انهم لم يكونــوا أنبياء ، والمسألة خلافية . فالذى عليه الأكثرون سلفا وخلفاً أنـــهم لـم يكونوا أنبياء أصلا ، **أما السلف** فلم ينقل عن أحـــد مـــن الصحابـــة أو التابعين أنه قال بنبوتهم ."

وأما الخلف فكثير منهم نفى عنهم أن يكونوا أنبياء ، ومن قـــال بذلــك القرطبى فقد قال ردا على من قال بنبوتهم : " وهذا يـــرده القطـــع بعصمـــة الأنبياء عن الحسد الدنيوى ، وعن عقوق الأباء ، وتعريض مؤمن للـــهلاك ، والتآمر على قتله ، ولا إلتفات لقول من قال إنهم كانوا أنبياء " [2]

ثم حكى ــ سبحانه ــ ما توقعه يعقوب لابنه يوسف من خير وبركة فقال : ﴿ **وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَـــهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْـحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ .

---

(١) روح المعانى ١٢ / ١٨٤ بتصرف .

(٢) تفسير القرطبى ٩ / ٨٥ .

الكاف فى قوله ﴿ وكذلك ﴾ حرف تشبيه بمعنى مثل ، وهى داخلة على كلام محذوف . أى : ومثل ذلك الإجتباء العظيم الذى شاهدت آثاره فى عالم المثال من سجود تلك الأجرام العلوية النيرة لك .

وقوله ﴿ يجتبيك ربك ﴾ من الإجتباء بمعنى الإصطفاء والإختيار . واختلف العلماء فى المراد بهذ الإجتباء ، فقال الحسن : يجتبيك ربك بالنبوة . وقال آخرون : المراد منه إعلاء الدرجة وتعظيم المرتبة . فأما تعيين النبوة فلا دلالة فى اللفظ عليه [1] واجتباء الله العبد تخصيصه إياه بفيض إلهى تحصل منه أنواع المكرمات بلا سعى من العبد وذلك مختص بالأنبياء وببعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء والصالحين [2] ولا يخفى ما فى ذكر الرب مضافا إلى ضمير المخاطب من اللطف .

قوله ﴿ ويعلمك تأويل الأحاديث ﴾ كلام مستأنف غير داخل تحت التشبيه ، اراد به عليه السلام تأكيد مقالته وتحقيقها وتوطين نفس يوسف ــ عليه السلام ــ بما اخبر به على طريقة التعبير والتأويل . كأنه قال وهو يعلمك [3] .

و ﴿ تأويل الأحاديث ﴾ قال مجاهد : يعنى تعبير الرؤيا [4] .

---

(١) انظر تفسير الفخر الرازى ١٨ / ٨٩ .

(٢) الفتوحات الألهية ٢ / ٤٣٥ .

(٣) تفسير أبى السعود ٤ / ٢٥٣ .

(٤) تفسير ابن كثير ٢ / ٤٥١ .

وقال الزمخشرى : تأويلها : عبارتها وتفسيرها ، وكان يوسف ـ عليه السلام ـ أعير الناس للرؤيا وأصحهم عبارة لها . وقال : ويجوز أن يراد بتأويل الأحاديث : معانى كتب الله وسنن الأنبياء وما غمض واشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها يفسرها لهم ويشرحها ويدلهم على مودعات حكمها [1] .

والأحاديث : جمع تكسير مفردة حديث ، وسميت الرؤى أحاديث باعتبار حكايتها والتحدث بها .

قوله : ﴿ **ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب** ﴾ .

قال الفخر الرازى : " واعلم أن من فسر الإجتباء بالنبوة لا يمكنه أن يفسر إتمام النعمة هنا بالنبوة أيضا وإلا لزم التكرار ، بل يفسر إتمام النعمة هنا بسعادات الدنيا وسعادات الآخرة .

أما سعادات الدنيا : فالإكثار من الأولاد والخدم والأتباع والتوسع فى المال والجاه والحشم وإجلاله فى قلوب الخلق وحسن الثناء والحمد .

أما سعادات الآخرة : فالعلوم الكثيرة والخلاق الفاضلة والإستغراق فى معرفة الله تعالى .

وأما من فسر الإجتباء بنيل الدرجات العالية ، فههنا يفسر إتمام النعمة بانبوة . ويتأكد هذا بأمور : ـ

الأول : أن إتمام النعمة عبارة عما به تصير النعمة تامة كاملة خالية عن جهات النقصان . وما ذاك فى حق البشر إلا بالنبوة ، فإن جميع مناصب الخلق دون منصب الرسالة ناقص بالنسبة إلى

---

(١) تفسير الكشاف ٢ / ٢٤٢ .

كمال النبوة ، فالكمال المطلق والتمام المطلق فى حق البشــر ليس إلا بالنبوة .

والثانى : قوله : ﴿ **كما اتمها على أبويك من قبل ابراهيم واسـحاق** ﴾ ومعلوم ان النعمة التامة التى بها حصل امتياز ابراهيم وإسـحاق عن سائر البشر ليس إلا النبوة ، فوجب ان يكون المراد بإتمـام النعمة هو النبوة .

وقد اختار الفخر الرازى هذا الرأى ؛ لأن النعمة التامة فـى حـق البشر ليست إلا النبوة ، وكل ما سواها فهى ناقصة بالنسبة إليـها " [1] . ولما فسر إتمام النعمة بالنبوة لزم حصولها لأولاد يعقوب كلهم ، وأنهم كانوا أنبياء وذلك لأنه قال : ﴿ **ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب** ﴾ وأيضا أن يوسف ــ عليه السلام ــ قال : ﴿ **إنى رأيت أحد عشـر كوكبـا** ﴾ وكان تاويله إخوته ، وكما يهتدى الناس بالكواكب ، فسيكون لهم فضـل وكمال ويستضئ بعلمهم ودينهم اهل الأرض . لذلك يقتضى أن يكـون جملة أولاد يعقوب أنبياء ورسلا .

قال الفخر الرازى : " فإن قيل : كيف يكونوا أنبياء وقد أقدموا على ما أقدموا عليه فى حق يوسف ــ عليه السلام ــ ؟

قال : قلنا : ذاك وقع قبل النبوة ، وعندنا العصمة إنما تعتـبر فـى وقت النبوة لا قبلها " [2] .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ١٨ / ٩٠ ــ ٩١ بتصرف .

(٢) تفسير الفخر الرازى ١٨ / ٩١ .

وهذا الرأى مخالف لما سبق أن أوردته عن الألوسى والقرطبى فى ص ٧٣ ولكنى أميل إلى رأى الفخر الرازى ؛ للأسباب والأمور التى ذكرها .

قوله : ﴿ **كما أتمها على أبويك من قبل** ﴾ أى : من قبل هذه الرؤيا أو من قبل هذا الوقت .

وقوله : ﴿ **ابراهيم وإسحاق** ﴾ بيان لأبويه .

أى : يتم نعمته عليك إتماما كائنا كإتمام نعمته على أبويك من قبل ، وهما إبراهيم وإسحاق بأن وهبهما ـ سبحانه ـ النبوة والرسالة .

وعبر عنهما بأنهما أبوان ليوسف ، مع أن ابراهيم جد أبيه ، وإسحاق جده ، للإشعار بكمال إرتباطه بالأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام ، ولأن هذا الإستعمال مألوف فى لغة العرب ، وما زال حتى الأن يستعمل فى ريف مصر . وقد أثر عن النبى ﷺ أنه قال : أنا النبى لا كذب ـ أنا ابن عبد المطلب .

وذيلت الآية بجملة : ﴿ **إن ربك عليم حكيم** ﴾ وهى جملة مستأنفة ، وبينها وبين ما قبلها شبه كمال إتصال ، فهى تعد تأكيدا لما قبلها ، ذلك أن يعقوب ـ عليه السلام ـ لما وعده بهذه الدرجات الثلاثة وهى الإجتباء وتأويل الأحاديث وإتمام النعمة بالنبوة ختم الكلام بقوله ﴿ **إن ربك عليم حكيم** ﴾ فقوله ﴿ **عليم** ﴾ إشارة إلى قوله ﴿ **الله أعلم حيث يجعل رسالته** ﴾ وقوله ﴿ **حكيم** ﴾ إشارة إلى أن الله تعالى مقدس عن السفه والعبث لا يضع النبوة إلا فى نفس قدسية مشرقة علوية .

أى : إن ربك عليم بمن يصطفيه لحمل رسالته ، وبمن هو أهل لنعمه وكرامته ، حكيم فى صنعه وتصرفاته .

يوسف وإخوته وما كان منهم

قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ(٧)إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(٨)اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ(٩)قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ(١٠)قَالُوا يَاأَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ(١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ(١٢)قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ(١٣)قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ(١٤)فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ(١٥)وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ(١٦) قَالُوا يَاأَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ(١٧)وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ(١٨) ﴾

بينت هذه الآيات ما يلى :

١ــ حالة إخوة يوسف وهم يتآمرون عليه .

٢ــ حالتهم وهم يجادلون أباهم فى شأنه .

٣ــ حالتهم وهم ينفذون مؤامرتهم المنكرة .

٤ ــ حالتهم بعد تنفيذ المؤامرة وعودتهم إلى أبيهم ليلا يتباكون .

وقوله ــ سبحانه ــ ﴿ **لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين** ﴾

الآيات : جمع آية ، والمراد بها هنا العبر والعظات والدلائل الدالة على قدرة الله تعالى .

للسائلين : أى : لمن سأل عن قصتهم .

والمعنى : لقد كان فيما حدث بين يوسف وإخوته ، آيات عظيمة لكل من سأل عنها للإنتفاع بما فيها من المواعظ والحكم ، فمنها رؤيا يوسف وما حقق الله فيها ، ومنها حسد إخوته له وما آل إليه أمرهم ، ومنها صبر يوسف على ما فعلوا به وما آل إليه أمره من الملك ، ومنها حزن يعقوب وصبره على فقد ولده وما آل إليه أمره من بلوغ المراد وغير ذلك من الآيات .

وقيل : إن فى قصص يوسف مع إخوته آيات على نبوة محمد ﷺ للذين سألوه من اليهود عنها فأخبرهم بالصحة من غير سماع من أحد ولا قراءة كتاب .

وهذه الآية شروع فى حكاية قصة يوسف مع إخوته ، بعد أن بين ــ سبحانه ــ صفة القرآن الكريم ، وبعد أن أخبر عما رآه يوسف فى منامه ، وما قاله أبوه له .

وهذا الإفتتاح كفيل بتحريك الإنتباه لما يلقى بعد ذلك

فقال ــ سبحانه ــ ﴿ **إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة ...** ﴾ .

قوله : ﴿ **ليوسف** ﴾ اللام لام الإبتداء ، وفيها تأكيد لمضمون الجملة أى زيادة محبة أبيهم ليوسف وأخيه أمر ثابت لا شبهة فيه .

والمراد بأخيه : أخوة من أبيه وأمه وهو ـ بنيامين ـ وكان أصغر من يوسف ـ عليه السلام ـ أما بقية إخوته فكانوا إخوة له من أبيه فقط .

ولم يذكروه بإسمه ، للإشعار بأن محبة يعقوب له ، من أسبابها كونه شقيقا ليوسف ، ولذا كان حسدهم ليوسف أشد [١] .

وجملة ﴿ **ونحن عصبة** ﴾ فى محل نصب حال .

والعصبة : ما زاد على عشرة . وعن ابن عباس : ما بين عشرة إلى أربعين . وقيل : للثلاثة نفر ، فإذا زادوا إلى تسعة فهم رهط ، فإذا بلغوا العشرة فصاعدا فعصبة ... والمادة تدل على الإحاطة من العصابة ، لإحاطتها بالرأس [٢] .

أى : قال إخوة يوسف وهم يتشاورون فى المكر به ليوسف وأخيه بنيامين أحب إلى أبينا منا ، يفضلهما علينا جميعا ، ونحن له عصبة قوية تقوم له بكل ما يحتاج إليه من أسباب الرزق والحماية والرعاية والكفاية .

وقولهم كما قص القرآن ﴿ **إن أبانا لفى ضلال مبين** ﴾ لم يريدوا ضلال الدين ، إذ لو أرادوه لكانوا كفارا ؛ بل أرادوا لفى ذهاب عن وجه التدبير ، فى إيثار اثنين على عشرة مع استوائهم فى الإنتساب إليه [٣]

---

(١) التفسير الوسيط المجلد ٧ / ٣٢٢ .

(٢) الفتوحات الإلهية ٢ / ٤٣٧ .

(٣) تفسير القرطبى ٩ / ٨٧ .

هل يصح تفضيل بعض الأبناء على بعض ؟

وقد تسائل الفخر الرازى قائلا : " إن من الأمور المعلومة أن تفضيل بعض الأبناء على بعض يورث الحقد والحسد ، ويورث الآفات ... فلِمَ أقدم يعقوب ــ عليه السلام ــ على هذا التفضيل ؟

ثم أجاب : أنه ــ عليه السلام ــ ما فضلهما على سائر الأولاد إلا فى المحبة . والمحبة ليست فى وسع البشر فكان معذورا فيه ولا يلحقه بسبب ذلك لوم " (١).

وأما تخصيصهما بمزيد البر فيحتمل أنه كان لوجوه (٢) :

الأول : أن أمهما ماتت وهما صغار ، وحب الصغير أمر مركوز فى فطرة البشر . فقد قيل لأعرابية : أى بنيك أحب إليك قالت : الصغير حتى يكبر . والغائب حتى يقدم ، والمريض حتى يشفى .

الثانى : لأنه كان يرى فيه من آثار الرشد والنجابة ما لم يجد فى سائر الأولاد . وزاد ذلك الحب بعد الرؤيا لتأكيدها تلك الأمارات عنده .

الثالث : لعله ــ عليه السلام ــ وإن كان صغيرا إلا أنه كان يخدم أباه بأنواع من الخدم أشرف مما كان يصدر عن سائر الأولاد .

فلا لوم على الوالد فى تفضيله بعض ولده على بعض فى المحبة لمثل ذلك .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ١٨ / ٩٣ بتصرف .

(٢) راجع تفسير الفخر الرازى ١٨ / ٩٣ ، وروح المعانى للألوسى ١٢ / ١٩٠ .

ثم أخبر ـ سبحانه ـ عما اقترحوه للقضاء على يوسف فقال تعالى : ﴿ **اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين** ﴾

قوله ﴿ **اقتلوا يوسف** ﴾ لما قوى الحسد فيهم قالوا لابد من تبعيد يوسف عن أبيه وذلك لا يحصل إلا بأحد أمرين : إما القتل ، وإما التغريب إلى أرض يحصل اليأس من إجتماعه بأبيه تفترسه الأسود أو يموت فى تلك الأرض البعيدة [1] .

معنى ﴿ **اطرحوه** ﴾ قال ابن سيدة : طرح بالشئ .. أى رمى به ويقال : اطرحه أى : أبعده [2].

إعراب ﴿ **أرضا** ﴾ : ورد فى نصبه ثلاثة أوجه :

الأول : أن يكون منصوبا على إسقاط حرف الجر . أى فى أرض بعيدة عن الأرض التى هو فيها ، قريب من أرض يعقوب . كقوله ﴿ **لأقعدن لهم صراطك المستقيم** ﴾ وإليه ذهب الحوفى وابن عطية [3] .

الثانى : النصب على الظرفية . قال الزمخشرى : " أى أرضا منكورة مجهولة بعيدة عن العمران ، وهو معنى تنكيرها وإخلائها من الوصف ولإبهامها من هذا الوجه نصبت نصب الظروف المبهمة " [4] .

---

(١) الفتوحات الإلهية ٢ / ٤٣٧ .

(٢) لسان العرب ٢ / ٥٢٨ .

(٣) الفتوحات الإلهية ٢ / ٤٣٧ .

(٤) الكشاف ٢ / ٢٤٤ .

الثالث : أنها مفعول ثان على تضمين اطرحوه معنى أنزلوه [١] وانزلوه يتعدى لأثنين قال تعالى : ﴿ **رب أنزلنى منزلا مباركا** ﴾ [٢].

والمعنى : لقد بالغ أبونا فى تفضيل يوسف وأخيـــه علينـــا ، مـــع أننا أولى بذلك منهما : وما دام هو مصـــرا علـــى ذلـــك ، فـــالحل أن تقتلوا يوسف ، أو أن تلقـــوا بـــه فـــى أرض بعيـــدة مجهولـــة حتـــى يموت فيها غريبـــا .

قال الألوسى [٣] : " وحاصل المعنى : اقتلوه أو غربوه فإن التغريب كالقتل فى حصول المقصود مع السلامة من إثمه ، ولعمـــرى ذكـــروا أمرين مرين فإن الغربة كربة أية كربة ؛ ولله تعالى در من قال :

حسنوا القول وقالوا غربة إنما الغربة للأحرار ذبح

وجملة ﴿ **يخل لكم وجه أبيكم** ﴾ جواب الأمر مجزوم .

المراد ب (الوجه) :

١ـــ هو الجارحة المعروفة ، وفى الكلام كناية عن خلوص المحبة .

قال الزمخشرى [٤]: " أى يقبل عليكم إقبالة واحدة لا يلتفت عنكـــم إلى غيركم ، والمرد سلامة محبته لهم ممن يشاركهم فيـــها وينازعـــهم إياها ، فكان ذكر الوجه لتصوير معنى إقباله عليـــهم ، لأن الرجـــل إذا أقبل على الشئ أقبل بوجهه "

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٢٤٣ .

(٢) سورة المؤمنون الآية ٢٩ .

(٣) روح المعانى ١٢ / ١٩١ .

(٤) الكشاف ٢ / ٢٤٤ .

٢ ـ ويجوز أن يراد بالوجه الذات . كما قال تعالى : ﴿ **ويبقى وجه ربك ..** ﴾ [(١)] . أى يخل لكم أبوكم بتدبير أموركم ، وتنظيم أحوالكم .

وجملة ﴿ **وتكونوا من بعده قوما صالحين** ﴾ معطوفة على جواب الأمر .

والضمير فى " من بعده " عائد على يوسف . أى بعد الفراغ من أمره ، أو من بعد قتله ، أو طرحه . فالضمير إما ليوسف أو لأحد المصدرين المفهومين من الفعلين .

ولكن كيف يكونوا قوما صالحين بعد الذى دبروه ليوسف ؟

أجاب الفخر الرازى [(٢)]قائلا : " فيه وجوه " :

الأول : أنهم علموا أن ذلك الذى عزموا عليه من الكبائر . فقالوا : إذا فعلنا ذلك تبنا إلى الله ونصير من القوم الصالحين .

والثانى : أنه ليس المقصود هنا الصلاح الدينى ، بل المعنى يصلح شأنكم عند ابيكم ويصير أبوكم محبا لكم مشتغلا بشأنكم .

الثالث : المراد أنكم بسبب هذه الوحشة صرتم مشوشين لا تتفرغون لإصلاح مهم ، فإذا زالت هذه الوحشة تفرغتم لإصلاح مهماتكم .

وقال الدكتور / سيد طنطاوى [(٣)] : " وهكذا النفوس عندما تسيطر عليها الأحقاد وتقوى فيها رذيلة الحسد ، تفقد تقديرها الصحيح للأمور ،

---

(١) سورة الرحمن من الآية ٢٧ .

(٢) تفسير الفخر الرازى ١٨ / ٩٤ ـ ٩٥ .

(٣) التفسير الوسيط المجلد السابع ص ٣٢٤ .

وتحاول التخلص ممن يزاحمها بالقضاء عليه ، وتصور الصغائر في صورة الكبائر ، والكبائر في صورة الصغائر .

فإخوة يوسف هنا ، يرون أن محبة أبيهم لأخيهم جرم عظيم ، يستحق إزهاق روح الأخ . وفي الوقت نفسه يرون أن هذا الإزهاق للروح البريئة شئ مهين ، في الإمكان أن يعودوا بعده قوما صالحين أمام خالقهم وأمام أبيهم ، وأمام أنفسهم .

قوله ــ سبحانه ــ ﴿ **قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين** ﴾ .

في هذه الآية بيان للرأي الذي اقترحه أحدهم ، واستقر عليه أمرهم .

قوله ﴿ وألقوه في غيابة الجب ﴾

قال القرطبي : " قرأ أهل مكة وأهل البصرة وأهل الكوفة " في غيابة الجب " وقرأ أهل المدينة " في غيابات الجب " [1].

قال الزمخشري [2] : " وهي غوره وما غاب منه عن عين الناظر وأظلم من أسفله .

قال الشاعر :

إن أنا يوما غيبتني غايبتني   فسيروا بسيري في العشيرة والأهل

أراد الشاعر : غيابة حفرته التي يدفن فيها .

وقيل : الغيابة في الجب شبه كهف . أو طاق في البئر فوق الماء يغيب ما فيه عن العيون [3] .

---

(١) تفسير القرطبي ٩ / ٨٨ .

(٢) الكشاف ٢ / ٢٤٤ .

(٣) روح المعاني ١٢ / ١٩٢ .

والجب : البئر ، مذكر . وقيل : الركية ــ أى الحفرة ــ التى لم تطو ــ أى لم تبن بالحجارة ــ فإذا طويت فهى بئر ، وسمى جبا ، لأنه جب فى الأرض أى قطع [1] .

" وجمع بين الغيابة والجب ، لأنه أراد ألقوه فى موضع مظلم من الجب حتى لا يلحقه نظر الناظرين . قيل : هو بئر ببيت المقدس ، وقيل هو بالأردن . قاله وهب بن منبه " [2] .

قوله ﴿ **يلتقطه** ﴾ أى : يأخذه على وجه الصيانة عن الضياع والتلف ، فإن الإلتقاط أخذ شئ مشرف على الضياع .

والسيارة : أى المارة من المسافرين . وفى المختار[3] : " السيارة : القافلة "

والمعنى : قال قائل من إخوة يوسف ــ الله أعلم باسمه ولا حاجة لنا فى معرفته ــ قال : لا تقتلوا يوسف فهو أخوكم بالإضافة إلى أن قتله جرم عظيم ، ولكن إذا أردتم التخلص منه حقا فألقوه فى قعر البئر ، حيث يغيب خبره إلى أن يلتقطه بعض المسافرين الذين يسيرون فى الأرض للتجارة ، فيتم لكم غرضكم وهو إبعاده عن أبيه ، وبذلك تستريحون منه ويخل لكم وجه أبيكم إن كنتم فاعلين الصواب فهذا هو الصواب .

وجواب الشرط فى قوله ﴿ **إن كنتم فاعلين** ﴾ محذوف لدلالة " والقوه " عليه .

---

(١) المرجع السابق ، ولسان العرب ١ / ٢٥٠ .

(٢) تفسير القرطبى ٩ / ٨٨ .

(٣) مختار الصحاح ص ٣٢٥ .

والمعنى : إن كنتم عازمين مصرين على أن تفعلوا به ما يفرق بينه وبين أبيه أو إن كنتم فاعلين بمشورتي ورأيي فألقوه .

" وفي هذه الجملة من هذا القائل ، محاولة منه لتثبيطهم عما اقترحوه من القتل أو التغريب بأسلوب بليغ ، حيث فوض الأمر إليهم ، تعظيما لهم ، وحذرا من سوء ظنهم به فكان أمثلهم رأيا وأقربهم إلى التقوى " [1] .

ثم قص ـ سبحانه ـ محاولاتهم مع أبيهم ، ليأذن لهم بخروج يوسف معهم فقال :

﴿ قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون أرسله معنا غدا يرتع ويلعب معنا وإنا له لحافظون ﴾

قال إخوة يوسف ، وقد رأوا ما رأوا من حب أبيهم ليوسف ، وما كان يستريح إذا غاب يوسف عنه لحظة ولو مع إخوته ، وكانوا يفهمون حرص أبيهم على يوسف ـ قالوا : يا أبانا ما لك لا تأمنا عليه ؟ وأي شئ عرض لك من الشبهة حتى لا تأمنا على يوسف ، والحال أننا له ناصحون ومخلصون .

وهذا الكلام يدل على أن يعقوب ـ عليه السلام ـ كان يخافهم على يوسف ولولا ذلك ما قالوا ذلك القول .

وفي ندائهم له بلفظ " يا أبانا " تحريكا لسلسلة النسب بينه وبينهم ، وتذكيرا لرابطة الأخوة بينهم وبين يوسف ـ عليه السلام ـ واستمالة

---

(١) التفسير الوسيط . المجلد السابع ص ٣٢٦ .

لقلبه ليعدل عن رأيه على عدم خروج يوسف معهم ، وحفظه منهم لما أحس بحسدهم .

وقوله ﴿ **قالوا ما لك لا تأمنا** ﴾ استفهام يفيد التعجب من عدم ائتمانهم على أخيهم ، وهو يوحى بأنهم بذلوا محاولات قبل ذلك في اصطحابه معهم ولكنها باءت بالفشل .

قال الجمل [1] : قوله ﴿ **قالوا يا أبانا ... الخ** ﴾ مبني على مقدمات محذوفة وذلك أنهم قالوا أولا ليوسف اخرج معنا إلى الصحراء إلى مواشينا فنستبق ونصيد ، وقالوا له سل أباك أن يرسلك معنا ، فسأله فتوقف يعقوب ، فقالوا له ما لك لا تأمنا .. الخ ".

إعراب " ما لك لا تأمنا "

ما : اسم استفهام مبتدأ .

لك : خبر . " لا " نافية . تأمنا : فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره أنت و" نا " مفعول به ، وقد أضغمت نون تأمن ب " نا " . وجملة ﴿ **لا تأمنا** ﴾ حال . والتقدير : أى شئ ثبت لك منا ؟ .

ولإستنزاله عن رأيه قالوا ﴿ **وإنا له لناصحون** ﴾

قال الزمخشرى [2] : " والمعنى : لم تخافنا عليه ونحن نريد له الخير ونحبه ونشفق عليه ، وليس فينا ما يخل بالنصيحة والمحبة . وأرادوا بذلك لما عزموا على كيد يوسف .. وفيه دليل على أنه أحس منهم بما أوجب أن لا يأمنهم عليه "

---

(١) الفتوحات الإلهية ٢ / ٤٣٨ .

(٢) الكشاف ٢ / ٢٤٤ بتصرف .

وقد أكدوا الجملة بعدة مؤكدات : بأن ، والجملة الإسمية ، وتقديم "**لـه**" واقتران الخبر باللام . كل ذلك يؤيد أنهم يشعرون بما فى نفس أبيهم بالنسبة لهم وليوسف .

ثم أضافوا إلى ذلك قولهم ﴿ **أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون** ﴾

الرتع : الأكل والشرب رغدا فى الريف ، وقيل : يلهوا وينعم ، وقيل : معناه يسعى وينبسط [1] .

والمراد باللعب هنا : الإستجمام ورفع السآمة ، كالتسابق عن طَريق العدو ، وما يشبه ذلك من ألوان الرياضة المباحة .

أى : أرسله معنا فى الغد يرتع كما يشاء ويطيب له من أكل الفاكهة والبقول فى الهواء الطلق ويلعب معنا فى وقت سرور ونشاط .

﴿ **وإنا له لحافظون** ﴾ كل الحفظ من أن يصيبه مكروه ، وقد أكدوا هذه الجملة بألوان من المؤكدات مثل التى قبلها .

ولكن يعقوب ــ عليه السلام ــ اعتذر لهم بشيئين :

أحدهما : الحزن على فراقه وعدم صبره على بعده .

والثانى : خوفه عليه من الذئب إن غفلوا عنه برعيهم ولعبهم ، أو بقلة إهتمامهم بحفظه وعنايتهم .

وخص الذئب : " لأنه كان السبع الغالب على قطره ، أو لصغر يوسف فخاف عليه هذا السبع الحقير " [2] . قال الزمخشرى [3] : " وقيل:رأى فى

---

(١) لسان العرب ٨ / ١١٢ .

(٢) البحر المحيط ٦ / ٢٤٦ .

(٣) الكشاف ٢ / ٢٤٥ .

فى النوم أن الذئب قد شد على يوسف ، فكان يحذره فمن ثم قال ذلـــك فلقنهم العله . وفى أمثالهم " البلاء موكل بالمنطق " .

فلما ذكر يعقوب ــ عليه السلام ــ هذا الكلام أجابوا بقولهم ﴿ **لئـن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون** ﴾ .

قال الزمخشرى [1] : " القسم محذوف تقديره والله ﴿ **لئن أكله الذئب** ﴾ واللام موطئة للقسم ــ وإن شرطية ــ وقوله ﴿ **إنا إذا لخاسرون** ﴾ جـواب للقسم مجزى عن جزاء الشرط " فجملة جواب الشرط محذوفة ، لأن الجواب يعطى للمتقدم .

وقوله ﴿ **لخاسرون** ﴾ مجاز عن الضعف والعجز ، والعلاقة السببية .

والمعنى : لئن حصل ما خافه أبيهم من خطف الذئب أخاهم من بينـــهم وحالهم أنهم عشرة رجال إنهم إذا لقوم خاسرون أى : " لها لكـــون ضعفـا وخورا وعجزا . أو مستحقون للهلاك إذ لا غناء عندنا ولا جدوى فـــى حياتنا . أو مستحقون لأن يدعى علينا بالخسار والدمار ويقال خســـرهم الله تعالى ودمرهم حيث أكل الذئب بعضهم وهم حضور .

وقال الألوسى[2] : " ويجوز أن يكون بمعناه الحقيقى أى : إن لم نقـــدر على حفظه .. فقد هلكت مواشينا وخسرناها "

وقد تساءل الفخر الرازى [3] قائلا : " إن يعقوب ــ عليه السلام ــ اعتذر بعذرين ــ أى حزنه على فراقه ، وخوفه من أن يأكله الذئـــب ــ فلم أجابوا عن أحدهما دون الآخر ؟

---

(١) الكشاف ٢ / ٢٤٥ .

(٢) روح المعانى ١٢ / ١٩٦ بتصرف .

(٣)تفسير الفخر الرازى ١٨ /٩٨ .

ثم أجاب عن تسائله فقال : إن حقدهم وغيظهم كان بسبب العـــذر الأول ، وهو شدة حبه له فلما سمعوا ذكر ذلك المعنى تغافلوا عنه .

تنفيذ المؤامرة :

وهكذا استسلم الوالد الحريص لإلحاح أبنائه ليتحقق قدر الله تعـــالى وتتم القصة كما تقتضى مشيئته تعالى .

قال تعالى ﴿ **فلما ذهبوا وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابـــة الجـــب * وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون** ﴾

أخرج ابن جرير الطبرى [1] عن السدى " قال : ... فلما برزوا به إلى البرية أظهروا له العداوة وجعل أخوه يضربه فيســـتغيث بـــالآخر فيضربه ، فجعل لا يرى منهم رحيما فضربوه ، حتى كادوا يقتلونـــــه ، فجعل يصيح ويقول يا أبتاه يا يعقوب لو تعلم ما صنع بابنك بنو الإماء ؟ فلما كادوا يقتلونه قال يهوذا : أليس قد أعطيتمونـــــى موثقـــا أن لا تقتلـــوه فانطلقوا به إلى الجب ليطرحوه فجعلوا يدلونه فى البئر فيتعلق بشـــفير البئر ، فربطوا يديه ونزعوا قميصه : فقال : يـــا أخوتـــاه ردوا علـــىَّ قميصى أتوارى به فى الجب . فقالوا : ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكبا تؤنسك . قال : إنى لم أر شيئا ، فدلوه فى البئر حتـــــى إذا بلـــغ نصفها ألقوه إرادة أن يموت ، وكان فى البئر ماء فسقط فيه ثم أوى إلى صخرة فيها فقام عليها قال : فلما ألقوه فى البئر جعـــل يبكـــى فنـــادوه فظن أنها رحمة أدركتهم فلباهم ، فأرادوا أن يرضخوه بصخرة فيقتلوه ، فقام يهوذا فمنعهم ، وقال : قد أعطيتمونى موثقا أن لا تقتلوه ، وكـــــان يهوذا يأتيه بالطعام " أ . هـــ

---

(١)تفسير الطبرى ١٢ / ٩٦ .

وروى : أنهم لما ألقوه فى الجب جعل يبكى ... ونزل جبريل — عليه السلام — يؤنسه ، فلما أمسى نهض ليذهب فقال له : إنى أستوحش إذا ذهبت ، فقال : إذا رمت لى فقل : ياصريخ المستصرخين ، ويامغيث المستغيثين . ويا مفرج كرب المكروبين قد ترى مكانى وتعلم حالى ولا يخفى عليك شئ من أمرى . فما قالها يوسف — عليه السلام — حفته الملائكة عليهم السلام واستأنس بهم (١) .

واخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : " لما ألقى يوسف فى الجب أتاه جبريل عليه السلام فقال : ياغلام من ألقاك فى هذا الجب ؟ قال : إخوتى . قال : ولم ؟ قال : لمودة أبى إياى حسدونى ، قال : تريد الخروج من هنا ؟ قال : ذاك إلى إله يعقوب ، قال : قل : اللهم إنى أسألك باسمك المكنون المخزون يا بديع السموات والأرض ياذا الجلال والإكرام أن تغفر لى وترحمنى وأن تجعل من أمرى فرجا ومخرجا وأن ترزقنى من حيث أحتسب ومن حيث لا أحتسب ، فقالها فجعل الله تعالى له من أمره فرجا ومخرجا ورزقه ملك مصر من حيث لا يحتسب . ثم قال عليه الصلاة والسلام : ألظوا بهؤلاء الكلمات فإنهن دعاء المصطفين الأخيار " قال الألوسى (٢): " وروى غير ذلك ، والروايات فى كيفية إلقائه . وما قال . وما قيل له كثيرة ، وقد تضمنت ما يلين له الصخر . لكن ليس فيها ما له سند يعول عليه ، والله اعلم أ . هـ

---

(١)روح المعانى ١٢ / ١٩٦ .

(٢) المرجع السابق ١٢ / ١٩٨ .

ولكن الله العالم البصير الرحمن الرحيم ، لا يترك مظلوما يتخبط بل هو معه ناصره وحافظه ومطمئنه ، أوحى إلى يوسف : لا تخف فالله معك ، وسيظهرك عليهم ، ويذلهم لك ويحقق رؤياك ، ويسجد لك سجود خضوع إخوتك الأحد عشر وأبوك وأمك ، ولتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لهول الموقف لا يشعرون .

فالضمير فى قوله : ﴿ **وأوحينا إليه** ﴾ يعود على يوسف ـ عليه السلام ـ وإما أن يكون الوحى عن طريق الإلهام القلبى ، أو عن طريق جبريل ـ عليه السلام ـ ، أو عن طريق الرؤيا الصالحة . ستخبرهم فى الوقت الذى يشاؤه الله تعالى .

وقوله ﴿ **بأمرهم هذا** ﴾ أى : بما فعلوه معك فى صغرك من إلقائك فى الجب ، ومن إنجاء الله ـ تعالى ـ لك .

وجملة ﴿ **وهم لا يشعرون** ﴾ جملة حالية .

قال القرطبى [1] : " اختلف أهل التأويل فى المعنى الذى عناه الله عز وجل بقوله ﴿ **وهم لا يشعرون** ﴾ :

قال مجاهد : أوحى إلى يوسف وهو فى الجب أن سينبئهم بما صنعوا وهم لا يشعرون بذلك الوحى .

وقال ابن عباس : " لما دخل إخوة يوسف فعرفهم وهم له منكرون . قال : جئ بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطن ، فقال : إنه ليخبرنى هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف يدنيه دونكم وأنكم انطلقتم به فألقيتموه فى غيابة الجب . قال : ثم نقره فطن فأتيتم أباكم فقلتم إن الذئب أكله ، وجئتم على قميصه بدم كذب . قال : فقال

---

(١) تفسير القرطبى ١٢ / ٩٦ .

بعضهم لبعض: إن هذا الجام ليخبره بخبركم . قال ابن عباس : فلا نرى هذه الآية إلا فيهم لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون أ . هـ

وقد تحقق كل ذلك – كما سيأتى – عند تفسير قوله تعالى ﴿ فلما دخلوا عليه قالوا يأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر ﴾ .

وكان هذا الإيحاء – على الراجح – قبل أن يبلغ سن الحلم ، وقبل أن يكون نبيا ، " فقيل : كان عمره إذ ذاك سبع سنين . وقيل : ست ، قاله الضحاك . وأبعد من ذهب إلى أنه إثنتا عشرة سنة ، وثمان عشرة سنة ، وكلاهما عن الحسن ، أو سبع عشرة سنة قاله ابن السائب " . [1]

ويدل على أنه كان صغيرا بحيث لا يدفع عن نفسه قوله : **﴿ وأخاف أن يأكله الذئب ﴾ و ﴿ يرتع ويلعب ﴾ ﴿ وإنا له لحافظون ﴾** وأخذ السيارة له ، وقول الوارد : هذا غلام ، وقول العزيز **﴿ عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ﴾** ... ومن هو ابن ثمان عشرة سنة لا يخاف عليه من الذئب ولا سيما إن كان فى رفقة ، ولا يقال فيه : أو نتخذه ولدا .

وكان المقصود من الإيحاء: إدخال الطمأنينة على قلبه ، وتبشيره بما يصير إليه أمره من جاه وسلطان .

قال مقاتل : " وكان هذا الجب الذى ألقوه فيه على بعد ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب " [2]

ثم قص سبحانه أقوالهم لأبيهم بعد أن ألقوا يوسف فى الجب ورجعوا إليه وقت العشاء باكين .

---

(1) راجع روح المعانى للألوسى ١٢ / ١٩٨ .

(2) تفسير الفخر الرازى ١٨ / ٩٦ .

قال تعالى : ﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ(١٦)قَالُوا يَاأَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ(١٧)وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ(١٨) ﴾

قوله ﴿ وجاءوا أباهم عشاء يبكون ﴾

العشاء : وقت غيبوبة الشفق ، وحلول الظلام .

قال أبو حيان [١]: " قيل : وإنما جاءوا عشاء ليكون أقدر على الإعتذار فى الظلمة ، ولذا قيل : لا تطلب الحاجة بالليل ، فإن الحياء فى العينين ، ولا تعتذر فى النهار من ذنب فتتلجلج فى الإعتذار " أ . هـ

وأرى أن هذه النصيحة لا تنسحب علينا الآن ، فالكهرباء بددت الظلمة ، فلا يستطيع أحد التستر خلف الظلام .

المراد بالبكاء هنا : البكاء المصطنع أى متباكين أى مظهرين البكاء بتكلف ، فهو لم يكن عن حزن ، فعلوا ذلك للتمويه والخداع ، وليقنعوا أبيهم أنهم لم يقصروا فى حق أخيهم .

قال ابن كثير[٢]: " قال بعض السلف ، لا يغرنك بكاء المتظلم فرب ظالم وهو باك ! وذكر بكاء إخوة يوسف وقد جاءوا أباهم عشاء وهم يبكون "

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٢٤٩ .

(٢) قصص الأنبياء ص ٢١٦ .

وقال الزمخشرى [1] : " روى أن امرأة حاكمت إلى شريح فبكت ، فقال الشعبى : يا أبا أمية أما تراها تبكى ؟ ! فقال : قد جاء إخوة يوسف يبكون وهم ظلمة ، ولا ينبغى لأحد أن يقضى إلا بما أمر أن يقضى به من السنة المرضية " أ . هـ

قال القرطبى [2] : " روى أن يعقوب — عليه السلام — لما سمع بكاءهم قال : ما بكم ؟ أجرى فى الغنم شئ ؟ قالوا : لا . قال : فأين يوسف ؟ قالوا : إنا ذهبنا نستبق فأكله الذئب ... "

قوله ﴿ ذهبنا نستبق ﴾ أى نتسابق فى العدو ، أو فى الرمى بالسهام ، قال القرطبي [3] : " والغرض من المسابقة تدريب النفس على العَدْو ، لأنه الآلة فى قتال العدو ، ودفع الذئب عن الأغنام "

﴿ وتركنا يوسف عند متاعنا ﴾ أى : عند الأشياء التى نتمتع بها فى رحلتنا من ثياب وطعام .

قوله : ﴿ فأكله الذئب ﴾ وذلك أنهم لما سمعوا أبيهم يقول : " وأخاف أن يأكله الذئب " فالتقطوا الحكاية من قول أبيهم .

ثم قالوا : ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴾ والمعنى : لو كنا عندك من أهل الثقة والصدق لاتهمتنا فى يوسف لشدة محبتك إياه ولظننت أنا قد كذبنا .

ولكنهم لم يكتفوا بهذا التباكى وبهذا القول ، بل أضافوا إلى ذلك تمويها أخر قصه القرآن فى قوله تعالى : ﴿ وجاءوا على قميصه بدم كذب .. ﴾ الواو عاطفة .

---

(١) الكشاف ٢ / ٢٤٦ .

(٢) تفسير القرطبى ٩ / ٩٦ .

(٣) المرجع السابق .

جاءوا فعل وفاعل ، على قميصه : محله النصب على الظرفية كأنه قيل : وجاءوا فوق قميصه بدم كذب . وهذا الظــــرف معمـــول لحـــال محذوفة من دم . والتقدير : وجاءوا بدم كذب حال كونه كائنـــــا فـــوق قميصه .

قال الألوسى [1]: " أخرج ابن ابى حاتم . وأبو الشـــيخ وقتـــادة أن أخوة يوسف أخذوا ظبيا فذبحوه فلطخوا بدمه القميص ، ولما جاءوا بـــه جعل يقلبه فيقول : ما أرى به ناب ولا ظفر إن هذا السـبع رحيـم ٠٠ وفى رواية قال : تالله ما رأيت كاليوم ذئبا أحلم من هذا أكل ابنى ولـــم يمزق عليه قميصه ٠٠ "

ووصف الدم بالكذب مبالغة كأنه نفس الكذب وعينه . كمــــا يقـــال للكذاب : هو الكذب بعينه .

قال القرطبى[2] : " قال علماؤنا رحمة الله عليـــهم : لمـــا أرادوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم قرن الله بهذه العلاقة علامة تعارضها ، وهى سلامة القميص من التّنييب ؛ إذ لا يمكن أفتراس الذئب ليوســـــف وهو لابس القميص ويسلم القميص من التخريب ؛ ولما تأمل يعقـوب ــ عليه السلام ــ القميص فلم يجد فيه خرقا ولا أثرا استدل بذلـــك علـــى كذبهم ، وقال لهم : متى كان هذا الذئب حكيما ياكل يوسف ولا يخـــرق القميص ! قاله ابن عباس وغيره " أ . هـ

" **وقد استدل الفقهاء بهذه الآية فى إعمال الأمارات** فى مسائل الفقه ٠٠ وأجمعوا على أن يعقوب ــ عليه السلام ــ استدل علـــى كذبـــهم

---

(١) روح المعانى ١٢ / ٢٠٠ ــ ٢٠١ .

(٢) تفسير القرطبى ٩/٩٩ .

بصحة القميص ؛ وهكذا يجب على الناظر أن يلحظ الأمارات والعلامات إذا تعارضت ، فما ترجح منه قضى بجانب الترجيح ، وهى قوة التهمة ؛ قاله ابن العربى " [1]

هنالك اكتشف يعقوب كذبهم ، وأنهم قد اصطنعوا هذه الحيلة المخادعة له . لذا قال ملوحا بكذبهم : ﴿ **بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون** ﴾

التسويل : التزيين والتحسين أى : زينته وحسنته وصورته فى صورة الشئ الحسن مع أنه قبيح .

والمعنى : قال يعقوب لأبنائه بأسى ولوعة بعد أن فعلوا ما فعلوا وقالوا ما قالوا : قال لهم ليس الأمر كما زعمتم من أن يوسف قد أكله الذئب ، وإنما الحق أن نفوسكم الحاقدة عليه هى التى زينت لكم أن تفعلوا معه فعلا سيئا قبيحا .

ونكّر " أمراً " للتهويل والتشنيع لما اقترفوه فى حق أخيهم .

ثم قال توطئة وتهدئة لنفسه ﴿ **فصبر جميل** ﴾

قال القرطبى [2] : قال مجاهد : " فصبر جميل ، أى من غير جزع ، وقال الثورى : " من الصبر أن لا تحدث بوجعك ولا مصيبتك ، ولا تزكى نفسك " ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ **إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله** ﴾ .

قال الألوسى [3] : " قيل : إنه عليه السلام سقط حاجباه على عينيه فكان يرفعهما بعصابة فسئل عن سبب ذلك فقال : طول الزمان وكثرة

(١) تفسير القرطبى ٩ / ٩٩ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) روح المعنى ١٢ / ٢٠١ .

الأحزان ، فأوحى الله تعالى إليه أتشكو إلى غيرى فقال : يارب خطيئة فاغفرها "

ثم أضاف إلى ذلك قوله ﴿ **والله المستعان على ما تصفون** ﴾

والمعنى : أن إقدامه على الصبر لا يمكن إلا بمعونة الله تعالى .

قال الشعبى : " قصة يوسف كلها فى قميصه . وذلك لأنهم لما ألقوه فى الجب نزعوا قميصه ولطخوه بالدم وعرضوه على أبيه ، ولما شهد الشاهد قال : ﴿ **إن كان قميصه قد من قبل ..** ﴾ ولما أتى بقميصه إلى يعقوب ــ عليه السلام ــ فألقى على وجهه ارتد بصيرا " [(١)]

وقد رد القرطبى هذا القول فقال : " وهذا مردود ؛ فإن القميص الذى جاءوا عليه بالدم غير القميص الذى قد ، وغير القميص الذى أتاه البشير به . وقال : وقد قيل : إن القميص الذى قد هو الذى أتى به فارتد بصيرا " [(٢)]

أقول : ليس المقصود هو نفس القميص فى الثلاث حالات . بل القميص هنا جنس .

قال الشيخ القاسمى [(٣)] : " وفى الآية من الفوائد : أن الحسد يدعوا إلى المكر بالمحسود وبمن يراعيه .. وأن الحاسد إذا أدعى النصح والحفظ والمحبة ، لم يصدق ، وأن من طلب مراده بمعصية الله ــ تعالى ــ فضحه الله ــ عز وجل ــ وأن القدر كائن ، وأن الحذر لا ينجى منه ... "

---

(١) تفسير الفخر الرازى ١٠٢/١٨ .

(٢) تفسير القرطبى ٩٩/٩ .

(٣) تفسير القاسمى ٩ / ٣٥٢٠ ملخصا.

يوسف مع السيارة

قال تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَابُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ(١٩)وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ(٢٠) ﴾

فى هاتين الآيتين يقص القرآن الكريم مرحلة أخرى من مراحل قصة يوسف ــ عليه السلام ــ ، حيث انتشاله من الجب وبيعه بثمن بخس .

قوله ﴿ وجاءت سيارة ﴾ قال الزمخشرى [١] : " هى رفقة ــ قافلة ــ تسير من قبل مدين إلى مصر ، وذلك بعد ثلاثة أيام من إلقاء يوسف فى الجب فأخطئوا الطريق فنزلوا قريبا منه ، وكان الجب فى قفرة بعيدة عن العمران لم يكن إلا للرعاة ، وقيل : كان ماؤها ملحا فعذب حين ألقى فيه يوسف " .

والوارد : هو الذى يرد الماء ليستقى للقوم . فيقال لكل من يرد الماء وارد ، كما يقال للماء مورد .

قوله ﴿ فأدلى دلوه ﴾ أى أرسلها فى البئر . قال الواحدى : " يقال : أدلى دلوه إذا أرسلها فى البئر ودلاها إذا نزعها من البئر " [٢]

قال قتادة والسدى : " لما أدلى المدلى دلوه تعلق بها يوسف فقال : يابشرى هذا الغلام ؛ قال قتادة : بشر أصحابه بأنه وجد عبدا . وقال السدى : نادى رجلا اسمه بشرى " [٣] .

---

(١) تفسير الكشاف ٢ / ٢٤٧ .

(٢) تفسير الفخر الرازى ١٨ / ١٠٥ .

(٣) تفسير القرطبى ٩ / ١٠١ .

والأوجه قول قتادة ،فهى تعبير عن ابتهاجه وسروره .

قال الألوسى [1]: " نادى البشرى بشارة لنفسه أو لقومه ورفقته كأنه نزلها منزلة شخص فناداه . فهو استعارة مكنية تخييليــة أى: يابشــرى تعالى فهذا أوان حضورك ، وقيل: المنادى محذوف كما فى ياليت أى : ياقوم انظروا واسمعوا بشراى ، وقيل : إن هذه الكلمة تستعمل للتبشــير من غير قصد إلى النداء "

قال الجمل [2] : " كان يوسف أحسن ما يكون من الغلمـــان ، وقــد أعطى شطر الحسن . وقيل : ورثه من جدته سارة ، وكانت قد اعطيت سدس الحسن ، فكان حسن الوجه جعد الشعر. ضخم العينين والساقين . خميص البطن . صغير السرة . وكان إذا تبسم ظهر النور من ضواحكــه ، وإذا تكلم ظهر من ثناياه ولا يستطيع أحد وصفه " أ . هــ

معنى قوله : **﴿ وأسروه بضاعة ﴾**

أسَرَّ : من الإسرار الذى هو ضد الإعلان . أى : أخفوه من الرفقــة ، أو كتموا أمره من وجدانهم له فى الجب .

والضمير المنصوب وهو الهاء فى قولـــه **﴿ وأسروه بضاعـــة ﴾** يعود إلى يوسف . أما الضمير المرفوع فيعود إلى السيارة .

وعلى هذا يكون المعنى : وأخفى جماعة المسافرين خـــبر التقــاط يوسف من الجب مخافة أن يطلبه أحد من السكان المجاورين للجـــب ، وعزموا على بيعه على أنه من العبيد .

---

(١) روح المعانى ١٢ / ٢٠٣ .

(٢) الفتوحات الإلهية ٢ / ٤٤٢ .

وقال ابن عباس : " الضمير فى " وأسروه " و" شروه " يعود إلى إخوة يوسف ، وأنهم قالوا للرفقة : هذا غلام قد أبق لنا فاشتروه منا ، وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه ، وذلك أنه روى أن بعضهم رجع إلى الجب ليتحققوا أمر يوسف ويقفوا على الحقيقة من فقده ، فلما علموا أن الوارد قد أخذوه ، جاؤوهم وقالوا تلك المقالة "[1]

وعلى هذا الرأى يكون معنى ﴿ **وأسروه بضاعة** ﴾ : أخفى إخوة يوسف كونه أخا لهم . واعتبروه عرضا من عروض التجارة القابلة للبيع والشراء .

والحق أن الرأى الأول هو الذى تطمئن إليه النفس ، ولأنه بعيد عن التكلف .

ثم ختم سبحانه الآية بما يناسب موضوعها ؛ وهو الوعيد على صنيعهم هذا فقال جل ذكره ﴿ **والله عليم بما يعملون** ﴾ .

فقد يكون هذا الوعيد للسيارة . والمعنى : والله عليم بما يعملون أى : لم تخف عليه أسرارهم ، وهو وعيد لهم حيث استبضعوا ما ليس لهم .

أو وعيد لإخوة يوسف . أى والله عليم بعمل إخوة يوسف بأبيهم وأخيهم من سوء الصنع .

ثم قال تعالى : ﴿ **وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين** ﴾ .

قوله : ﴿ **وشروه** ﴾

---

(١) البحر المحيط لأبى حيان ٦ / ٢٥٢

المراد من الشراء : ورد فيه معنيان :

الأول : بمعنى البيع . يقال : شريت الشئ إذا بعته . أى : باعوه فالضمير يعود على السيارة .

وعلى هذا التقدير يكون الضمير فى كونه ﴿ **وكانوا فيه من الزاهدين** ﴾ على السيارة ؛ " لأنهم التقطوه ، والملتقط للشئ متهاون به لايبالى بم باعه ، ولأنه يخاف أن يعرض له مستحق ينتزعه من يديه فيبيعه لأول مساوم بأوكس الثمن " (١)

الثانى : يجوز أن يكون المراد من الشراء نفس الشراء . أى أن الرفقة اشتروه من إخوته ، وكانوا فيه من الزاهدين ، لكونهم ارتابوا فيه ، أو لوصف إخوته له بالخيانة والإباق ، أو لعلمهم أنه حر .

وصف الثمن :

وقد وُصف الثمن الذى بيع به يوسف ـ عليه السلام ـ بصفتين :

الصفة الأولى : كونه بخسا لقوله ﴿ بثمن بخس ﴾

قال ابن عباس ﷺ : يريد حراما ، لأن ثمن الحر حرام ، وقال : كل بخس فى كتاب الله نقصان إلا هذا فإنه حرام ، وقال الواحدى : سموا الحرام بخسا لأنه ناقص البركة (٢).

---

(١) انظر الكشاف للزمخشرى ٢ / ٢٤٧ .

(٢) راجع تفسير الفخر الرازى ١٨ / ١٠٧ ، وروح المعانى للألوسى ١٢ / ٢٠٤

وقال قتادة : بخس ظلم ، والظلم . يقـــال : ظلمـــة أنقصـــه ، وقال عكرمة والشـــعبى :قليـــل ، وقيـــل : نـــاقص عـــن القيمـــة نقصانا ظـــاهراً [١]

الصفة الثانية : قوله ﴿ دراهم معدودة ﴾

دراهم : جمع درهم ، وهى بدل من ثمن .

ومعدودة : صفة لدراهم .

وهى كناية عن كونها قليلة ، لأن الشئ القليل يســـهل عـــده ، بخلاف الكثير ، فإنه يوزن فى الغالب .

عن ابن عباس : كانت عشرين درهما ، وعن السدى : اثنيـــن وعشرين [٢]

والمعنى : أن هؤلاء المسافرين بعد أن أخذوا يوسف ليجعلـــوه عرضا من عروض تجارتهم باعوه بثمن قليل تافه .

ثم قال تعالى **﴿ وكانوا فيه من الزاهدين ﴾**

أصل الزهد قلة الرغبة . أى غير راغبين فيه ــ أى فى يوسـف ــ لأن غرضهم إبعاده عنهم لا تحصيل ثمنه [٣]

والضمير فى (كانوا) : إن كان للإخوة فظـــاهر ، وإن كـــان للرفقة وكانوا بائعين فزهدهم فيه لأنهم اعتقدوا انه آبق ، فخـافوا أن يخاطروا بمالهم فيه .

---

(١) المرجعان السابقان .

(٢) روح المعانى ١٢ / ١٠٨ ــ ١٠٩

(٣) الفتوحات الإلهية ٢ / ٤٤٣

والمعنى : وكان هؤلاء الذين باعوه من الزاهدين فى بقائه معـــهم ، الراغبين فى التخلص منه بأقل ثمن .

قال القرطبى [1] : " فى هذه الآية دليل واضح على جواز شراء الشئ الخطير بالثمن اليسير ، ويكون البيع لازما ؛ ولهذا قال مالك : لو باع درة ذات خطر عظيم بدرهم ، ثم قال لم أعلم أنها درة ٠٠ لزمـــه البيع ولم يلتفت إلى قوله " أ . هـ

---

(١) تفسير القرطبى ٩ / ١٠٤

يوسف فى بيت عزيز مصر

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ(٢١)وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(٢٢) ﴾

لقد وصل يوسف إلى مصر ، وبيع بيع الرقيق ، ولكن الذى اشتراه توسم فيه الخير ، فأوصى امرأته حسن معاملته . قال تعالى ﴿ **وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه** ﴾ .

لم يكشف السياق فى هذه الآية عمن اشتراه ، ولكن عرف بعد ذلك أنه عزيز مصر من قوله تعالى ﴿ ... **امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه** ... ﴾

" **روى عن ابن عباس قال** : " كان الذى اشتراه قطفير ، وقيل : إن اسمه أطفير بن روحيب ، وهو العزيز ، وكان على خزائن مصر ، وكان الملك يومئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق " [١] .

﴿ **لإمرأته** ﴾ : قال الطبرى [٢] : " ذكر ابن اسحاق اسمها راعيل بنت رعائيل " وقال السدى " زليخا [٣] وهو المشهور .

---

(١) تفسير الطبرى ١٢ / ١٠٤ .

(٢) المرجع السابق

(٣) روح المعانى ١٢ / ٢٠٧ .

قوله : ﴿ **أكرمى مثواه** ﴾ المثوى مكان المبيت والإقامة .

قال الزمخشرى [1] : " اجعلى منزله ومقامه عندنا كريما أى حسنا مرضيا بدليل قوله ﴿ **إنه ربى أحسن مثواى** ﴾ [2].

والمراد تفقديه بالإحسان وتعهديه بحسن الملكة حتى تكون نفسه طيبة فى صحبتنا ساكنة غى كنفنا ، ويقال للرجل : كيف أبو مثواك وأم مثواك لمن ينزل به من رجل أو امرأة ، يراد هل تطيب نفسك بثوائك عنده ، وهل يراعى حق نزولك به . واللام في (لامرأته) متعلقة بقال .. أ . هـ

وبين العزيز لامرأته عما يتوسمه فى الغلام من خير ، وعن سبب أمره لها بإكرام مثواه فقال : ﴿ **عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا** ﴾ ولعلهما لم يكن لهما أولاد كما تذكر بعض الروايات :

أخرج الطبرى [3]عن مجاهد قال : " .... إن مشترى يوسف قال هذا القول لامرأته حين دفعه إليها لأنه لم يكن لديه ولد ولم يأت النساء . فقال لها : أكرميه عسى أن يكفينا بعض ما نعانى من أمورنا .. أو نتخذه ولدا .. "

وقد أمر العزيز امرأته بإكرامه لِمَا رآه فى يوسف من علامات الرشد والنجابة ، وأمارات الأدب وحسن الخلق .

---

(١) الكشاف ٢ / ٢٤٨

(٢) سورة يوسف الآية ٢٣ .

(٣) تفسير الطبرى ١٢ / ١٠٤

وأخرج الطبرى [1] عن ابى عبيدة بن عبد الله قال : " أفرس النـــاس ثلاثة : العزيز حين قال لإمرأته أكرمى مثواه والقوم فيه زاهدون ، وأبو بكر حين تفرس فى عمر فاستخلفه ، والمرأة ابنة شعيب ــ عليه السلام ــ التى قالت يأبت استأجره "

هكذا قدر ليوسف التمكين فى الأرض . وقد بدأت بشائره بتمكينــــه فى بيت عزيز مصر. كل هذا التدبير من الله وبه.

يقول الدكتور محمد حجازى [2]: " يا ســـبحان الله ! ! أهكـــذا يكون يوسف الذى ألقى فى الجب ! وقد وقع فى قلب ســـيده هـــذا الموقع . ولا غرابة فالله حارسه وهاديه ، وحافظه وراعيه ومثـــل ذلك التدبير والعناية بيوسف مكناه فى أرض مصر ، وكـــان هـــذا العطف من عزيزها فاتحة الخير وإن اعترض سبيله بعض المشـــاق فتلك حكم الله يعلمها ، وكما قيل : الحوادث تخلق الرجال .. مثـــل ذلك مكناه فى الأرض ، ولنعلمه من تـــأويل الأحـــاديث ، وتعبـــير الرؤيا وهكذا إعداد الأنبياء " أ . هـــ

وينبه السياق إلى أن هذا التدبير من الله فقال جل ذكره : ﴿ **وكذلـــك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب علـــى أمره** ﴾

---

(١) المرجع السابق ١٢ / ١٠٤ ــ ١٠٥ .

(٢) التفسير الواضح ١٢ / ١٦٨ .

الكاف فى محل نصب على أنه نعت لمصدر محذوف ، والإشـــارة " ذلك " إلى ما تقدم من انجائه من إخوته وإخراجه من الجب ، وعطف قلب العزيز عليه : أى : مثل ذلك التمكين البديع مكنا ليوسف فـــى الأرض حتى صار متمكنا من الأمر والنهى .

والمراد بالأرض : أرض مصر التى نزل فيها .

وجملة ﴿ **ولنعلمه من تأويل الأحاديث** ﴾ علة لمعلـــل محـــذوف ؛ كأنه قيل : وفعلنا ذلك التمكين له ، لنعلمه من تأويل الأحاديث .

قال الألوسى [1] : " أى : بعض تعبير الرؤيا التى عمدتها رؤيـــا الملك ، وصاحبى السجن ، وروى هذا المعنى عن مجاهد ، وهـــو الظاهر كما يرشد إليه قوله عليه السلام : ﴿ **ذلك مما علمنى ربى** ﴾ .

الحكمة من تذييل الآية بقوله ﴿ والله غالب على أمره ولكن اكثر الناس لا يعلمون ﴾

ختم سبحانه الآية بقوله ﴿ والله غالب على أمره ٠٠٠ ﴾ لبيان قـــدرة الله تعالى ، ونفاذ مشيئته . أى : والله غالب على أمره ، ومنفذ مـــا أراد ، لاراد لقضائه ، فكل ما وقع ليوسف من إلقائه فى الجب ومن اســـترقاقه وبيعه وتوصية سيده لامرأته بخصوصه وتعليمه الرؤيـــا وغـــير ذلـــك خطوات لإعداد يوسف للمحل الذى ينتظر . والتعبير بقوله : ﴿ **ولكـــن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ إحتراس لإنصاف ومدح القلة من الناس الذين

---

(1) تفسير روح المعانى ١٢ / ٢٠٨ .

يعطيهم الله تعالى من فضله ما يجعلهم لا يندرجون فى الكثرة التـــى لا تعلم ، بل هو ــ سبحانه ــ يعطيهم من فضله ما يجعلهم يعلمون مـــالا يعلمه غيرهم [١]

ثم بين سبحانه مظهرا آخر من مظاهر إنعامه علـــى يوســف فقال : ﴿ **ولما بلغ أشده آتينـــاه حكمـــا وعلمـــا وكذلـــك نجـــزى المحسنين** ﴾ .

الأشد : معنـــاه الإدراك والبلـــوغ ٠٠ وقيـــل : حتـــى يبلـــغ ثمانى عشرة سنة . وقيل : حتى يبلـــغ قوتـــه ، وهـــو مـــا بيـــن ثمانى عشرة سنة إلى ثلاثيـــن " [٢]

والمعنى : وحين بلغ يوسف ــ عليه السلام ــ الإدراك والبلوغ ومنتهى شدته وقوته .

﴿ **آتيناه** ﴾ أى : أعطيناه بفضلنا وإحساننا

﴿ **حكما وعلما** ﴾ قال القرطبى [٣] : " جعلناه المستولى علـــى الحكم فكان يحكم فى سلطان الملك ، وآتيناه علما بالحكم .

وقال مجاهد : العقل والفهم والنبوة . وقيل : الحكم : النبـــوة ، والعلم : علم الدين "

---

(١) التفسير الوسيط المجلد السابع ٣٣٦ .

(٢) انظر لسان العرب ٣ / ٢٣٥ ــ ٢٣٦ .

(٣) تفسير القرطبى ٩ / ١٠٧ بتصرف

وقال النيسابورى [1] : " الحكم : الحكمة العملية ، والعلم : الحكمة النظرية ، وإنما قدمت العملية ، لأن أصحاب الرياضيات والمجاهدات يصلون أولا إلى الحكمة العملية ، ثم إلى العلم اللدنى ، بخلاف أصحاب الأفكار والأنظار ، والأول هو طريقة يوسف عليه السلام لأنه صبر على البلاء والمحن ففتح عليه أبواب المكاشفات "

ثم ذيل سبحانه الآية بقوله : ﴿ وكذلك نجزى المحسنين ﴾

قال الزمخشرى [2] : " فيه تنبيه على أن ــ يوسف ــ كان محسنا فى عمله متقيا فى عنفوان أمره ، وأن الله أتاه الحكم والعلم جزاء على إحسانه . وعن الحسن : من أحسن عبادة ربه فى شبيبته آتاه الله الحكمة فى اكتهاله " .

****

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان على مصحف التهجد المجلد الثانى ص ١٨٠٨ .

(٢) تفسير الكشاف ٢ / ٢٤٨ .

يوسف مع امرأة العزيز وكيف كانت محنته

قال تعالى : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ(٢٣)وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ(٢٤)وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٢٥) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ(٢٦)وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ(٢٧)فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ(٢٨)يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ(٢٩) ﴾ .

تحدثت هذه الآيات عن المحنة الثانية فى حياة يوسف ــ عليه السلام ــ وهى أشد وأعمق من المحنة الأولى .

بعد أن ذكر سبحانه وصية العزيز لامرأته بإكرام مثواه ، وعلل ذلك بحسن الرجاء فيه أو أن يتخذه ولدا .. ولكن امرأة العزيز نظرت إلى يوسف ــ عليه السلام ــ بعين تخالف العين التى نظر بها إليه زوجها .

لقد كان يوسف ــ عليه السلام ــ شابا بديع الجمال والبهاء ، فلما رأته زوجة العزيز طمعت فيه وعشقته وطلبت منه مواقعتها ، وأعدت

العدة لذلك " ولكنه أبى واستعصم فهو نبى من سلالة الأنبياء ، فعصمه ربه من الفحشاء ، وحماه من مكر النساء فهو سيد السادة النجباء ، السبعة الأتقياء المذكورين فى قوله ﷺ : " سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل معلق قلبه بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يساره ما تنفق يمينه ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله " [1].

ولتفصيل الآيات التى أخبرت عن محنة يوسف ــ عليه السلام ــ قال تعالى ﴿ **وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك** ﴾

المراودة : الإرادة والطلب . قال الزمخشرى [2] : " مفاعلة من راد يرود إذا جاء وذهب ، كأن المعنى خادعته عن نفسه أى فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشئ الذى لا يريد أن يخرجه من يده يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه وهى عبارة عن التحايل لمواقعته إياها ".

وقوله تعالى ﴿ **التى هو فى بيتها** ﴾ ولم يصرح باسمها ، ولا بامرأة العزيز سترا لها ، وابتعادا عن التشهير بها ، وهذا من الأدب السامى الذى التزمه القرآن فى تعبيراته وأساليبه .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب أبواب الآذان . باب من جلس فى المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد ٢/٢٨٣ ــ ٢٨٨ من الفتح .

(٢) تفسير الكشاف ٢ / ٢٤٨ .

والإخبار عن المراودة بأنها كانت فى بيتها ، لإظهار كامل نزاهته ـ عليه السلام ـ فإن عدم ميله إليها مع دوام مشاهدته لمحاسنها واستعصاءه عليها مع كونه تحت ملكتها ينادى بكونه ـ عليه السلام ـ فى أعلى معارج العفة والنزاهة [١]

وعدى فعل المراودة ب (عن) فى قوله ﴿ **عن نفسه** ﴾ لتضمنه معنى المخادعة .

قال بعض العلماء : " (عن) هنا للمجاوزة ، أى : راودته مباعدة له عن نفسه ، أى : بأن يجعل نفسه لها ، والظاهر أن هذا التركيب من مبتكرات القرآن الكريم ، فالنفس هنا كناية عن غرض المواقعة ، قاله ابن عطية ، أى : فالنفس أريد بها عفافه وتمكينها منه لما تريد ، فكأنها تراوده عن أن يسلم إليها إرادته وحكمه فى نفسه " [٢] .

وقوله ﴿ **وغلقت الأبواب** ﴾ أى أبواب البيت . قيل كانت سبعة . [٣]

قال الألوسى [٤]: " وتشديد الفعل للتكثير فى المفعول إن قلنا : إن الأبواب كانت سبعة كما قيل ن فإن لم تقل فهو لتكثير الفعل فكأنه غلق مرة بعد مرة أو بمغلاق بعد مغلاق " ولا مانع أن يكون المراد كل ذلك . أى : أغلقت جميع الأبواب الموصلة إلى المكان الذى راودته فيه إغلاقا شديدا محكما .

---

(١) تفسير أبى السعود ٤ / ٢٦٥ .

(٢) التحرير والتنوير للشيخ ابن عاشور ١٢/٢٥٠ .

(٣) تفسير الكشاف ٢ / ٢٤٨ .

(٤) تفسير روح المعانى ١٢ / ٢١١ .

ثم دعته إلى نفسها وقالت : ﴿ **هيت لك** ﴾

و" هيت " اسم فعل أمر بمعنى هلم وأقبل وتعالى .

" **قال ابن عباس والحسن** : " كلمة بالسريانية تدعوه إلى نفسها ,

وقال السدى : معناها بالقبطية هلم لك .

وقال أبو عبيد : كان الكسائى يقول : هى لغة لأهل حوران وقعت إلى أهل الحجاز معناها : تعال .

وقال مجاهد : هى لغة عربية تدعوه بها إلى نفسها ، وهى كلمة حث وإقبال على الأشياء " [1]

وقد قيل : " هيئتُ لك " أى تهيأت لك وتزينت وتحسنت . قاله عكرمة " [2]

قال الدكتور / سيد طنطاوى [3] : " وهذه الدعوة السافرة منها له ، تدل على أن تلك المرأة قد بلغت النهاية فى الكشف عن رغبتها ، وأنها قد خرجت عن المألوف من بنات جنسها ، فقد جرت العادة أن تكون المرأة مطلوبة لا طالبة ."

امتناعه عن إجابة طلبها :

لقد امتنع يوسف عن إجابة طلبها بعد أن تجاوزت فى إثارته كل حد .

قال تعالى : ﴿ **قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون** ﴾

---

(١) راجع تفسير القرطبى ٩ / ١٠٩ .

(٢) المرجع السابق ٩ / ١٠٨ .

(٣) التفسير الوسيط المجلد السابع ص ٣٣٩

قوله ﴿ **معاذ الله** ﴾ أى : أعوذ بالله معاذا مما تطلبينه منى .

والضمير فى قوله ﴿ **إنه ربى أحسن مثواى** ﴾ للشأن . فيجوز عودة الضمير فى " إنه " على زوجها ، فيكون لفظ " ربى " بمعنى سيدى . والتقدير : أعوذ بالله أن أسئ إلى سيدى الغزيز بالخيانة الذى أحسن تعهدى ، حيث أمرك بإكرامى . وفيه إرشاد إلى رعاية حق العزيز بألطف وجه .

وقيل : الضمير لله عز وجل ، " وربى " خبر إن ، وأحسن مثواى : خبر ثان أو هو الخبر ، والأول بدل من الضمير . والمعنى : أن الحال هكذا فكيف أعصيه بارتكاب تلك الفاحشة الكبيرة وفيه تحذير لها من عقاب الله عز وجل (١)

لقد أجاب يوسف ــ عليه السلام ــ على مراودتها له بثلاث جمل : **الأولى** ﴿ **معاذ الله** ﴾ **والثانية** : ﴿ **إنه ربى أحسن مثواى** ﴾ . **والثالثة** : ﴿ **إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ .

" وهذا الترتيب فى غاية الحسن ، وذلك لأن الإنقياد لأمر الله تعالى وتكليفه أهم الأشياء لكثرة إنعامه وإلطافه فى حق العبد فقوله ﴿ **معاذ الله** ﴾ إشارة إلى أن حق الله يمنع عن هذا العمل .

وأيضا حقوق الخلق واجبة الرعاية ، فلما كان هذا الرجل قد أنعم فى حقى يقبح مقابلة إنعامه وإحسانه بالإساءة .

---

(١) تفسير أبى السعود ٤ / ٢٦٥

وأيضا صون النفس عن الضرر واجب ، وهذه اللذة لذة قليلة يتبعها خزى فى الدنيا ، وعذاب شديد فى الآخرة ، واللذة القليلة إذا لزمها ضرر شديد ، فالعقل يقتضى تركها والاحتراز عنها فقوله **﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾** إشارة إليه ، فثبت أن هذه الجوابات الثلاثة مرتبة على أحسن وجوه الترتيب " (١)

ولكن .. لم تستجب المرأة إلى نداء العقل ولا نداء الدين أو حتى تخجل من عدم استجابته لها ، بل وقع صداما ومشاجرة بينهما ؛ لتجبره على مواقعتها . وقد قص القرآن ذلك فقال جل ذكره : **﴿ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا الصالحين ﴾**

للعلماء فى هذا الموضوع أراء واتجاهات خلطوا فيها بين الصحيح والسقيم يجمل بى أن اذكر الأقرب إلى الصواب الملتئم مع النسق العام للقرآن ، ومع جلال النبوة والله أعلم بمراده .

وسأبين أولا معنى لفظ " الهم "

قال بعض العلماء (٢) : الهم نوعان :

همٌ بمعنى القصد والعزم والتصميم .

وهمٌ بمعنى الوسوسة وهو تردد الشئ فى النفس من غير أن تطمئن إليه وتستقر عنده . فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

---

(١) تفسير الفخر الرازى ١٨ / ١١٤

(٢) راجع لسان العرب ١٢ / ٦٢٠ ، وفتح البارى ٦ / ٨٧ .

قال رسول الله ﷺ : " إن الله تجاوز لى عن أمتى مـــا وسوســت بــه صدورها ما لم تعمل أو تكلــم " [1]

وعن ابن عباس – رضى الله عنهما – عن النبى ﷺ فيما يرويــه عن ربه عز وجل قال : " إن الله عز وجل كتب الحسنات والسيئات ثــم بين ذلك ، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنــه حســنة كاملــة .... ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة "[2].

وقال ابن منظور [3] : " سئل ثعلب عن قوله تعالى ﴿ ولقد همــت به وهم بها ... ﴾ قال : همت زليخا بالمعصية مصرة على ذلــك ، وهم يوسف عليه السلام بالمعصية ولم يأتها ولم يصر عليــها ، فبيــن الهمين فرق "

فالهم منها غير الهم منه ، فقد وقع الهم منها فعـــلا ، وأمـا هــم يوسف فكان بالطبع ، أى أنه – عليه السلام – مـــال إليــها بطبيعتــه الفطرية مع الإمتناع عن مقارفة السوء ، والإنسان غير مؤاخذ على مــا تشتهيه نفسه أو يميل إليه طبعه ما لم يعزم على فعل الشئ .. وهذا ما فسره به النسفى [4] رحمه الله حيث قال : (همت به) هم عزم (وهــم

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب العتق ، باب الخطأ والنسيان ٦ / ٨٦ – ٨٧ من الفتح .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب الرقاق . باب من هــم بحســنة أو بســيئة ١٠٦/١٤ – ١٠٩ من الفتح .

(٣) لسان العرب ١٢ / ٦٢٠

(٤) تفسير النسفى ٢ / ٢١٧

بها) هم الطباع مع الامتناع . **وقال** : قال الشيخ أبو منصور : وهم بها هم خطرة ولا صنع للعبد فيما يخطر بالقلب ولا مؤاخذة عليه ولو كـان همه كهمها لما مدحه الله تعالى بأنه من عباده المخلصين " أ . هـ

وعلى هذا المعنى يكون المراد من قوله تـعالى : ﴿ **لـولا أن رأى برّهان ربه** ﴾ أى ما غرسه الله تعالى فى قلبه من العلم بـأن هذا الفعل الذى دعته إليه امرأة العزيز قبيح ولا يليق به .

أيضا قال أبو السـعود [1] : " إن الـهم منـها كـان عزمـا جازما لا يلويها عنه صارف بعد مـا باشـرت مباديـها وفعلـت ما فعلت مـن المـراودة وتغليـق الأبـواب ودعوتـه ـ عليـه السلام ـ إلـى نفسـها بقولـها ﴿ **هيـت لـك** ﴾ والـهم منـه بمقتضى الطبيعة البشـرية وشـهوة الشـباب ... ولقـد أشـير إلى تباينهما حيث لم يلزا فى قرن واحد مـن التعبـير بـأن قيـل ولقد هما بالمخالطة . أو هم كل واحد منـهما بـالآخر . وصـدّر الأول بما قرر وجوده من التوكيد القسمى . وعقـب الثـانى بمـا يعفو أثره من قوله عز وجـل ﴿ **لـولا أن رأى برهـان ربـه** ﴾ .. على قبح الزنا وسوء سـبيله " .

---

(١)تفسير أبى السعود ٤ / ٢٦٦

(٢) تفسير الكشاف ٢ / ٢٤٩ .

وهنالك **رأى ثان** ، وهو للزمخشرى (١) قال: وقوله ﴿ **ولقد همت به** ﴾ معناه ولقد همت بمخالطته ﴿ **وهم بها** ﴾ وهم بمخالطتها ﴿ **لــولا أن رأى برهان ربه** ﴾ جوابه محذوف تقديره : لولا أن رأى برهان ربــه لخالطــها فحذف لأن قوله " وهم بها " يدل عليه كقولك هممت بقتله لو لا أنى خفـت الله معناه لو لا أنى خفت الله لقتلته .

وخلاصة الرأيين ، أن الكل متفق على أن يوسف ــ عليه السلام ــ لم يفعل السيئة قط يقول إنه هم بدواعى الطبيعة البشرية ثم جاء الكــف والمنع من وقوع المعصية برؤية البرهان . والرأى الثانى إنه مــا هــم بسبب رؤية برهان ربه ، فرؤية البرهان منعت الهم .

ورأى ثالث ، يرى أن المراد بهمها به : الهم بضربه وهو للشــيخ رشيد رضا (٢) . رحمه الله ، ملخصه : " ولقد همت به " أى : وتالله لقد همت المرأة بالبطش به لعصيانه لأمرها ، وهى فى نظرها سيدته وهــو عبدها ، وقد أزلت نفسها له بدعوته الصريحة إلى نفسها ، بعد الإحتيال عليه بمراودته عن نفسه ... فخرجت بذلك عن طبع أنوثتها فى التمنع .. مما جعلها تحاول البطش به بعد أن أزل كرامتــها ، وهــو انتقــام معهود من مثلها ، وممن دونها فى كل زمان ومكان ...

وهمّ **هو** برد الاعتداء وبمقابلته بالمثل ﴿ **لولا أن رأى برهان ربه** ﴾ وهى مراقبته لله تعالى ، ورؤيته ربه متجليا له ، ناظرا إليه "

---

(٢) تفسير المنار ١٢ / ٣٧٨ ملخصا

وقد اعترض الدكتور / سيد طنطاوى [1] على رأى الشـــيخ رشــيد رضا فقال : " ما ذهب إليه صاحب المنار من تفسير الهم منها بـالبطش بيوسف ، وتفسير الهم منه برد الإعتداء الذى وقع عليه منـــها ، لاأرى دليلا عليه من الآية ، لا عن طريق الإشارة ، ولا عن طريق العبارة .

وقد اختار فضيلته الرأى الأول وهو أن يوسف ـ عليه الســلام ـ مال إلى مطاوعتها بمقتضى طبيعته البشــرية وبمقتضـــى توفــر كــل الدواعى إلى هذا الميل . ولكن مشاهدته للأدلة على شناعة المعصيــة ، وخوفه لمقام ربه ، وعون الله تعالى له على مقومة شـــهوته ٠٠٠ كــل ذلك حال بينه وبين تنفيذ هذا الميل ، وصرفه عنه صرفا كليا ،وجعلـــه يفر هاربا طالبا النجاة مما تريده منه تلك المرأة .

ومن قبل فقــد ارتضـــى الشــيخ ســيد قطــب [2] الــرأى الأول وارتاح له وعلل سر ذلك فقال : " إن قولـــه تعـــالى ﴿ **ولقــد همــت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه** ﴾ هـــو نهايــة موقــف طويــل من الإغراء ، بعد ما أبى يوســـف فـــى أول الأمــر واســتعصم ٠٠ وهو تصوير واقعى صادق لحالـــة النفــس البشــرية الصالحــة فــى المقاومة والضعـــف ، ثــم الإعتصــام بــالله فــى النهايــة والنجــاة ٠٠٠ولكن السياق القرآنى لم يفصـــل فـــى تلــك المشــاعر البشـــرية المتداخلة المتعارضة المتغالبـــة ، لأن المنـــهج القرآنـــى لا يريــد أن

---

(١) التفسير الوسيط المجلد السابع ص ٣٤٣ .

(٢) فى ظلال القرآن ٤ / ١٩٨١

يجعل من هـــذه اللحظـــة معرضـــا يســـتغرق أكـــثر مـــن مســـاحته المناسبة فى محيط القصة ، وفى محيـــط الحيـــاة البشـــرية المتكاملـــة كذلك . فذكر طرفى الموقف بين الاعتصـــام فـــى أولـــه والاعتصـــام فى نهايته ، مع الإلمام بلحظة الضعـــف بينـــهما ، ليكتمـــل الصـــدق والواقعية والجو النظيف جميعـــا " أ . هـــ

أقول : وهذا الرأى هو الأقرب إلى الطبيعة البشرية وإلى العصمـــة النبوية .

وما كان يوسف ــ عليه السلام ــ سوى بشر . ومن ثـــم لـــم يتجاوز همه الميل النفسى فى لحظة مـــن اللحظـــات . فلمـــا رأى برهان ربه الذى نبض فى ضميره وقلبه ، بعـــد لحظـــة الضعـــف الطارئة ، عاد إلى الاعتصام والتأبى .

هذا وفى معنى الآية آراء لبعض المفسرين استدلوا بروايـــات اسرائيلية تتنافى مع مقام النبوة وشرف الرســـالة ومـــع عبـــاد الله المخلصين . **رأينا أن نعرض عنها** ؛ لأنه لا دليل عليها لا من النقل الصحيح ولا من العقل •• وإنما هى من الخرافات •• فلا تستحق أن يضيع فى سردها والرد عليها الوقت أو حتى المداد .

لقد حمى الله تعالى يوسف ــ عليه السلام ــ وصـــرف عنـــه السوء والفحشاء ؛ ليعده لتحمل أعباء الرسالة فقال جل ذكره :

﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشـــاء إنـــه مـــن عبادنـــا المخلصين ﴾

﴿ **كذلك** ﴾ نعت لمصدر محذوف أى : مثل ذلك التثبيت ثبتناه والـــلام متعلقة " بذلك " المحذوف .

﴿ **لنصرف عنه السوء والفحشاء** ﴾

والصرف : رد الشئ عن وجهه [1]، والمراد بـــه هنـــا : الحفـــظ والصيانة من الوقوع فيما نهى الله عنه من " السوء " : وهو خيانـــة السيد . وقيل : مقدمات الفحشاء من القبلة والنظر بشهوة . وقيل : هـــو الأمر السئ مطلقا [2] " والفحشاء " أى : الزنا ، لأنه مفرط القبح .

فرق بين العبارتين :

قال تعالى : ﴿ **لنصرف عنه الســـوء والفحشـــاء** ﴾ ولـــم يقـــل " لنصرفه عن السوء والفحشاء "

قال أبوالسعود [3] : " فيه آية بينة وحجة قاطعة على أنه ــ عليـــه السلام ــ لم يقع منه هم بالمعصية ولا توجه إليها قط وإلا لقيل لنصرفه عن السوء والفحشاء ، وإنما توجه إليه ذلك من خارج فصرفه الله تعالى عنه بما فيه من موجبات العفة والعصمة فتأمل " أ . هـ

ثم علل ــ سبحانه ــ مضمون الجملة السابقة فقال : ﴿ **إنـــه مـــن عبادنا المخلصين** ﴾ بفتح اللام ، وهم الذين اجتباهم الله تعالى لطاعته ، وأخلصهم من كل سوء .

---

(١) لسان العرب ٩ / ١٨٩

(٢) تفسير روح المعانى ١٢ / ٢١٦ .

(٣) تفسير ابى السعود ٤ / ٢٦٧ .

وقرأ ابن كثير ، وأبوعمرو ، وابن عامر والباقون بكسر اللام أى : المخلصين أنفسهم أو دينهم [1]

الأدلة على براءة يوسف عليه السلام :

قال الفخر الرازى [2] : " واعلم أن الذين لهم تعلق بهذه الواقعة . يوسف عليه السلام ، وتلك المرأة وزوجها ، والنسوة ، والشهود ، ورب العالمين شهد ببرائته عن الذنب ، وابليس أقر ببراءته ايضا عن المعصية .

أما بيان أن يوسف عليه السلام ادعى البراءة عن الذنب فهو قوله عليه السلام : ﴿ **هى راودتنى عن نفسى** ﴾ وقوله عليه السلام : ﴿ **رب السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه** ﴾ .

وأما بيان أن المرأة اعترفت بذلك فلأنها قالت للنسوة ﴿ **ولقد راودته عن نفسه فاستعصم** ﴾ وأيضا قالت : ﴿ **الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين** ﴾ .

وأما بيان أن زوج المرأة أقر بذلك ، فهو قوله ﴿ إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك ﴾ .

وأما الشهود . فقوله تعالى ﴿ وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ﴾ .

---

(1) الفتوحات الإلهية ٢ / ٤٤٦ .

(2) تفسير الفخر الرازى ١٨ / ١١٦ ــ ١١٧

وأما شهادة الله تعالى بذلك فقوله : ﴿ **كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين** ﴾ ، فقد شهد الله تعالى في هذه الآية على طهارته أربع مرات :

أولها : قوله : ﴿ **لنصرف عنه السوء** ﴾ واللام للتأكيد والمبالغة .

والثاني : قوله : ﴿ **والفحشاء** ﴾ أي كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء .

والثالث : قوله : ﴿ **إنه من عبادنا** ﴾ مع أنه تعالى قال : ﴿ **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما** ﴾ [1] .

والرابع : قوله : ﴿ **المخلصين** ﴾ وفيه قراءتان : تارة باسم الفاعل وأخرى باسم المفعول . فوروده باسم الفاعل يدل على كونه آتيا بالطاعات والقربات مع صفة الإخلاص . ووروده باسم المفعول يدل على أن الله تعالى استخلصه لنفسه واصطفاه لحضرته ، وعلى كلا الوجهين فإنه من أدل الألفاظ على كونه منزها عما أضافوه إليه .

وأما بيان أن ابليس أقر بطهارته ، فلأنه قال : ﴿ **فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين** ﴾ ، فأقر بأنه لا يمكن إغواء المخلصين ويوسف من المخلصين ، لقوله تعالى : ﴿ **إنه من عبادنا المخلصين** ﴾ فكان هذا إقرارا من ابليس بأنه ما أغواه وما أضله عن طريق الهدى .

---

(١) سورة الفرقان الآية ٦٣ .

وقال الفخرالرازى : وعند هذا نقول لهؤلاء الجهال الذين نسبوا إلى يوسف ــ عليه السلام ــ هذه الفضيحة إن كانوا من أتباع دين الله تعالى فليقبلوا شهادة الله تعالى على طهارته ، وإن كانوا من أتباع ابليس وجنوده فليقبلوا شهادة ابليس على طهارته " أ . هـ

إضافة إلى ما سبق من عصمة يوسف عليه السلام وبراءته .

استجابة الله عز وجل لدعوة يوسف حين طلب من ربه أن يصرف عنه كيدهن ومكرهن الخبيث به ، ولو كان له رغبة في مطاوعة زوجة العزيز لما طلب من الله أن يصرف عنه كيدهن وفى ذلك يقول الله عزوجل : **﴿ فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم ﴾**

أيضا : عدم قبول يوسف الخروج من السجن حتى تظهر براءته أمام جميع الناس ، وذلك يدل على منتهى شهامته ، وعفته ، ونزاهته ، ولولا ذلك لما فضل البقاء فى السجن بعد أن مكث فيه عددا من السنين ولاقى فيه الشدائد ، فلم يقبل الخروج من السجن حتى يقر الجميع ببراءته وتنزه ساحته من تلك التهمة الشنيعة قال تعالى : **﴿ وقال الملك ائتونى به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عليم ﴾**

وقوله تعالى : **﴿ واستبقا الباب ... ﴾** متصل بقوله تعالى قبل ذلك : **﴿ ولقد همت به ... ﴾** وقوله **﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾**

اعتراض جئ بـه بيـن المتعـاطفين تقريـرا لنزاهتـه ـ عليـه السـلام ـ .

قوله تعالى : ﴿ واستبقا .. ﴾ أى تسابقا يوسف وامرأة العزيـز إلى الباب ، هو للخروج والهروب منها ، وهى لمنعه ومراودتـه فكـل واحد منهما يجتهد ليسبق الآخر إلى الباب .

لماذا وحد الباب هنا بعد الجمع فيما سبق ؟

قال الزمخشرى [1] : " فإن قلت : كيف وحـد البـاب فـى قولـه ﴿ **واستبقا الباب** ﴾ وقد جمعه فى قوله ﴿ **وغلقت الأبواب** ﴾ قلـت : أراد الباب البرانى الذى هو المخرج من الدار والمخلص من العار ، فقد روى كعب أنه لما هرب يوسف جعل فراش القفل يتناثر ويسقط حتـى خرج من الأبواب " وأضاف الألوسى قال : " كانت الأبواب تتنـاثر إذا قرب إليها يوسف عليه السلام وتتفتح له ، ويحتمل أنه لـم تكـن تلـك الأبواب المغلقة على الترتيب بابا فبابا بل كانت فى جهات مختلفة كلـها منافذ للمكان الذى كانا فيه فاستبقا إلى باب يخرج منه " [2] .

ونصب الباب على نزع الخافض ، لأن أصل استبق أن يتعـدى بإلى أى : واستبقا إلى الباب ، وقيل : ضمن الاستباق معنى الإبتدار فعدى تعديته .

---

(١) الكشاف ٢ / ٢٥٠ .

(٢) روح المعانى ١٢ / ٢١٧

وجملة : ﴿ **وقدت قميصه من دبر** ﴾ حالية ، والقد : القطع والشق وأكثر استعماله فيما كان طولا ، وهو المراد هنا ، لأن الغالب أنها جذبته من وراء فانشق القميص إلى أسفله .

قوله ﴿ **وألفيا سيدها لدى الباب** ﴾

ألفيا : أي : وجدا

سيدها : أي : زوجها ، وشاع إطلاقه على المالك وعلى الرئيس .وكان من عادات القوم أن تقول المرأة لزوجها سيدى . فعبر القرآن بذلك حكاية لما كان متبعا فى ذلك الوقت .

لماذا لم يقل سيدهما ؟

لأن مُلك العزيز ليوسف ـ عليه السلام ـ لم يكن ملكا صحيحا ، فيوسف ليس رقيقا يباع ويشترى ، وإنما هو الكريم بن الكريم بن الكريم ، وبيع السيارة له ، إنما كان على سبيل التخلص منه بعد أن التقطوه من الجب .

قيل : ألفياه مقبلا يريد أن يدخل ، وقيل : مع ابن عم المرأة . وفى الكلام حذف تقديره : فرابه أمرهما وقال : ما لكما ؟ فلما سأل وقد خافت لومه ، أو سبق يوسف بالقول ، بادرت أن جاءت بحيلة جمعت فيها بين تبرئة ساحتها من الريبة ، وغضبها على يوسف وتخويفه طمعا فى مواقعتها خيفة من مكرها [1] .

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٢٦٠

﴿ قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم ﴾ .

قال الفخر الرازى [1] : " وفى الآية لطائف :

إحداها : أن حبها الشديد ليوسف حملها على رعاية دقيقتين فى هذا الموضع وذلك لأنها بدأت بذكر السجن ، وأخرت ذكر العذاب ، لأن المحب لا يسعى فى إيلام المحبوب ، وأيضا انها لم تذكر أن يوسف يجب أن يعامل بأحد هذين الأمرين ، بل ذكرت ذلك ذكرا كليا صونا للمحبوب عن الذكر بالسوء والألم ، وأيضا قالت ﴿ **إلا أن يسجن** ﴾ والمراد أن يسجن يوما أو اقل على سبيل التخفيف .

فأما الحبس الدائم فإنه لا يعبر عنه بهذه العبارة ، بل يقال : يجب أن يجعل من المسجونين ألا ترى أن فرعون هكذا قال حين هدد موسى ــ عليه السلام ــ (لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين) .

وثانيها : أنها لما شاهدت من يوسف ــ عليه السلام ــ أنه استعصم منها مع أنه كان فى عنفوان العمر وكمال القوة ونهاية الشهوة ، عظم اعتقادها فى طهارته ونزاهته فاستحيت أن تقول إن يوسف ــ عليه السلام ــ قصدنى بالسوء ، وما وجدت من نفسها أن ترميه بهذا الكذب على سبيل التصريح بل اكتفت بهذا

---

(١) تفسير الفخر الرازى ١٨ / ١٢٢ ــ ١٢٣

التعريض ، وليت الحشوية كانوا يكتفون بمثل ما اكتفت بـــه ، ولكنهم لم يفعلوه ووصفوه بعد قريب من أربعة آلاف سنة بمـــا وصفوه من القبيح وحاشاه .

وثالثها : أن يوسف ــ عليه السلام ــ أراد أن يضربها ويدفعـــها عـــن نفسه ، وكان ذلك بالنسبة إليها جاريا مجرى السوء فقولها (ما جزاء من أراد بأهلك سوءا) جاريا مجرى التعريض فلعلــــها بقلبها كانت تريد إقدامه على دفعها ومنعها . وفى ظاهر الأمــر كانت توهم أنه قصدنى بما لا ينبغى . أ . هـ

ولما ذكرت هذا الكلام ولطخت عرض يوسف ــ عليه الســلام ــ ، أراد يوسف تنزيه نفسه عن التهمة ودفع الضرر عنها فقال : ﴿ **قال هى راودتنى عن نفسى** ﴾ أى : طالبتنى للمواتاة لا أنى أردت بها ســـوءا . وإنما قال يوسف ــ عليه السلام ــ هذه المقالة ليس لهتك سترها ، وإنما لحفظ نفسه وعرضه .

وكانت الأمارات دالة على صدق يوسف لوجوه

١ ــ إن يوسف كان مولى وفى مجرى العادة أن المولى لا يجـــرؤ أن يتسلط على سيدته ويتشدد إلى مثل هذا .

٢ ــ إنهم رأوا يوسف يعدوا عدوا شديدا ليخرج ، ومن يطلب امـــرأة لا يخرج على هذا النحو .

٣ ــ إنهم رأوا الزينة قد بدت على وجه المرأة ، ولم يكن لها من أثـــر على وجه يوسف .

٤ ـ إنهم لم يشاهدوا من أخلاق يوسف فى تلك الفترة ما يؤيد مثل هذه التهمة .

وقد أظهر الله لبراءته ما يقوى تلك الدلائل الكثيرة التى تظاهرت على أن بدء الفتنة كانت منها لا منه ، وأنها هى المذنبة وذلك ما أشار إليه بقوله تعالى : ﴿ **وشهد شاهد من أهلها إن كان قميص قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين** ﴾

وهذا الشاهد " قيل : هو ابن عمها . وقيل : هو الذى كان جالسا مع زوجها لدى الباب . وقيل : كان حكيما يرجع إليه الملك ويستشيره . وقيل : كان حكما حكّمه زوجها فحكم بينهما ، وكان الشاهد من أهلها ليكون أوجب للحجة عليها ، وأوثق لبراءة يوسف ، وأنفى للتهمة . ويحتمل أن يكون معهما فى الدار بحيث لا يشعر به ، فبصر بما جرى بينهما ، فأغضبه الله ليوسف ، وشهد بالحق " (١) .

وروى أن الشاهد كان صبيا فى المهد وأيدوه بما نقل عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال : " تكلم أربعة وهم صغار ابن ماشطة بنت فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى ابن مريم " (٢)

---

(١) راجع تفسير أبى السعود ٤ / ٢٦٨ ، والبحر المحيط ٦ / ٢٦١ ، وروح المعانى للألوسى ١٢ / ٢٢٠ ـ ٢٢١ ، والكشاف ٢ / ٢٥١ وغيرهم .

(٢) تفسير ابن كثير ٢ / ٤٥٧ .

وروى عن ابى هريرة قال : " عيسى وصاحب يوسف وصـــاحب جريح تكلموا فى المهد " [1] وهذا موقوف لا يصلح للاحتجـــاج بـــه ، والأول قد ضعفه رجال الحديث .

ولو نطق الطفل بهذا لكان قوله كافيا فى تفنيد زعمها دون حاجـــة إلى الإستدلال بتمزيق القميص ، لأنه من الدلائل الظنية ، وكلامه فـــى المهد من الدلائل اليقينية ، وأيضا لوكان كذلك لما كان هناك داع إلـــى قوله : ﴿ **من أهلها** ﴾ الذى ينفى التحامل عليها ويمنع إرادة الضـــر بها ، وأيضا فإن لفظ " الشاهد " لا يقع عرفا إلا على من تقدمت معرفته لما يشهد وإحاطته به . فكون الشاهد من أهلها أوجب للحجـــة عليـــها ، وألزم لها .

وقد قال هذا الشاهد فى شهادته كما ذكر الله تعالى :

﴿ **إن كان قميصه قد من قبل** ﴾ أى : من أمام " فصدقت " فى أنـــه أراد بها سوءا ، وإنما دل قد قميصه من قبل على أنها صادقة ، لأنـــــه يقبل عليها وهى تدفعه عن نفسها فيتخرق قميصه من قبل (وهو مـــــن الكاذبين) فى قوله ﴿ هى راودتنى عن نفسى ﴾

﴿ **وإن كان قميصه قد من دبر** ﴾ أى : من خلف ﴿ **فكذبت** ﴾ فى دعواها على أنه أراد بها سوءا ، لأن ذلك يدل على أنه حاول الـــهرب منها فتعقبته حتى الباب ، وأمسكت به من الخلف ﴿ **وهو من الصـــادقين** ﴾ فى دعواه أنها راودته عن نفسه .

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبرى ١٢ / ١١٥ .

قال أبو حيان [1] : " ولما كان الشاهد من أهلها راعى جهة المـــرأة فبدأ بتعليق صدقها على تبين كون القميص قد من قبل "

وأضاف الدكتور / سيد طنطاوى [2] فقال : وقـــد يكـــون الشـــاهد حريصا على ذلك بمقتضى قرابته لها ، إلا أن الله تعالى أظهر ما هـــو الحق ، تكريما ليوسف ــ عليه السلام ــ أو قد يكون قـــد قـــدم ذلـــك باعتبارها سيده ، ويوسف فتى ، فمن باب اللياقة أن يذكر الغرض الأول رحمة بها "

﴿ فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكـــن عظيم ﴾

لما علم العزيز صدق يوسف وكذبها **﴿ قال إنه ﴾** أى إن قولـــك : **﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءا ﴾** أوإن هذا الأمر وهـــو الاحتيـــال **﴿ من كيدكن ﴾** من جنس مكركن وحيلتكن. والخطاب لها ولجواريها ، أو لها وللنساء .وهذا الحكم يدل على ضعف الرجولة وذهاب الشهامة .

وهنا تبدوا لنا صورة من الطبقة الراقية فى الجاهلية قبل آلاف السنين وكأنها هى هى اليوم شاخصة . رخـــــاوة ، وعـــدم جديـــة وحزم فى مواجهة الفضائح الجنسية ، وميـــل إلـــى كتمانـــها عـــن المجتمع . والمحافظة على الظاهر .

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٢٦٢ .

(٢) التفسير الوسيط المجلد السابع ص ٣٤٧ .

كما يبدوا لنا أن شخصية الزوج كانت ضعيفة ؛ فهذا الحادث ـ الذى يثير الأعصاب ويؤدى إلى غليان الدم فى العروق ـ واجهه ببرود فلم يخص زوجته باللوم والعتاب ؛ بل أطلقها قضية عامة تشمل كل النساء وأصبحت وكأنها ثبة لكل امرأة فقال ﴿ **إن كيدكن عظيم** ﴾ .

لماذا وُصف كيد النساء بالعظم ؟

ووصف كيد النساء بالعظم ، لأنه ألطف وأعلق بالقلب وأشد تأثيرا فى النفس ، ولأن ذلك قد يورث من العار ما لا يورثه كيد الرجال ، ولعظم كيد النساء اتخذهن ابليس عليه اللعنة وسائل لإغواء من صعب عليه إغواؤه ، ففى الخبر " ما أيس الشيطان من أحد إلا أتاه من جهة النساء " وحكى عن بعض العلماء أنه قال : أنا أخاف من النساء ما لا أخاف من الشيطان فإنه تعالى يقول ﴿ **إن كيد الشيطان كان ضعيفا** ﴾ وقال للنساء : ﴿ **إن كيدكن عظيم** ﴾ ولأن الشيطان يوسوس مسارقة وهن يواجهن به [1] .

وأرى أن هذا اتهام عظيم لكل النساء فقد صوروا كيدها أعظم من كيد ابليس اللعين الذى أمرنا الله تعالى بالإستعاذة من شره فى قوله تعالى : ﴿ **قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس** ﴾ [2]

---

(١) روح المعانى ١٢ / ٢٢٤

(٢) سورة الناس .

ويمكن أن يكون المراد ضعف كيد الشيطان فى مقابلـــة كيـد الله تعالى وعظم كيد النساء بالنسبة إلى كيد الرجال ، وما ذكر فى القـرآن الكريم ﴿ **إن كيدكن عظيم** ﴾ فهو مـــن حكايــة العزيــز ولا يصلــح للاستدلال به والحكم به على كل النساء والله أعلم .

ماذا حصل بعد هذا ؟ ! التفت الزوج " العزيز " إلـــى يوسـف البرئ وقال : ﴿ **يوسف أعرض عن هذا** ﴾ أى : عن هذا الأمـــر واكتمه ، ولا تتحدث به لأحد فقد ظهر صدقك وطهارة ثوبك .

وكما أمر يوسف بكتمان هذه الواقعة ـ حتى لا ينتشر خبرهـــا ـ **أمر المرأة** بالإستغفار فقال : ﴿ **واستغفرى لذنبـــك إنـــك كنـــت مـــن الخاطئين** ﴾ أى : استغفرى الله من ذنبك الذى وقع منك بفعلك الســـوء مع يوسف ثم اتهامك له بما هو برئ منه .

ثم علل طلب الإستغفار بقوله ﴿ **إنك كنت من الخاطئين** ﴾ قـال الزمخشرى [1] : " وإنما قال من الخاطئين بلفـــظ التذكـــير تغليبـــا للذكور على الإناث وما كان العزيز إلا رجلا حليما . وروى أنه كـــان قليل الغيرة " أ . هـ

ولذا أكتفى بهذا القدر من مؤاخذتها .

وقال ابو حيان [2] : " إن تربة إقليم قطفير اقتضت الضعف هـــذا، وأين هذا مما جرى لبعض ملوكنا أنه كان مع ندمائه المختصين به فـــى

---

(1) تفسير الكشاف ٢ / ٢٥٢

(2) البحر المحيط ٦ / ٢٦٢ ـ ٢٦٣ .

مجلس أنس وجارية تغنيهم من وراء ستر ، فاستعاد بعض خلصائه بيتين من الجارية كانت قد غنت بهما ، فما لبث أن جئ برأس الجارية مقطوعا فى طست وقال له الملك : استعد البيتين من هذا الرأس ، فسقط فى يد ذلك المستعيد ، ومرض مدة حياة ذلك الملك "

هذا ومن العبر والعظات التى نأخذها من هذه الآيات الكريمة

١ ـ أن اختلاط الرجال بالنساء كثيرا ما يؤدى إلى الوقوع فى الفاحشة وذلك لأن ميل الرجل إلى المرأة وميل المرأة إلى الرجل أمر فطرى .

ووجود يوسف ـ عليه السلام ـ مع امرأة العزيز تحت سقف واحد كانت هى فى سن الأنوثة ، وكان هو شابا جميلا .. أدى إلى فتنتها به ، وإلى أن تقول له فى نهاية الأمر بعد إغراءات شتى " هيت لك " .

ولا شك أن التأثيرات والمغريات والميوعة واستخدام وسائل خبيثة من جهة المرأة وتحت سقف واحد مع جو القصور والترف . كل هذا كفيل أن يؤثر فى شاب فى سن المراهقة ليقع فى الفاحشة .

وقد سئلت امرأة انحرفت عن طريق الشرف والعفاف ، لماذا كان ذلك منك فقالت : قرب الوساد وطول السواد [1] أى : حملنى من ذلك قرب من أحبه ، وكثرة محادثتى له .

---

(١) تفسير أبى السعود ٤ / ٢٦٥

فعمليات الإستثارة المستمرة بالحركة المثيرة ، والزينة المتبرجة ، والجسم العارى . كل هذا ينتهى إلى سعار شهوانى حيوانى . لذا قال تعالى : ﴿ **وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب** ﴾ [1].

وعن عقبة بن عامر ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : " إياكم والدخول على النساء ، فقال رجل من الأنصار : أفرأيت الحمو ؟ قال : الحمو الموت " [2] والحمو : قريب الزوج كأخيه وابن أخيه وابن عمه . ومن باب أولى يحرم كل الأجانب .

٢ ــ أن من الواجب على المؤمن إذا ما دعى إلى معصية أن يستعيذ بالله من ذلك ، وأن يُذكِّر الداعى له بضررها ، وبسوء عاقبة المرتكب لها كما قال يوسف ــ عليه السلام ــ ﴿ **معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ .

٣ ــ أن يوسف ــ عليه السلام ــ خرج من هذه المحنة مشهودا له بالبراءة والعفة والطهر والنقاء ، وذلك بشهادة الشهود كما سبق أن بينا .

٤ ــ أن موقف العزيز من امرأته كان موقفا ضعيفا متراخيا .. وهذا الموقف هو الذى جعلها تقول بكل تبجح واستهتار : ﴿ **ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين** ﴾ .

---

(١) سورة الأحزاب من الآية ٥٣ .

(٢) حديث متفق عليه . دليل الفالحين ٤ / ٤٨٠ باب تحريم الخلوة بالأجنبية

فكم نرى رجالا فقدوا كل معانى النخوة والشرف والغيرة ...
ونساء فقدن الكرامة والحياء والعفاف .. يجتمعون معا فى أوكار
آثمة لينطلقوا فى حلبة الإباحية كالخنازير فى الخسة والدنـــاءة .
وكالبهائم فى هياج الغريزة .

ومن هنا أناشد أولياء الأمور بتشديد الرقابة الداخلية
والخارجية . فالزوجات والأبناء أمانة سيسأل عنها يوم
الوقوف بين يدى الله تعالى .

شيوع الخبر فى المدينة وما ترتب على ذلك

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(٣٠)فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتْ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلا مَلَكٌ كَرِيمٌ(٣١) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ(٣٢)قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ(٣٣)فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٣٤) ﴾ .

تحدثت هذه الآيات عن ثلاث لقطات :

الأولى : شيوع الخبر فى المدينة وافتضاح امرأة العزيز لدى النسوة .

الثانية : تدبيرها المكيدة لأولئك النسوة .

الثالثة : إدخاله السجن إتباعاً لأمرها .

أولاً : شيوع الخبر فى المدينة وافتضاح أمرها :

بعد أن ذكر سبحانه تحقيق زوجها فى الحادث وحكم أحد أقاربها بما رأى ، وقد استبان منه إدانتها وبراءة يوسف ، ذكر هنا أن الخبر قد استفاض وشاع فى أرجاء المدينة ، وأخذت ألسنة النساء تلوك فى امرأة العزيز ، استهجانا ولوما لها على صنعها ، كيف تعشق سيدة عبدها ؟! وكيف تهوى وتحب خادمها .

قال تعالى ﴿ **وقال نسوة فى المدينة** ﴾ لم يذكر الله تعالى عددهــن ولا صناعتهن ؛ لأنه لا يتعلق بذلك غرض يفيد ، وقد جرت العادة بيـن النساء أن يتحدثن عن أمثال هذه الأمور فى مجالسهن الخاصة وسمرهن فى البيوت خصوصاً إذا كانت صاحبة الحادثة من نساء الطبقة المرموقة ولها منزلة سامية بين نساء العظماء ٠٠ كامرأة العزيز .

والنسوة : اسم جمع ، وليس لها واحد من لفظه بل من معناها وهو امرأة ، وتأنيثها غير حقيقى ، ولذلك لم يلحق فعلها " قال " تاء التأنيث .

والمراد بالمدينة : مدينة مصر ، والجار والمجـرور صفـة للنسـوة ، ووصفهن بذلك يقوى جانب الصدق أكثر ، فإن كلام البدويات لبعدهن عـن مظان الإجتماع والإطلاع على حقيقة أحوال الحضريـات لا يلتفـت إلـى كلامهن .

وخلاصة ما قلنه : ﴿ **امرأة العزيز تراود فتاها** ﴾ وهـذه الجملـة يقصد بها الإنكار والتعجب وذلك لوجوه :

أ ـــ إنها " امرأة العزيز " ففـى وصفـها بأنـها امـرأة العزيـز دون أن يصرحن باسمها أو اسمه زيادة فـى الإنكـار والتعجـب والتشـهير بها .

ب ـــ إن الذى تراوده عن نفسه هو فتاها وخادمها ، وتعبيرهن عنه ـــ عليه السلام ـــ مضافا إليها ـــ فتاها ـــ لا إلى العزيز لإبانة ما بينهما مـن التباين الناشئ بين الخادم والمخدوم أو المملوك والمالك ، فلم يكن بينها وبينه كفاءة . وكل ذلك مبالغة فى اللوم والذم .

ج ـــ وأنها هى التى تراود بنفسها وطلبت ، والمألوف أن المرأة تتمنـع ويُطلب منها ما لا تطلب هى ، أليس من الغريب الذى يدعو إلـى العجب أن تطلب امرأة من فتاها وخادمها ، وتدوس كبريائها .

د ـ أنها بالرغم من افتضاح أمرها وعلم زوجها ما زالت على ما هى عليه للحصول على ما ترغبه ، كما يفيد قولهن ﴿ **تـراود** ﴾ وهو فعل يدل على الإستمرار فى الطلب .

ثم أكدوا هذا الإنكار بقولهن : ﴿ قد شـــغفها حبـــا ﴾ الشـغاف : غلاف القلب ، وهو جلده دونه كالحجاب ، ويقال : بل هو غشـــاء القلـــب . وشغفه الحب : وصل إلى شغاف قلبه . **وقرأ ابن عباس : قـد شـــغفها** حبا ، قال : دخل حبه تحت الشغاف [1] .

والمعنى : قد شق حبه شغاف قلبها ، فملك عليها أمرها ، فلا تبـالى بما يكون من عاقبة تهتكها ، ولا بما يصير إليه حالها .

وحبا : تمييز محول عن الفاعل ، أى شغفها الحب أو دخل قلبـــها الحب .

ثم زادوا ذلك تأكيدا بقولهم : ﴿ إنا لنراها فى ضـــلال مبيـن ﴾ الضلال مخالفة طريق الصواب .

والمعنى : إنا لنعلم أنها غائصة ومستقرة فى مهاوى الضلالة البينـة البعيدة عن طريق الهدى والرشاد .

ثانياً : تدبيرها المكيدة لأولئك النسوة :

لما بلغ امرأة العزيز ذلك القول والمكيدة أرسلت إلى صديقاتها ، من ذوات الثراء والجاه ، ودبرت لهن مكيدة أشد من مكرهن بـــها . قـال تعالى ﴿ **فلما سمعت بمكرهن** ﴾ أى باغتيابهن وسوء مقالتهن ، وقولهن امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعانى وهو يمقتها .

---

(١) لسان العرب ٩/١٧٩.

وإنما سمى قولهن مكراً لوجوه [1] :

الأول : أن النسوة إنما ذكرت ذلك الكلام استدعاء لرؤية يوسف ـ عليه السلام ـ والنظر إلى وجهه . لأنهن عرفن أنهن إذا قلن ذلك عرضت يوسف عليهن ليتمهد عذرها عندهن .

الثانى : أن امرأة العزيز أسرت إليهن حبها ليوسف وطلبت منهن كتمان هذا السر ، فلما أظهرن السر كان ذلك غدرا ومكرا .

الثالث : أنهن وقعن فى غيبتها ، والغيبة إنما تذكر على سبيل الخفية فأشبهت المكر .

والمعنى : أنها أرسلت إلى النسوة اللائى وصفنها بأنها فى ضلال مبين ، ودعتهن إلى الحضور إليها فى دارها لتناول الطعام .

﴿ وأعتدت لهن متكئا ﴾ أى هيأت لهن مجلسا ووضعن لهن نمارق ومساند يتكئن عليها ، وقال ابن عباس وابن جبير وقتادة متكأ يعنى طعاما وإنما سمى متكأ ، لأن كل من دعوته ليطعم عندك فقد أعددت له وسائد يجلس ويتكئ عليها فسمى الطعام متكأ على الاستعارة .

ويقال : اتكأنا عند فلان أى طعمنا عنده . والمتكأ ما يتكأ عليه للطعام والشراب والحديث لذلك جاء النهى عنه فى الحديث أنه ﷺ نهى أن يأكل الرجل بشماله ، وأن يأكل متكئا [2]

---

(١) تفسير الفخر الرازى ١٨/١٢٦.

(٢) الفتوحات الإلهية ٢/ ٤٤٩ـ ٤٥٠ .

﴿ وآتت كل واحدة منهن سكيناً ﴾

وحاصل ذلك أنها دعت أولئك النسوة وأعدت لكل واحــــدة منـــهن مجلسا وآتت كل واحدة منهن سكينا لأجل أكل الفاكهة أو لأجــل قطــع اللحم ثم أمرت يوسف ــ عليه السلام ــ بأن يخرج إليهن .

﴿ وقالت أخرج عليهن ﴾ أى أمرته بالخروج عليهن .

قال الشيخ المراغى (١) : " وفى هذا إيماء إلى أنه كان فى حجـــرة داخل حجرة المائدة التى كن فيها محجوبا عنهن ، وقد تعمـــدت إتمامـــا للحيلة والمكر بهن أن يفاجئهن وهن مشغولات بما يقطعنه ويأكلنه علمـاً منها بما يكون لهذه المفاجأة من الدهشة ، وقد تم لها مـــا أرادت " كمـــا يشير إلى ذلك قوله تعالى ﴿ فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديـــهن ﴾ أى أعظمنه ودهشن برؤية ذلك الجمال الفائق الرائع .

قال الفخر الرازى (٢) : " اتفق الأكثرون على أنهن إنمـــا أكبرنـــه بحسب الجمال الفائق والحسن الكامل . قيل : كان فضل يوسف علـــى الناس فى الفضل والحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكـــب وعن النبى ﷺ قال : " مررت بيوسف ــ عليه السلام ــ ليلة عرج بـــى إلى السماء فقلت لجبريل ــ عليه السلام ــ من هذا ؟ فقال هذا يوســـف فقيل : كيف رأيته ؟ قال : كالقمر ليلة البدر " وقيل : كان يوســـف إذا سار فى أزقة مصر يرى تلألؤ وجهه على الجدران كمـــا يـــرى نـــور الشمس من السماء عليها .. وقال : وعندى أنه يحتمل وجها آخر وهو أنهن إنما أكبرنه لأنهن رأين عليه نور النبوة وسيما الرســـالة ، وآثـــار

---

(١) تفسير المراغى ١٣٩/١٢.

(٢) تفسير الفخر الرازى ١٢٧/١٨ ــ ١٢٨ .

الخضوع والاحتشام ، وشاهدن منه مهابة النبوة ، وهيئـة الملكيـة .. وكان الجمال العظيم مقرونا بتلك الهيبة والهيئة فتعجبن من تلك الحالة فلا جرم أكبرنه وعظمنه ، ووقع الرعب والمهابة منه فى قلوبهن " أ . هـ

﴿ وقطعن أيديهن ﴾ أى : وجعلن يقطعن أيديهن دهشا برؤيته وهن يظن أنهن يقطعن الطعام بالسكاكين .

﴿ وقلن حاش الله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم ﴾

﴿ حاش ﴾ : فعل ماض ، واللام فى ﴿ لله ﴾ للتعليل . والمراد بهذه الجملة التعبير عن عجيب صنع الله فى خلقه . أى : وقلن عندما شاهدن جماله ـ عليه السلام ـ تنزه الله تعالى عن صفات النقص والعجز ، ونتعجب تعجبا من قدرته تعالى على مثل ذلك الصنع البديع . وما هذا الذى نراه أمامنا بشرا وإنما هو ملك كريم من الملائكة المقربين .

قال أبو السعود [1] : " ووصفوه بذلك بناء على ما ركز فى العقول من أن لا حى أحسن من الملك ، كما رُكِّب فيها أن لا أقبح من الشيطان ، ولذلك لا يزال يشبه بهما كل متناه فى الحسن والقبح . وغرضهن وصفه بأقصى مراتب الحسن والجمال "

حينئذ قالت لهن : إذا كان الأمر ما رأيتن بأعينكن ، وما أكبرتن فى أنفسكن وما فعلتن بأيديكن ، وما قلتن بألسنتكن ﴿ **فذلكن الذى لمتننى فيه** ﴾ أى بحبه . وهنا باحت امرأة العزيز بسر عشقها ليوسف ، بعد أن أوقعتهن فى شباك غرامه .

---

(١) تفسير أبى السعود ٤/٢٧٢ .

ثم جاهرت لهن بأنها أغرته بمواقعتها ولكنه أبى ولم يستجب لندائها فقالت : ﴿ **ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ..** ﴾

قال النسفى [1] : " الإستعصام بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد كأنه فى عصمة وهو يجتهد فى الاستزادة منها وهذا بيان جلى على أن يوسف ــ عليه السلام ــ برئ مما فُسر به الهم والبرهان " أ . هـ

والمعنى : أنه ــ عليه السلام ــ امتنع عما أرادت منه . امتنع أولا بالمقال لما قال : ﴿ **معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ ثم امتنع ثانيا بالفرار .

ثم جعلت تتوعده مقسمة على ذلك وتهدده بمحضر النسوة لما فى قلبها منه من غل ، لتصميمه على عصيان أمرها فقالت : ﴿ **ولئن لم يفعل ما آمره ليسجن وليكوناً من الصاغرين** ﴾ أى : ولئن لم يفعل ما آمره به مستقبلا كما لم يفعله ماضيا ، ليسجنن ، وليكونا من الصاغرين ، أى : من الأذلة المقهورين .

وأكدت السجن بالنون الثقيلة ؛ لتحققه ، وما بعده بالنون الخفيفة لأنه غير متحقق . وقيل : لأن ذلك من توابع السجن ولوازمه فاكتفت فى تأكيده بالنون الخفيفة بعد أن أكدت الأول بالنون الثقيلة [2] .

قال الشيخ المراغى [3] : " وفى ذلك إيماء إلى أنها ستشدد العقوبة عليه أكثر مما توعدت به أولا ، فهناك أنذرته بسجن قد يكون على

---

(١) تفسير النسفى ٢/٢٢٠ .

(٢) تفسير روح المعانى ١٢/٢٣٤ .

(٣) تفسير المراغى ١٢/١٤٠ ــ ١٤١ .

أخف صوره وأقلها ، وعذاب بأهون أنواعه وألطفها كحبس في حجـــرة الدار ، أو لطمة على خديه تزيل منها الإحمرار ، وهنا أنذرته بســـجن مؤكد وذل صغار تأباه الأنفس الكريمة كنفس يوسف ــ عليه الســـلام ــ فأشق الأعمال أهون على كرام الناس من الهوان والصغار " أ . هـــ

وفي هذا التهديد ما فيه من الدلالة على ثقتها بسلطانها على زوجـــها مع علمه بأمرها واستعظامه لكيدها .

حينئذ لا سبيل إلى دفع هذا الضراء إلا بمعونة من الله فلجأ مناجيـــا لربه عز وجل مستجيرا ويقول :

﴿ **رب السجن أحب إلى مما يدعونني إليه** ﴾ أي : قال : يارب يـــا عالم بالسر والنجوى ، والقادر على كشف تلك البلوى : إن السجن الذي هُددت به أحب إلى نفسي مما يدعونني إليه ؛ لأن في السجن مشقة قليلة ولكن سيعقبه راحات كثيرة وأبدية .

قال الألوسي (١) : " وأسند الدعوة إليهن في قوله﴿ **يدعونني** ﴾ ، لأنهن زيَّن له مطاوعتها وقلن له : إياك وإلقاء نفسك في السجن والصغار .

قال أبو السعود (٢) : " وصيغة التفضيل ﴿ **أحب** ﴾ ليســـت علـــى بابها إذ ليس له عليه السلام شائبة محبة لما يدعونه إليـــه وإنمـــا هـــو والسجن شران أهونهما وأقربهما إلى الإيثار السجن " .

ثم اعترف عليه السلام بضعفه البشري ، وأنه لا قدرة له علـــى الصمود أمام هذا الإغراء ، إذا لم يكن معـــه عـــون الله تعـــالى ، وعنايته فقال :

---

(١) تفسير روح المعاني ٢٣٥/١٢ .

(٢) تفسير أبي السعود ٢٧٤/٤ .

﴿ **وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين** ﴾ .

إلا : إن لا ، فهى مركبة من " إن " الشرطية ، و " لا " النافيـــة ، وقد أضغمت فيه النون باللام .

وقوله : ﴿ **أصب** ﴾ من صبا يصبو صبوا وصبوة .

قال أبو الهيثم : صبا فلان إلى فلانة أى : مال إليها (١) . وقيـــل : صب إليـــه ـــ صبابـــة أى : رق واشـــتاق (٢) ومنـــه الصبـــا للريـــح المخصوصة لأن النفوس تميل إليها لطيب نسيمها وتستطيبها . وهو فعل مضارع مجذوم جواب الشرط .

وكأنه يقول : اللهم اصرف عنى كيدهن لأجل أن لا أصـــير مـــن الجاهلين لأنك إن لم تصرفه عنى صرت منهم إذ لا قـــدرة لـــى علـــى الامتناع إلا بإعانتك لى .

قال أبو السعود (٣) : " وهذا فزع منه عليه السلام إلـــى ألطـــاف الله تعالى جريا على سنن الأنبياء والصالحين فى قصر نيل الخيرات والنجاة عن الشرور على جناب الله ــ عز وجل ــ وسلب القـــوى والقـــدر علـــى أنفسهم ومبالغة فى استدعاء لطفه فى صرف كيدهن بإظهار أن لا طاقة له بالمدافعة كقول المستغيث أدركنى وإلا هلكـــت لا أنـــه يطلـــب الإجبـــار والإلجاء إلى العصمة والعفة وفى نفسه داعية تدعوه إلى هواهن " أ . هـ

وقوله : ﴿ **وأكن من الجاهلين** ﴾ أى الذين لا يعلمون بما يعملـــون لأن من لا جدوى لعلمه فهو والجاهل سواء ، وقد يكون المراد : أكـــن

---

(١) لسان العرب ٤٥١/١٤ .

(٢) المعجم الوجيز ص ٣٥٨ . مجمع اللغة العربية ١٤١١هـ ــ ١٩٩١ م .

(٣) تفسير أبى السعود ٢٧٤/٤ .

من السفهاء بارتكاب ما يدعونني إليه من القبائح لأن الحكيم لا يفعل القبيح .

قوله تعالى : ﴿ **فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم** ﴾ أي : تقبل الله تعالى لدعائه وأجابه ولطف به على أبلغ وجه وعصمه من الوقوع في الزنا .

وقال سبحانه ﴿ **فاستجاب** ﴾ بفاء التعقيب للإشارة إلى أنه سبحانه بفضله وكرمه ، قد أجاب دعاء يوسف عليه السلام بدون تأخير أو ابطاء ..

قال ابن كثير (١) : " وذلك أن يوسف ـ عليه السلام ـ عصمه الله عصمة عظيمة وحماه فامتنع منها أشد الامتناع واختار السجن على ذلك ، وهذا في غاية مقامات الكمال أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيدته وهي امرأة عزيز مصر ، وهي مع هذا في غاية الجمال والمال والرياسة ويمتنع من ذلك ويختار السجن على ذلك خوفا من الله ورجاء ثوابه .

ولهذا ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : " سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه " أ . هـ

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٥٩/٢ .

دخول يوسف عليه السلام السجن

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ(٣٥)وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ(٣٦)قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ(٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ(٣٨)يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ(٣٩)مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ أَمَرَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ(٤٠) ﴾

لقد كانت العدالة تقضى بأن يكرّم يوسف على نزاهته وعفته وأن تعاقب زوجة العزيز على جنايتها وما اجترحته يدها ، ولكن الأمر كان بالعكس فقد قُدم يوسف البرئ التقى الطاهر ، فدية لسمعة تلك التى استهانت بكرامتها وكرامة زوجها وأرادت أن تُلحق به عار الخيانة ، فبرئت تلك المرأة وأُدين يوسف ، وحُكم عليه بالسجن كما قال تعالى :

﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ﴾

قوله : ﴿ بدا لهم ﴾ أى : ظهر لهم ، والضمير للعزيز وأصحابه الذين يدبرون الأمر معه ويشيرون عليه .

﴿ حتى حين ﴾ : الحين وقت من الزمان غير محدود يقع على القصير منه ، وعلى الطويل ، وقال ابن عباس : يريد انقطاع المقالة . وما شاع في المدينة من الفاحشة ، ثم قيل : الحين ههنا خمس سنين ، وقيل : بل سبع سنين ... والصحيح أن هذه المقادير غير معلومة [1].

والمعنى : ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوا أنهم يسجنونه إلى حين أي إلى مدة ، وذلك بعد ما عرفوا براءته وظهرت الأدلة على صدقه وعفته ونزاهته . والآيات : هي القميص وشهادة الشاهد وقطع الأيدي .

قال الشوكاني [2] : " وسبب ظهور هذا الرأي لهم في سجن يوسف أنهم أرادوا ستر القالة ، وكتم ما شاع في الناس من قصة امرأة العزيز معه ، وقيل : إن العزيز قصد بسجنه الحيلولة بينه وبين امرأته لما علم أنها قد صارت بمكان من حبه لا تبالي معه بحمل نفسها عليه على أي صفة كانت " أ . هـ

واللام في قوله ﴿ ليسجننه ﴾ جواب لقسم محذوف على تقدير القول أي : ظهر لهم من بعد ما رأوا الآيات قائلين ، والله ليسجننه حتى حين .

وفي تنفيذ هذا العزم دلالة على ما كان لهذه المرأة الماكرة من سلطان على زوجها تقوده كيف شاءت ، حتى فقد الغيرة عليها ، فهو يجري وراء هواها ، ويستجلب رضاها ، حتى أنساه ذلك ما رأى من الآيات وعمل برأيها في سجنه لإلحاق الهوان والصغار به .

---

(١) تفسير الفخر الرازي ١٨/١٣٣ .

(٢) فتح القدير ٣/٢٥ .

روى أنه لما امتنع يوسف من المعصية ، ويئست منه امرأة العزيز قالت لزوجها : إن هذا الغلام العبرانى قد فضحنى فى النـــاس ، وهـــو يعتذر إليهم ويصف الأمر بحسب اختياره ، وأنا محبوسة محجوبة ، فإما أذنت لى فخرجت إلى الناس فاعتذرت وكذبته ، وإلا حبسته كمـــا أنـــا محبوسة ، فحينئذ بدا لهم سجنه .

قال ابن عباس : فأمر به فحمل على حمار ، وضـــرب بـــالطبل ، ونودى عليه فى أسواق مصر أن يوسف العبرانى أراد ســيدته ، فـــهذا جزاؤه أن يسجن . قال أبو صالح : ما ذكر ابن عباس هذا إلا بكى " [1] .

وكان هذا مما قدر الله له ، لأن فى السجن مصلحة له ، ومن جملـة ما عصمه به ، فإنه أبعد له عن معاشرتهم ومخالطتهم .

ثم بين سبحانه جانبا من أحواله ــ عليه السلام ــ بعد أن دخـــل السجن فقال تعالى :

﴿ ودخل معه السجن فتيان ... ﴾

الفتيان : تثنية فتى ، وهو من جاوز الحُلُم ودخل فى سن الشباب .

وفى الكلام حذف تقديره : فسجنوه ، فدخل معه السجن فتيان .

قال ابن كثير [2] : " قال قتادة : كان أحدهما ساقى الملك والآخـــر خبازه " .

وقال القرطبى [3] : " وقد قيل إن الخباز وضع السم فى الطعـــام ، فلما حضر الطعام قال الساقى : أيها الملك لا تأكل فإن الطعام مسموم .

---

(١) البحر المحيط لأبى حيان ٢٧٤/٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤٥٩/٢ .

(٣) تفسير القرطبى ١٢٤/٩ .

وقال الخباز : أيها الملك لا تشرب فإن الشراب مسموم ، فقال الملك للساقى : اشرب ! فشرب فلم يضره ، وقال للخباز : كل ، فأبى ، فجرب الطعام على حيوان فنفق مكانه ، فحبسهما سنة ، وبقيا فى السجن تلك المدة مع يوسف " أ . هـ

وقوله ﴿ **ودخل معه** ... ﴾ أى : أدخلا السجن ساعة دخول يوسف لأن " مع " يدل على معنى الصحبة ، تقول : خرجت مع الأمير تريد مصاحبا له فيجب أن يكون دخولهما السجن مصاحبين له .

﴿ **قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمرا** ﴾ أى : قال صاحب شراب الملك : إنى رأيت فى المنام أنى أعصر خمرا ، أى : عنبا ليكون خمرا ؛ إذ الخمر لا يعصر ، ولكن سماه بما يؤول إليه .

﴿ **وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه** ﴾ أى : وقال الآخر وهو الخباز : رأيت أنى أحمل على رأسى سلالا بها خبز والطير تأكل من أعلاه .

﴿ **نبئنا بتأويله** ﴾

أخرج الطبرى [1] عن السدى قال : لما دخل يوسف السجن قال أنا أعبر الأحلام فقال أحد الفتيين لصاحبه هلم نجرب هذا العبد العبرانى نترأى له فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيأ "

وقال ابن عباس ومجاهد : " كانت رؤيا صدق رأياها وسألاه عنها ولذلك صدق تأويلها " [2] .

---

(1) تفسير الطبرى ١٢/١٢٧.

(2) تفسير القرطبى ٩/١٢٥ .

وقال الطبرى [1] : " وقال قوم إنما سأله الفتيان عن رؤيا كانا رأياها على صحة وحقيقة وعلى تصديق منهما ليوسف لعلمه بتعبيرها " .

فمن خلال الروايتين السابقتين يتبين لنا كذبهما فى الرواية الأولى وصدقها فى الثانية .

وقد اشتد الوعيد فى الكذب فى المنام مع أن الكذب فى اليقظة قد يكون أشد مفسدة منه ، إذ قد يكون شهادة فى قتل أو حد أو أخذ مال ، لأن الكذب فى المنام كذب على الله أنه أراه مالم يره . والكذب على الله أشد من الكذب على المخلوقين [2]

أخرج البخارى [3] **عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ قال : من تحلم بحلم لم يره كلف أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل .. "**

قال القرطبى [4] : " قال علماؤنا : إن قيل : من كذب فى رؤياه ففسرها العابر له أيلزمه حكمها ؟ قلنا : لا يلزمه ، وإنما كان ذلك فى يوسف لأنه نبى ، وتعبير النبى حكم ، وقد قال : إنه يكون كذا وكذا فأوجد الله تعالى ما أخبر كما قال تحقيقا لنبوته ؛ فإن قيل : فقد روى عبد الرازق عن معمر عن قتادة قال : جاء رجل إلى عمر بن الخطلب فقال : إنى رأيت كأنى أعشبت ثم أجدبت ثم أعشبت ثم أجدبت ، فقال له عمر : أنت رجل تؤمن ثم تكفر ، ثم تؤمن ثم تكفر ثم تموت كافرا ، فقال

---

(١) تفسير الطبرى ١٢٧/١٢ .

(٢) الرؤيا فى الكتاب والسنة للدكتور الحسينى أبو فرحة ص ١٩ .

(٣) فى صحيحه . كتاب الرؤيا . باب من كذب فى حلمه ٨٧/١٦ من الفتح .

(٤) تفسير القرطبى ١٢٧/٩ .

الرجل: ما رأيت شيئا ؛ فقال له عمر : قد قضى لك ما قضى لصاحب يوسف ؛ قلنا : ليست لأحد بعد عمر ، لأن عمر كان مُحَدَّثاً ، وكان إذا ظن ظناً كان . وإذا تكلم به وقع ، على ما ورد فى أخباره ، وهى كثيرة ، منها : أنه دخل عليه رجل فقال له : أظنك كاهنا فكان كما ظن ، أخرجه البخارى . ومنها : أنه سأل رجلا عن اسمه فقال له فيه أسماء النار كلها ، فقال له : أدرك أهلك فقد احترقوا ، فكان كما قال : خرجه الموطأ " أ .هـ

فإن كان الفتيان صادقين أو كاذبين فالله أعلم بهما ، وقد أراد سبحانه أن تكون النتيجة كما فسرها يوسف ــ عليه السلام ــ ، وكل هذا كان إرهاصات ومعجزات له ــ عليه السلام ــ .

قوله : ﴿ **إنا نراك من المحسنين** ﴾ يعنى من العالمين بعبارة الرؤيا . والإحسان هنا بمعنى العلم . " وسئل الضحاك ، ما كان إحسانه ؟ فقال : كان إذا مرض إنسان فى الحبس عاده وقام عليه ، وإذا ضيق على أحد وسع عليه ، وإذا احتاج أحد جمع له شيئا وكان مع هذا يجتهد فى العبادة ويصوم النهار ويقوم الليل كله للصلاة " [1] .

وأخرج ابن جرير الطبرى [2] عن قتادة قوله ﴿ **إنا نراك من المحسنين** ﴾ قال : بلغنا أن احسانه أنه كان يداوى مريضهم ويعزى حزينهم ويجتهد لربه وقال : لما انتهى يوسف إلى السجن وجد فيه قوما قد انقطع رجاؤهم واشتد بلاؤهم فطال حزنهم فجعل يقول : أبشروا

---

(١) الفتوحات الإلهية ٤٥٢/٢ .

(٢) تفسير الطبرى ١٢٨/١٢ .

واصبروا تؤجروا إن لهذا أجرا إن لهذا ثوابا ، فقالوا : يافتى بـارك الله فيك ما أحسن وجهك وأحسن خلقك لقد بورك لنا فى جوارك ما نحـب ، إنا كنا فى غير هذا منذ حبسنا ... فمن أنت يافتى ؟ قال أنا : يوسـف بن صفى الله يعقوب بن ذبيح الله اسحاق [1] بن ابراهيم " .

وقد استأنس به ـ عليه السلام ـ أهل السجن ؛ فكـان إذا خـرج الرجل من السجن رجع حتى يجلس فى السجن مع يوسـف ، وأحبـه صاحب السجن فوسع عليه فيه ؛ ثم قال له : يا يوسف ! لقد أحببتك حبا لم أحب شيئا مثل حبك ؛ فقال : أعوذ بالله من حبك ، قال : ولم ذلك ؟ فقال : أحبنى أبى ففعل بى إخوتى ما فعلوه ، وأحبتنى سيدتى فنزل بـى ما ترى [2] .

انتهز يوسف ـ عليه السلام ـ هذه الفرصة ليعلـن لـهم دينـه ويدعوهم إلى عبادة الله وحده وقام فيهم خطيباً ينبئهم بمقدرته على تأويل الرؤيا .

يقول الدكتور / سيد طنطاوى : " وهذا شأن المصلحيـن العقـلاء المخلصين لعقيدتهم الغيورين على نشرها بين الناس ، إنـهم يسـوقون

---

(١)الصواب أن الذبيح هو اسماعيل ـ عليه السلام ـ وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال : " أنا ابن الذبيحين " ورد ذلك فى سيرة ابن هشام . فالذبيح الأول هـو اسماعيل ـ عليه السلام ـ والثانى هو والده عبد الله . ومـن أراد الاسـتزادة فليرجع إلى كتابنا إعداد الرسول ﷺ لتحمل الرسالة فى القرآن الكريم والسـنة النبوية الشريفة .

(٢) تفسير القرطبى ١٢٤/٩ .

لغيرهم من الكلام الحكيم ما يجعل هذا الغير يثق بهم ، ويقبل عليهم ، ويستجيب لهم " [١] .

وهذا ما كان من يوسف — عليه السلام — ، فقد بدأ فى رده عليهما بقوله :

﴿ **قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما** .. ﴾ أى : لا يأتيكما طعام من أى مكان ترزقانه يعنى تطعمانه وتأكلانه إلا أخبرتكما بقدره ولونه ومن أين أتى . والوقت الذى يصل إليكما فيه .. كل ذلك قبل أن يصل إليكما .

وفى ذلك إيماء إلى أنه أوتى علم الغيب ، وهذا يجرى مجرى قول عيسى — عليه السلام — : ﴿ **وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم** ﴾ [٢] .

لقد أعرض يوسف — عليه السلام — عن الإجابة على سؤالهما حين سألاه وأخذ فى الحديث عن إظهار المعجزة على يديه والدعاء والتوحيد ؛ لعدة أسباب ذكرها الخازن فقال : " لما علم ما فى ذلك من المكروه لأحدهما فأعرض عن سؤالهما وأخذ فى غيره من إظهار المعجزة والنبوة .. وقيل : إنه — عليه السلام — أراد أن يبين لهما أن درجته فى العلم أعلى وأعظم مما اعتقدا فيه وذلك أنهما طلبا منه علم التعبير ولا شك أن هذا مبنى على الظن والتخمين فأراد أن يعلمهما أنه يمكنه الإخبار عن المغيبات على سبيل القطع واليقين ، وذلك مما يعجز

---

(١) التفسير الوسيط المجلد السابع ص ٣٦٠ .

(٢) سورة آل عمران من الآية ٤٩ .

الخلق عنه وإذا قدر على الإخبار عن الغيوب كان أقدر علـــى تعبــير الرؤيا بطريق الأولى .

وقيل : إنما عدل عن تعبير رؤياهم إلى إظهار المعجزة لأنه علم أن أحدهما سيصلب فأراد أن يدخله فى الإسلام ويخلصه من الكفر ودخـول النار ، فأظهر له المعجزة لهذا السبب " [1] أ . هـ

ثم أخبرهما ــ عليه السلام ــ بأن علمه ذلك ليس من علوم الكهنة والمنجمين ، بل هو فضل إلهى يؤتيه من يشاء فقال :

﴿ ذلكما مما علمنى ربى ﴾

قال الألوسى [2] : " ويروى أنهما قالا له : من أين لك ما تدعيه من العلم وأنك لست بكاهن ولا منجم ؟ ! وقيل : قالا إن هذا كهانة أو تنجيـــم ، فقال : أى ذلك التأويل والكشف عن المغيبات **﴿ مما علمنى ربـــى ﴾** بالوحى أو بنحو ذلك مما يحصل به العلم كما يكون للأولياء أهـــل الكشف رضى الله تعالى عنهم ... والمراد أن ذلك بعـــض ممـــا علمنيه الله تعالى " أ . هـ .

والإشارة فى " ذلكما " إلى التأويل والإخبار عن المغيبات ، ومعنـى البعد فى ذلك ، الإشارة إلى علو درجته وبعد منزلته .

قال الشيخ المراغى [3] : " ومن هذا يعلم أن وحى الرسالة جـــاءه وهو فى السجن ، وبذلك تحقق قوله : **﴿ رب السجن أحب إلـــى ممـــا يدعوننى إليه ﴾** كما أن وحى الإلهام جاءه حين إلقاءه فى غيابة الجـب

---

(١) تفسير الخازن ٢/٢٨٣ .

(٢) تفسير روح المعانى ١٢/٢٤١ .

(٣) تفسير المراغى ١٢/١٤٦ .

.. وكأنه سبحانه جعل فى كل محنة منحة ، وفى كل ما ظــاهره أنــه بلاء نعمة " .

ثم بين – عليه السلام – أن نيل تلك الكرامة بسبب اتباعــه ملــة أباءه الأنبياء العظام وامتناعه عن الشرك فقال :

﴿ إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ﴾

الترك : عبارة عن عدم التلبس بالشئ من أول الأمر وعدم الإلتفات إليه بالكلية [1] .

والقوم : هنا الكنعانيون ، والمصريون الذين هو بينهم فقــد كــانوا يعبدون آلهة منها الشمس ويسمونها " رع " ومنـــها عجلـــهم " أبيــس " وغيرهما .

قال أبو حيان [2] : " والظـــاهر أن قولــه ﴿ إنــى تركــت .. ﴾ استئناف إخبار بما هو عليه ، إذ كانا قد أحباه وكلفا بحبه وبحســـن أخلاقه ، ليعلمهما ما هو عليه من مخالفة قومهما فيتبعاه . وفى الحديــث : " لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم " [3] .

ويجوز أن يكون ﴿ إنى تركت ... ﴾ تعليلا لما قبله أى : علمنى ذلك ، وأوحى إلى لأنى رفضت ملة أولئك ، واتبعت ملة الأنبياء وهـــى الملة الحنيفية " أ .هـ

---

(١) الفتوحات الإلهية ٢/٤٥٣ .

(٢) البحر المحيط ٦/٢٧٧ .

(٣) أخرجه البخارى . كتاب فضائل الصحابة . باب مناقب على بن أبى طــالب ٨ / ٧٢ من الفتح .

وقال الفخر الرازى [1] : " لقائل أن يقول : فى قوله : ﴿ **إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله** ﴾ توهم أنه ـ عليه السلام ـ كان فى هذه الملة . فنقول جوابه من وجوه :

الأول : أن الترك عبارة عن عدم التعرض للشئ وليس من شرطه أن يكون قد كان خائضا فيه .

والثانى : وهو الأصح أن يقال إنه ـ عليه السلام ـ كان عبدا لهم بحسب زعمهم واعتقادهم الفاسد ، ولعله قبل ذلك كان لا يظهر التوحيد والإيمان خوفاً منهم على سبيل التقية ، ثم إنه أظهره فى هذا الوقت ، فكان هذا جاريا مجرى ترك ملة أولئك الكفرة بحسب الظاهر .

وقوله تعالى : ﴿ **لا يؤمنون بالله** ﴾

قال أبو السعود [2] : " والتعبير عن كفرهم بالله تعالى بسلب الإيمان به للتنصيص على أن عبادتهم له تعالى مع عبادة الأوثان ليست بإيمان به تعالى كما هو زعمهم الباطل .. "

قوله ﴿ **وهم بالآخرة هم كافرون** ﴾

وعن سر تكرار لفظ " هم " فى الجملة السابقة :

قال الزمخشرى [3] : " للدلالة على أنهم خصوصا كافرون بالآخرة ، وأن غيرهم كانوا قوما مؤمنين بها وهم الذين على ملة إبراهيم .

---

(١) تفسير الفخر للرازى ١٨/١٣٧ .

(٢) تفسير أبى السعود ٤/٢٧٧.

(٣) تفسير الزمخشرى ٢/٢٥٦ .

ولتوكيد كفرهم بالجزاء تنبيها على ما هم عليه من الظلم والكبائر التى لا يرتكبها إلا من هو كافر بدار الجزاء .

ويجوز أن يكون فيه تعريض بما منى به من جهتهم حين أودعوه السجن بعد ما رأوا الآيات الشاهدة على براءته وأن ذلك ما لا يقدم عليه إلا من هو شديد الكفر بالجزاء " أ . هـ

ولما كان تركه لملة هؤلاء القوم ، يقتضى دخوله فى ملة قوم آخرين فقال :

﴿ واتبعت ملة آبائى إبراهيم واسحاق ويعقوب ﴾

بعد أن عرفهما أنه نبى يوحى إليه بما ذكر من إخباره بالغيوب ، ذكر آبائه ليريهما أنه من بيت النبوة ؛ ليقوى رغبتهما فى الاستماع إليه واتباع قوله .

وسماهم آباء جميعا ، لأن الأجداد آباء ، وقدم الجد الأعلى ثم الجد الأقرب ثم الأب ، لكون ابراهيم هو أصل تلك الملة التى اتبعها ، ثم تلقاها عنه اسحاق ، ثم تلقاها عن اسحاق يعقوب عليهم السلام .

ثم بين أساس الملة التى ورثها عن أولئك الآباء الكرام فكانت يقينا له بقوله :

﴿ ما كان لنا أن نشرك بالله من شئ ﴾ تنزه عن الشرك بأبلغ وجه .

أى : ما صح وما استقام لنا معاشر الأنبياء أن نشرك بالله شيئا من الإشراك ، قليلا ذلك الشئ أو حقيرا .

وقوله : ﴿ من شئ ﴾ تفيد أن أصناف الشرك كثيرة ، فمنهم من يعبد الأصنام ، ومنهم من يعبد النار ، ومنهم من يعبد الكواكب ، ومنهم

من يعبد الحيوانات .. فقوله : ﴿ **ما كان لنا أن نشرك بالله من شئ** ﴾ رد على كل هؤلاء الطوائف والفرق ، وإرشاد إلى الدين الحق ، وهو أنه لا موجد إلا الله ولا خالق إلا الله ولا رازق إلا الله [1] .

وقوله : ﴿ **وذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون** ﴾

﴿ **ذلك** ﴾ : اسم إشارة يعود إلى التوحيد والإيمان بالله وعدم الإشراك به

﴿ **من فضل الله علينا** ﴾ أى بالوحى ﴿ **وعلى الناس** ﴾ أى : وعلى سائر الناس ببعثنا لإرشادهم وتثبيتهم عليه ولكن أكثر الناس المبعوث إليهم لا يشكرون هذا الفضل ، فيعرضون عنه ولا ينتبهون . أو من فضل الله علينا وعليهم بنصب الدلائل وإنزال الآيات ولكن أكثرهم لا ينظرون ولا يستدلون بها فيلغونها كمن يكفر النعمة ولا يشكرها [2] .

الدعوة إلى عبادة الله تعالى :

بعد أن أبطل يوسف ــ عليه السلام ــ ما هما عليه من الشرك فيما سلف شرع يدعوهم إلى التوحيد الخالص وأيده بالبرهان الذى لا يجد العقل محيصا من التسليم به والإقرار بصحته كما حكى القرآن عنه :

﴿ **ياصاحبى السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار** ﴾

---

(١) تفسير الفخر الرازى ١٣٨/١٨ .

(٢) تفسير البيضاوى ص ٣١٥ .

﴿ **يا صاحبى السجن** ﴾ أى : ياصاحبى فى السجن ، وناداهما بعنوان الصحبة فى هذه الدار التى هى دار الأشجان وموضع الأحزان ، وفيها تصفو المودة وتخلص النصيحة ، ليقبلا على استماع ما يلقى إليهما به ، فالقلوب قد انصرفت عن الدنيا ولذاتها .

وقوله ﴿ **أأرباب متفرقون خير أم الله** ﴾ استفهام انكارى مع التقريع والتوبيخ .

ومعنى ذلك : أن الله تعالى بين أن كثرة الآلهة توجب الخلل والفساد فى هذا العالم وهو قوله : ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا** ﴾ [1] فكثرة الآلهة توجب الفساد والخلل ، وكون الإله واحدا يقتضى حصول النظام وحسن الترتيب فلما قرر هذا المعنى فى سائر الآيات . قال : ههنا ﴿ **أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار** ﴾ .

ولكن .. لِمَ سماها أربابا وليست كذلك ؟

أجاب الفخر الرازى [2] **قائلا** : " لاعتقادهم فيها أنها كذلك ، وأيضا الكلام خرج على سبيل الفرض والتقدير : والمعنى أنها إن كانت أربابا فهى خير أم الله الواحد القهار ؟ "

ومعنى التفرق هنا هو التفرق فى الذوات والصفات والعدد : أى هل الأرباب المتفرقون فى ذواتهم المختلفون فى صفاتهم

---

(١) سورة الأنبياء من الآية ٢٢ .

(٢) تفسير الفخر الرازى ١٤١/١٨ .

المتنافون فى عددهم خير لكما يا صاحبى السجن ، أم الله المعبـود بحـق المتفرد فى ذاته وصفاته الذى لا ضد له ولا ند ولا شريك و"القهار" لكل مـن غالبه أو نازعه .

ولا شك أن الجواب الذى لا يختلف فيه عـاقلان ، أن عبـادة الله تعالى الواحد القهار هى العبادة الصحيحه التى توافق الفطـرة السـليمة والعقول القويمة .

أورد يوسف ــ عليه السلام ــ على صاحبى السجن هذه الحجة القـاهرة على طريق الإستفهام ، لأنهما كانا ممن يعبد الأصنام ؛ وقد قيل إنه كان بين أيديهما أصنام يعبدونها عندما خاطبهما بهذا الخطاب [1] ولهذا انتقل يوسـف ــ عليه السلام ــ إلى تفنيد عقائد الجاهلية وأوهامها الواهية فقال :

﴿ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنـزل الله بها من سلطان ﴾

قوله : **﴿ ما تعبدون ﴾** الخطاب لهما ــ صاحبى السجن ــ ومـن كان على دينهم .

﴿ الأسماء ﴾ أى : إلا أسماء فارغة سميتموها ولا مسميات لـها وإن كنتم تزعمون أن لها مسميات .

﴿ سميتموها ﴾ المفعول الثانى محذوف ، والتقديـر : سـميتموها آلهة أنتم وآباؤكم .

وقوله **﴿ وآباؤكم ﴾** لقطع عذرهم ، حتى لا يقولوا : إنـا وجدنـا آباءنا كذلك يفعلون ، فكأنه تعالى يقول لهم : إن آباءكم كانوا أشد منكـم جهلا وضلالا ، فلا يصح لكم أن تقتدوا بهم .

---

(١) فتح القدير للشوكانى ٢٧/٣.

والمراد بالسلطان فى قوله تعالى : ﴿ **ما أنزل الله بها من سلطان** ﴾ الحجة والبرهان أى : ما أنزل الله حجة وبرهانا على أحد من رسله بتسميتها أربابا وبصحتها ، حتى يقال إنكم تتبعونها .

وقوله ﴿ **إن الحكم إلا الله** ﴾ أى : ما الحكم الحق فى الربوبية والعبادات والمعاملات إلا لله وحده يوحيه لمن اصطفاه من رسله ولا يمكن لبشر أن يحكم فيه بهواه ورأيه .

ثم انتقل إلى ما حكم به الله وهو الإخلاص فى العبادة له وحده فقال :

﴿ **أمر ألا تعبدوا إلا إياه** ﴾ أى : أمر ألا تعبدوا غيره ولا تدعوا سواه ، فهو الإله الواجب الوجود الواحد المعبود ، فادعوه واعبدوه وحده دون سواه .

ثم ختم سبحانه الآية بقوله :

﴿ **ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ أى : هذا الذى أدعوكم إليه من توحيد الله وإخلاص العمل له ، هو الدين المستقيم الذى أمر الله به ، وأنزل به الحجة والبرهان الذى يحبه ويرضاه ، ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ أن ذلك هو الدين القويم ، وصراطه المستقيم لجهلهم وبعدهم عن الحقائق .

****

تأويل يوسف لرؤيا صاحبيه

قال تعالى : ﴿ يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ(٤١)وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ(٤٢) ﴾

بعد أن عرَّف يوسف صاحبيه فى السجن بنفسه ، وأقام لهما الأدلة على أن عبادة الله تعالى وحده هى الدين الحق ودعاهما إلى الدخول فيه ، بعد كل ذلك شرع فى تأويل رؤياهما ليزيدهما ثقة فى قوله .

قوله : ﴿ أما أحدكما ﴾ أى الذى رأى أنه يعصر خمرا ، وهو ساقى الملك .

قال أبو السعود [1] : " وإنما لم يعينه ، ثقة بدلالة التعبير ، وتوسلا بذلك إلى إبهام أمر صاحبه حذار مشافهته بما يسوءه "

قوله ﴿ فيسقى ربه خمرا ﴾ أى : يسقى سيده ومالكه خمرا .

﴿ وأما الآخر ﴾ أى : الذى رأى أنه يحمل خبزا تأكل الطير منه ، وهو خباز الملك وصاحب طعامه .

﴿ فيصلب ﴾ أى : فيقتل ثم يصلب ﴿ فتأكل الطير من رأسه ﴾ بعد موته .

---

(١) تفسير أبى السعود ٤ /٢٧٩ .

ثم قال : ﴿ **قضى الأمر** ﴾ أى : أحكم الأمـــر . ﴿ **الـذى فيـه تستفتيان** ﴾ ومعنى الاستفتاء : السؤال عن المشـــكل المجـهول ، والفتوى : جوابه .

والمعنى : لا تناقشا ! إن الأمر الـــذى يـهمكما ويشـكل عليكمـا وتستفتيانى فيه قد بُتَّ فيه وانتهى حكمه .

وقال الدكتور / محمد حجازى [1] : " وهذا خارج عن تأويل الرؤيـا ولكنه من باب المكاشفة وصفاء الأرواح ، لعله إخبارِ ووحى ليوسف "

ثم ختم يوسف ــ عليه السلام ــ حديثه مع صاحبيه بأن أوصـــى ساقى الملك بوصية حكاها القرآن فى قوله تعالى : ﴿ **وقال للذى ظـن أنه ناج منها أذكرنى عند ربك ..** ﴾

قوله ﴿ **للذى ظن أنه ناج** ﴾ وهو الذى أول له رؤياه بأنه يســقى ربه خمراً وتأويلها يدل على نجاته .

المراد بالظن :

قال الشوكانى [2] : " المراد بالظن العلم ؛ لأنه ــ عليه السلام ــ قـد علم من الرؤيا نجاة الشرابى (الساقى) وهلاك الخباز ، هكذا قال جمـــهور المفسرين . وقيل الظاهر على معناه ، لأن عابر الرؤيا إنما يظن ظنا "

وقال الدكتور / محمد حجازى [3] : " أى ظن فى الواقع لأنه ربمـا يغير الملك رأيه الذى قال . أو تأتى حوائل تحول بين تحقيق مـا قالـه يوسف "

---

(١) التفسير الواضح ١٧٩/١٢ .

(٢) فتح القدير ٢٨/٣ .

(٣) التفسير الواضح ١٧٩/١٢ .

وقال الشيخ المراغى [1] : " وقد يكون هذا بناء على وحى فيكون الظن بمعنى اليقين وهو كثير فى القرآن الكريم كما قال : ﴿ **الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم** ﴾ [2] وقال : ﴿ **إنى ظننت أنى ملاق حسابيه** ﴾ [3] .

وأرى أن أصح الأقوال هو تفسير الظن هنا بالعلم اليقينى ؛ فهو الأنسب بحال الأنبياء . ولا سيما أن يوسف ــ عليه السلام ــ قد أخبرهما بأن الله تعالى قد أطلعه على شئ من علم الغيب كما فى قوله ﴿ **لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمنى ربى** ﴾ ، **والله أعلم** .

قوله : ﴿ **اذكرنى عند ربك** ﴾ أى : بعد أن تخرج من السجن وتعود إلى عملك عند سيدك الملك حدثه بما رأيت منى وما سمعت وعلمت من أمرى ، عله ينصفنى ممن ظلمنى ويخرجنى من ضائقة السجن .

ويقصد يوسف أن يطرق الأبواب الظاهرية والأسباب المادية ليخرج من السجن . وفى هذا دليل على جواز السعى فى الأخذ بالأسباب ، ولا ينافى ذلك التوكل على رب الأرباب .

وقال أبو السعود [4] : " الإستعانة بالعباد وإن كانت مرخصة لكن اللائق بمناصب الأنبياء عليهم السلام الأخذ بالعزائم .

---

(١) تفسير المراغى ١٢/١٥١ــ١٥٢ .

(٢) سورة البقرة من الآية ٤٦ .

(٣) سورة الحاقة الآية ٢٠ .

(٤) تفسير أبى السعود ٤/٢٨٠ .

وقال الفخر الرازى [1] : " واعلم أن الإستعانة بالناس فى دفع الظلم جائزة فى الشريعة ، إلا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين فـــهذا وإن كان جائزا لعامة الخلق إلا أن الأولى بالصديقين أن يقطعوا نظرهم عن الأسباب بالكلية وأن لا يشتغلوا إلا بمسبب الأسباب " أ . هـ

ولكن الساقى بعد أن خرج من السجن وعاد إلى عمله عند الملك لم ينفذ الوصية ؛ لأن الشيطان أنساه ما وصاه به يوسف ــ عليه السلام ــ فترتب على هذا أن لبث فى السجن مظلوما بضع سنين .

وهذه مشيئة الله تعالى ، ليعلمه كيف يقطع الأسباب كلها ويستمســك بسببه وحده ، فلم يجعل قضاء حاجته على يد عبد . وكــان هــذا مــن اصطفائه وإكرامه .

قال تعالى : ﴿ **فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى الســجن بضــع سنين** ﴾ .

البضع : بالكسر من ثلاث إلى تسع .

وقد اختلفوا فى المدة التى قضاها يوســف فــى الســجن وأكــثر الأقاويل إنه لبث فيه سبع سنين ، وروى عن النبى ﷺ قال : رحــم الله أخى يوسف لو لم يقل اذكرنى عند ربك لما لبث فى السجن سبعا بعــد الخمس [2] .

هكذا فقد قص علينا القرآن الكريم جانبا من حياة يوسف ــ عليــه السلام ــ فى السجن فماذا كان بعد ذلك ؟

****

---

(١) تفسير الفخر الرازى ١٨/١٤٤ــ١٤٥.

(٢) تفسير أبى السعود ٤/٢٨٠ .

تأويل يوسف لرؤيا ملك مصر
ودعوته للإلتقاء به

قال الله تعالى ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ(٤٣)قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ(٤٤)وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِي(٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ(٤٦)قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلا قَلِيلا مِمَّا تَأْكُلُونَ(٤٧)ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلا قَلِيلا مِمَّا تُحْصِنُونَ(٤٨)ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ(٤٩) وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ(٥٠)قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنْ الصَّادِقِينَ(٥١)ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ(٥٢) ﴾

إذا أراد الله أمرا هيأ له أسبابه ، فكان من أسباب خروج يوسف ــ عليه السلام ــ من السجن معززا مكرما ، رؤيا رآها الملك فى منامه قال تعالى :

﴿ وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف .. ﴾

قال ابن كثير [1] : " وذلك أن ملك مصر ، وهو الريان بن الوليد ... رأى هذه الرؤيا . قال أهل الكتاب : رأى كأنه على حافة نهر ، وكأنه قد خرج منه سبع بقرات سمان ، فجعلن يرتعن فى روضة هناك ، فخرجت سبع بقرات هزال ضعاف من ذلك النهر ، فرتعن معهن ثم ملن عليهم فأكلتهن ، فاستيقظ مذعورا ، ثم نام فرأى سبع سنبلات خضر فى قصبة واحدة ، وإذا سبع أخر دقائق يابسات فأكلتهن ، فاستيقظ مذعورا . فلما قصها على ملئه وقومه لم يكن فيهم من يحسن تعبيرها " أ. هـ

وقوله : ﴿ **عجاف** ﴾ جمع عجفاء والعجف بفتح العين والجيم : ذهاب السمن ، والهزال : أى : هزلى لا لحم عليها ولا شحم ضُربت مثلا لسبع سنين لا قَطْر فيها ولا خِصب [2] .

أى : وقال ملك مصر فى ذلك الوقت لوزرائه وحاشيته وعلمائه : إنى رأيت ﴿ **سبع بقرات سمان** ﴾ قد امتلأت شحما ولحما ﴿ **يأكلهن سبع عجاف** ﴾ أى : يأكل هذه السبع السمان ، سبع بقرات أخر عجاف هزيلات .

ورأيت أيضا ــ فيما يرى النائم ﴿ **سبع سنبلات خضر** ﴾ قد امتلأت حبا ، ورأيت سبع سنبلات ﴿ أخر يابسات ﴾ قد ذهبت نضارتها ، مهيأة للقطوف والحصاد ، ومع هذا فقد التوت اليابسات على الخضر حتى غلبتها ولم تبق من خضرتها شئ .

لقد قلق الملك وانزعج ، بسبب تلك الرؤيا ، لأنه شاهد أن الناقص الضعيف الهزيل استولى على الكامل القوى ، فبفطرته رأى أن هذا ليس

---

(١) قصص الأنبياء ص ٢٢٦ .

(٢) لسان العرب ٢٣٤/٩ .

بخير ، وأنه منذر بنوع من أنواع الشر ، فطلب تفسير وتأويل تلك الرؤيا المزعجة ، فقال :

﴿ **أيها الملأ** ﴾ أى : الأشراف والعلماء والكهان من قومى .

﴿ **أفتونى فى رؤياى** ﴾ أى : فسروها لى ، وبينوا حكمها وما تؤول إليه .

﴿ **إن كنتم للرؤيا تعبرون** ﴾ أى : إن كنتم تعرفون تفسيرها وتبينون المعنى الحقيقى المراد من هذه الرموز والخيالات .

و ﴿ **تعبرون** ﴾ من العبر . يقال : فلان فى ذلك العبر . أى : فى ذلك الجانب ، وعبرت النهر والطريق أعبره عبرا وعبورا إذا قطعته من هذا العبر إلى ذلك العبر ، فقيل لعابر الرؤيا : عابر ، لأنه يتأمل ناحيتى الرؤيا فيتفكر فى أطرافها ، ويتدبر كل شئ منها ويمضى بفكره فيها من أول ما رأى النائم إلى آخر ما رأى [1]

ومن البلاغة والفوائد التى وردت فى هذه الآية :

١ ــ التعبير ب (الملك) **قال بعض العلماء** : والتعريف فى (الملك) للعهد ، أى ملك مصر ، وسماه القرآن هنا ملكا ولم يسمه فرعون ، لأن هذا الملك لم يكن من الفراعنة ملوك مصر المصريين ، وإنما كان ملكا لمصر أيام أن حكمها " الهكسوس " وهم العمالقة الذين ملكوا مصر من ١٩٠٠ قبل الميلاد إلى سنة ١٥٢٥ ق . م

---

(١) المرجع السابق ٤/٥٣٠ .

فالتعبير عنه بالملك هنا ، دون التعبير عنه بفرعون مع أنه عبر عن ملك مصر فى زمن موسى بفرعون ، يعتبر من دقائق إعجاز القرآن [1]

٢ ــ قوله ﴿ **إنى أرى** ﴾ أى : إنى رأيت بالماضى ، وكذلك قوله ﴿ **يأكلهن** ﴾ أى : أكلن بالماضى ، ولكنه عبر بالمضارع حكاية حال استحضارا لصورة الرؤيا حتى لكأنها ماثلة أمامه .

٣ ــ أوقع سبحانه قوله : ﴿ **سمان** ﴾ صفة للمميَّز وهو بقرات دون المميَّز وهو سبع والفرق بين الأمرين وكلاهما جائز فى قواعد النحو ، أنك لو أوقعتها صفة لبقرات فقد أردت أن تميز السبع بنوع من البقرات وهى السمان منهن خاصة لا بجنسهن ولو أوقعتها صفة لسبع فقد أردت أن تميز السبع بجنس البقرات لا بنوع خاص منها ثم رجعت فوصفت المميز بالجنس بالسمن [2]

٤ ــ قوله : ﴿ **وآخر يابسات** ﴾ بدون إعادة لفظ سبع كما فى البقرات ، للإكتفاء بدلالة المقابل فى البقرات عليه .

قال الزمخشرى [3] : " فإن قلت : هل فى الآية دليل على أن السنبلات اليابسات كانت سبعا كالخضر ؟

قلت : الكلام مبنى على انصبابه إلى هذا العدد فى البقرات السمان والعجاف والسنابل الخضر فوجب أن يتناول معنى الأخر السبع ويكون قوله وأخر يابسات بمعنى وسبعا أُخر .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير . للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ٢٨٠/١٢.

(٢) اعراب القرآن الكريم وبيانه . تأليف محى الدين درويش ٥٠٨/٤ .

(٣) تفسير الكشاف ٢٥٨/٢ .

٥ ــ اللام فى قوله : ﴿ للرؤيا ﴾ لتقوية الفعل " تعبرون " حيث تـاخر عن معموله لرعاية الفواصل ويقال لها : لام التقوية .

ويبدوا أن **القوم فى ذلك الزمان** ، كان بعضهم يشتغل بتفسير الـرؤى ، ولكن أراد الله تعالى أن يعجز أولئك الكهنة والعلماء عن تأويل الرؤيا وكـان هذا بمثابة معجزة أو ما يشبه المعجزة ليوسف ــ عليه السلام ــ حتى تـزداد مكانته عند الملك وحاشيته وقد حكى القرآن عجزهم عن تأويل رؤيا الملـك فقال :

﴿ قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ﴾

والأضغاث : جمع ضغث بكسر الضاد ، وهى قبضة من قبضان مختلفـة يجمعها أصل واحد مثل الكرات وغيره .

وقال الفراء : الضغث ما جمعته من شئ مثل حزمة رطبة ، وما قـام على ساق واستطال ثم جمعته :

وأضغاث أحلام : الرؤيا التى لا يصح تأويلها لاختلاطها وتداخل بعضها فى بعض وليست كالصحيحة [١]

والأحلام : جمع حُلم ، وهو ما يراه النائم فى منامه ، وهى الرؤيـا الكاذبة التى لا حقيقة لها كما يكون من حديث النفس ووسواس الشـيطان ففى الحديث الصحيح : " الرؤيا من الله والحلم من الشيطان " [٢]

وجمعوا الأحلام فى قوله ﴿ **أضغاث أحلام** ﴾ ولم يكن من الملك إلا رؤيا واحدة مبالغة منهم فى وصفها بالبطلان ، ويجوز أن يكـون رأى مع هذه الرؤيا غيرها مما لم يقصه علينا القرآن .

---

(١) لسان العرب لابن منظور ١٦٣/٢ــ ١٦٤ .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب التفسير ١٧/٩ من الفتح .

والمعنى لما طلب الملك تأويل رؤياه . عجز الملأ من حاشيته ومن الكهنة عن تأويلها ، أو أحسوا أنها تشير إلى سوء لم يريدوا أن يواجهوا بـه الملك على طريقة رجال الحاشية فى إظهار كل ما يسر الحكام وإخفـاء مـا يزعجهم وصرف الحديث عنه ــ مثلما نفعله نحن مع من يقص علينا حلـم ليس بحسن ــ فقالوا للملك : ما رأيته فى نومك ما هـو إلا أخـلاط أحـلام مضطربة ومنامات باطلة وليست رؤيا كاملة تحتمل التأويل .

ثم أضافوا إلى ذلك قولهم ﴿ **وما نحن بتأويل الأحلام بعـالمين** ﴾ أى : إننا لسنا من أهل العلم بتفسير الأحلام إذا كانت أضغاثا مختلطة لا تشير إلى شئ ، وإنما نحن من أهل العلم بتفسير الرؤيا المعقولة الصحيحـة المفهومة .

ثم بين سبحانه ما حدث بعد أن عجز الملأ من الكهنـة والعلمـاء والحاشية وغيرهم عن تأويل رؤيا الملك ، تذكر أحد صاحبيه فـى السجن ، الذى نجا منهما وأنساه الشيطان ذكر ربه ، وذكر يوسف ، فى دوامة القصر والعصر والشراب ... هنا تذكر الرجل الـذى أول لـه رؤياه ورؤيا صاحبه ، فقال تعالى :

﴿ **وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمـة أنـا أنبئكـمَ بتأويلـه فأرسلون** ﴾

قوله : ﴿ **وادكر** ﴾ بالدال أصله : اذتكر . وهو افتعال من الذكـو ، قلبت تاء الإفتعال دالا لثقلها ولتقارب مخرجيها ثم قلبت الـذال ليتـأتى ادغامها فى الدال لأن الدال أخف من الذال . وهذا أفصح الإبدال فـى أدّكر كما جاء فى القرآن الكريم ﴿ **فهل من مدكر** ﴾ (١) .

---

(١) سورة القمر الآية ١٥

ومعنى ﴿ **بعد أمة** ﴾ بضم الهمزة وتشديد الميم وتاء منونة ، وهي المدة الطويلة ، وأصل إطلاق الأمة على المدة الطويلة هو أنها زمن ينقرض في مثله جيل ، والجيل يسمى أمة ، كما في قوله تعالى : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس** ﴾ على قول من حمله على الصحابة .

وإطلاقه في هذه الآية مبالغة في زمن نسيان الساقي . وقيل : وكان ذلك بعد سنتين من خروجه من السجن .

وقوله ﴿ **أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون** ﴾ ضمائر المخاطب في " أنبئكم " و " فأرسلون " المخاطب إما الملك والحاشية أو الملك وحده على سبيل التعظيم .

وإسناد الإنباء إليه ــ أي الساقي ــ مجاز عقلي لأنه سبب الإنباء ، ولذلك قال " فأرسلون " . وفي ذلك ما يستفز الملك إلى أن يأذن له بالذهاب إلى حيث يريد ليأتي بنبأ التأويل ، إذ لا يجوز لمثله أن يغادر مجلس الملك دون إذن .

وكان السجن على ما روى ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ في غير مدينة الملك ، وقيل : كان فيها ، قال أبو حيان . ويرسم الناس اليوم سجن يوسف ــ عليه السلام ــ في موضع على النيل بينه وبين الفسطاط ثمانية اميال [1] والله تعالى أعلم بحقيقة المكان .

ولم يسم لهم المرسل إليه لأنه أراد أن يفاجئهم بخبر يوسف ــ عليه السلام ــ ، فيكون ذلك أوقع في قلوبهم ، وأسمى لشأن يوسف ــ عليه السلام ــ .

---

(١) تفسير أبي حيان ٦/٢٨٤ .

وقوله : ﴿ يوسف ايها الصديق أفتنا ... ﴾ في الكلام حـــذف ، وهو من بديع الإيجاز بالحذف ، لأن المحذوف لا يتعلق بذكره عرض .

والتقدير : قال لهم : أنا أنبئكم بتاويله فأرسلون إلى من عنده العلـم بالتأويل ، فأرسلوا إلى يوسف فأتاه فقال : يا يوسف يا أيها الصديق .

والصديق : أصله صفة مبالغة مشتقة من الصدق ، والصديق هــو الإنسان الذى صار الصدق دأبه وشيمته فى كل أحواله .

قال الشيخ ابن عاشور [١] : " وغلب استعمال وصف الصديـق استعمال اللقب الجامع لمعانى الكمال واستقامة السلوك فى طاعة الله تعالى ، لأن تلك المعانى لا تجتمع إلا لمن قوى صدقه فى الوفـــاء بعهد الله .

وأحسن ما رأيت فى هذا المعنى كلمة الراغــب الأصفــهانى فـــى مفردات القرآن قال : " الصديقون هم دُوَيْن الأنبياء " . وهذا ما يشهد به استعمال القرآن فى آيات كثيرة مثل قوله ﴿ فأولئك مع الذين أنعــم الله عليهم من النبيين والصديقين ﴾ [٢] الآية ، وقوله ﴿ وأمة صديقة ﴾ [٣] . ومنه ما لَقب النبيُ ﷺ أبا بكر بالصدِّيق فى قوله فى حديث رجف جبـل أحد " أسكن أُحُدُ فإنما عليك نبى وصديق وشهيدان " من أجل ذلك أجمع اصحاب الرسول ﷺ ومنهم على بن ابى طالب ــ كـــرم الله وجهـــه ــ على أن أبا بكر ــ رضى الله عنه ــ أفضل الأمة بعد النبـــى ﷺ وقـــد

---

(١) تفسير التحرير والتنوير . للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ٢٨٤/١٢.

(٢) سورة النساء من الآية ٦٩ .

(٣) سورة المائدة من الآية ٧٥ .

جمع الله هذا الوصف مع صفة النبوءة فى قوله : ﴿ **واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا** ﴾ [1]

ووصفه ليوسف ــ عليه السلام ــ بهذه الصفة ، لأنه جرب معه الصدق التام أيام أن كان معه فى السجن ، ولكونه بصدد الإستفادة من علمه فى تأويل الأحاديث والرؤى ، وهذا من براعة الاستهلال ، وفيه إشارة إلى أنه ينبغى للمستفتى أن يعظم المفتى . ومن أراد أن يتعلم من شخص شيئا فإنه يجب عليه أن يعظمه ، وأن يخاطبه بالألفاظ المشعرة بالإجلال والتقدير .

قوله ﴿ **أفتنا فى سبع بقرات ...** ﴾

لماذا قال ﴿ **أفتنا** ﴾ ولم يقل كما قال هو وصاحبه ﴿ **نبئنا بتأويله** ﴾ ؟ .

أقول : عندما قالا له ﴿ **نبئنا بتأويله** ﴾ كان ذلك فى بداية لقائهما بيوسف ــ عليه السلام ــ ، وقبل أن يعرفا فضله ودرجته فى العلم وأنه الكريم بن الكريم بن الكريم ، أما بعدما عاين علو رتبته ــ عليه السلام ــ فى الفضل عبر ذلك بالإفتاء فقال : ﴿ **أفتنا** ﴾ ، تفخيما لشأنه عليه السلام .

وقال أبو السعود [2] : " وفى قوله : ﴿ **أفتنا** ﴾ مع أنه المستفتى وحده اشعار بأن الرؤيا ليست له ، بل لغيره ممن له ملابسة بأمور العامة وأنه فى ذلك معبر وسفير كما آذن بذلك حيث قال : ﴿ **لعلى أرجع إلى الناس** ﴾ .

---

(١) سورة مريم الآية ٥٦ .

(٢) تفسير أبى السعود ٤/٢٨٢.

ولذا لم يغير لفظ الملك ، فقد أعاد العبارات المحكية عنه بعينها لأن التعبير يختلف باختلاف العبارات ، وفى ذلك إشارة إلى أنه بلغ السـؤال كما تلقاه ، وذلك تمام أمانة الناقل . وتستفيد من ذلك بضرورة تبليـــغ الكلام كما سمعناه دون تحريف أو تغيير فرب تبديل لفظ أو حتى حرف مكان حرف يؤدى إلى خلافات ومعادات نحن فى غنى عنها .

وقوله : ﴿ لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون ﴾

الناس هنا : هم الملك وأهل مجلسه أو أهل البلد إن كان السـجين فى الخارج كما قيل ، لأن تأويل الرؤيا يهمهم جميعا .

ومن حسن الأدب قوله ﴿ لعلى أرجع ﴾ و ﴿ لعلهم يعلمون ﴾ :

فقد كان الساقى فى غاية الذكاء وحسن الأدب حيث احترز بلفظ ﴿ لعلى ﴾ لأنه ليس على يقين بأنه سوف يعيش إلى أن يعود إليـهم وعلى تقدير أنه يعيش فربما عرض له ما يمنعه عن الوصول إليـهم من الموانع التى لا تحصى كثرة .

وكذا فى قوله : ﴿ لعلهم يعلمون ﴾ أى : يعلمون فضلك ومكـانك فيخلصوك من السجن . أو يعلمون فتواك وربما لا يعلمـون لعـدم فهمهم لذا قال " لعلهم " .

وفى تكرار" لعل " لمراعاة فواصل الآى ، وإلا كـان مقتضـى النسق لعلى ارجع إلى الناس فيعلموا .

تعبير الرؤيا :

﴿ قال تزرعون سبع سنيين دأبا فما حصدتم فذروه فى سـنبله إلا قليلا مما تأكلون .. ﴾

عبر يوسف – عليه السلام – رموز الرؤيا بجميع ما دلت عليه ، فالبقرات لسنيين الزراعة ، لأن البقرة تتخذ للإثمار . والسِمَن رمز للخصب .والعجَف رمز للقحط . والسنبلات رمز للأقوات ؛ فالسنبلات الخضر رمز لطعام ينتفع به ، وكونها سبعا رمز للإنتفاع به في السبع السنين ، فكل سنبلة رمز لطعام سنة .

وقوله ﴿ **تزرعون** ﴾ خبر في معنى الأمر .

قال الزمخشري [1] : " قوله ﴿ **تزرعون** ﴾ خبر في معنى الأمر كقوله ﴿ **تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون** ﴾ وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في إيجاب إيجاد المأمور به فيجعل كأنه يوجد فهو يخبر عنه ، والدليل على كونه في معنى الأمر قوله ﴿ **فذروه في سنبله** ﴾ أ . هـ

ومعنى ﴿ **دأبا** ﴾ ملازمة ، كعادتكم في المزارعة . وقرأ حفص دأبا بفتح الهمزة ، والجمهور بإسكانها ، وهما مصدران لدأب .

وتعرب حال من المأمورين أي دائبين ، أو مصدر لفعل محذوف من لفظه أي تدأبون دأبا .

والمعنى : قال يوسف للساقي : قل لقومك إن يوسف يأمركم أن تزرعوا أرضكم سبع سنين زراعة مستمرة على حسب عادتكم .

﴿ **فما حصدتم** ﴾ من زرعكم في كل سنة ﴿ **فذروه في سنبله** ﴾ أي : اتركوا الحب في سنبله كيلا يأكله السوس كما هو شأن غلال مصر ونواحيها إذا مضى عليها عامين ﴿ **إلا قليلا مما تأكلون** ﴾ أي :

---

(1) تفسير الزمخشري ٢/٢٦٠ .

استخرجوا ما تحتاجون إليه بقدر الحاجة . فقد أشار عليهم بتقليــل مــا يأكلون فى سنوات الخصب ، لادخار ما فضل عن ذلك لزمن الشـــدة ، فيجتمع الطعام ويتركب ، فإذا جاءت السنون الجدبة يؤكل الأقدم فـالأقدم من ذلك المدخر .

قال القرطبى [1] : " هذه الآية أصل فى القول بالمصالح الشــرعية التى هى حفظ الأديان والنفوس والعقول والأنساب والأموال ؛ فكل مــا تضمن تحصيل شئ من هذه المور فهو مصلحة ، وكل ما يُفوِّت شــيئا منها فهو مفسدة ، ودفعه مصلحة ، ولا خــلاف أن مقصــود الشــرائع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية ؛ ليحصل لهم التمكن من معرفة الله تعالى وعبادته الموصلتين إلى السعادة الأخروية ، ومراعاة ذلك فضــل من الله عز وجل ورحمة رحم بها عباده .. " أ . هـ

وقوله **﴿ ثم يأتى من بعد ذلك ﴾** أى : من بعد تلك السنين الســبع المذكورات التى تزرعونها على عادتكم المستمرة فى الزراعة .

﴿ سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنــون ﴾ أى : ثم تأتى بعد ذلك سبع سنين كلهن جدب وقحط ، يأكل أهلــها كــل مــا ادخرتم فى تلك السنين لأجلهم ، إلا قليلا مما تخزنون وتدخرون للبذر ، وإسناد الأكل إلى السنين مجاز عقلى ، وهو مــا جــرت بــه عادتــهم فيقولون أكلت هذه السنة كل شئ ولم تبق لنا خفا ولا حافرا .

ومعنى تحصنون : تحرزون وتخبئون ، مأخوذ من الحصن وهــو الحرز والملجأ .

---

(١) تفسير القرطبى ٩/١٣٣ــ١٣٤.

وهذا يدل على جواز احتكار الطعام إلى وقت الحاجة بشـوط أن يعود النفع على الجميع .

قال القرطبى [١] : " هذه الآى أصل فى صحة رؤيا الكـــافر ، وأنها تُخرَّج على حسب ما رأى ، لا سيما إذا تعلقـــت بمؤمـــن ؛ فكيف إذا كانت آية لنبى ، ومعجزة لرسول ، وتصديقا لمصطفـــى للتبليغ ، وحجة للواسطة بين الله ــ جل جلاله ــ وبين عباده " أ . هـ

ولكن لا نسلم بأن رؤى الكفار كلهم تكون صحيحة على وجـه العموم قياساً على رؤيا صاحبى السجن . ورؤيا الملك ، فقـــد أراد الله تعالى أن تصدق رؤياهم ، للتصديق بيوسف ــ عليه السلام ــ .

فالكفار يندر فى رؤياهم الصدق ويشير إلى ذلك قولـه ﷺ :" إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب . وأصدقهم رؤيا أصدقـهم حديثا " [٢] فنسبة الصدق فى الرؤيا تعادل نسبة الصدق فى الحديـث فى اليقظة .

ونعود إلى قوله تعالى ﴿ **ثم يأتى بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون** ﴾ لنقول : إنها بشرى لهم بعـــد الجـدب والقحـط المتوالى بأنه يعقبهم بعد ذلك عام فيه يغـــاث النـــاس أى : يأتيـــهم الغيث وهو المطر ، فتُغِلُّ البلاد وتكثر المحصولات بجميع أنواعـها ويعصرون ما من شأنه أن يعصر من العنب والقصـــب والزيتـــون

---

(١) تفسير القرطبى ١٣٤/٩ .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى سننه ٥٣٢/٤ .

ونحوها من الفواكه " وقيل : يدخل فيه حلب اللبن أيضا قال علـــى بن أبى طلحة عن ابن عباس ﴿ **وفيه يعصرون** ﴾ يحلبون [1]

وهذا كناية عن بدء حلول الرخاء بهم ، بعد تلك السنوات الشداد ، وما قاله يوسف ــ عليه السلام ــ عن هذا العام ليست مســـتنبطة مـــن رؤيا الملك وإنما تلقاها ــ عليه السلام ــ من جهة الوحى فبشرهم بـــها بعد ما أول الرؤيا بما أول .

وإلى هنا نرى ان يوسف ــ عليه السلام ــ قد فسر رؤيـــا الملـــك تفسيرا حكيما من نتائجه الخير للملك وقومه .

*****

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٦٢/٢.

طلب الملك ليوسف وتريثه فى الإجابة

بعد أن رجع الرسول ــ الساقى ــ إلى الملك وأبلغهم ما قاله يوسف ــ عليه السلام ــ ، فهموا منه سعة علمه وحسن تدبيره لدى ذلك الخطب الجلل الذى سيحل بالبلاد ، فطلب الملك رؤيته ليتحقق بنفسه صدق ما فهمه من كلامه ، ولكن يوسف ــ عليه السلام ــ تريث فى الإجابة ، وقد حكى القرآن الكريم كل ذلك بإسلوبه ، فقال :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ(٥٠)قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنْ الصَّادِقِينَ(٥١)ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ(٥٢) ﴾ .

قوله تعالى : **﴿ وقال الملك أئتونى به ٠٠ ﴾** وفى الكلام حذف يفهم من المقام ، والتقدير : لما رجعوا إلى الملك بتعبير رؤياه التى رآها بما أعجبه ، فعرف فضل يوسف ــ عليه السلام ــ وعلمه وحسن اطلاعه على رؤياه وحسن أخلاقه على من ببلده من رعاياه ، قال لهم : احضروا لى يوسف هذا لأراه وأستفيد من علمه .

وهذا يدل كما قال الفخر الرازى ــ على فضيلة العلم ، فإنه ــ سبحانه ــ جعل علمه سببا لخلاصه من المحنة الدنيوية ، فكيف لا يكون العلم سببا للخلاص من المحن الأخروية ؟ (١)

---

(١) تفسير الفخر الرازى ١٨ /١٥١.

وقوله تعالى : ﴿ فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عظيم ﴾

لقد امتنع يوسف ــ عليه السلام ــ عن الذهاب إلى الملك إلا بعد التحقيق فى قضيته ، وهذا يدل دلالة واضحة على صبره ، وعلو همته .

وقد علل الزمخشرى امتناع يوسف ــ عليه السلام ــ عن الخروج من السجن للقاء الملك إلا بعد أن تثبت براءته فقال :

" إنما تأنى وتثبت فى إجابة الملك وقدم سؤال النسوة ليظهر براءة ساحته عما قرف به وسجن فيه لئلا يتسلق به الحاسدون إلى تقبيح أمره عنده ويجعلوه سلما إلى حط منزلته ولئلا يقولوا ما خلد فى السجن سبع سنين إلا لأمر عظيم وجرم كبير حق به أن يسجن ويعذب ويستكف شره .

وفيه دليل على ان الإجتهاد فى نفى التهم ، واجب وجوب اتقاء الوقوف فى مواقفها " (١)

وقد ذكر ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية بعض الآحاديث فى فضل يوسف ــ عليه السلام ــ فقال ما ملخصه : وقد وردت السنة بمدحه على ذلك ــ أى على امتناعه من الخروج من السجن حتى يتحقق الملك ورعيته من براءة ساحته ونزاهة عرضه ــ ففى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال ﴿ رب أرنى كيف تحى الموتى ﴾ الآية ، ويرحم الله

---

(١) تفسير الكشاف ٢/٢٦٠ .

لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد ، ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى "

وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة فى قوله ــ تعالى ــ ﴿ فأسأل ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن .. ﴾ أن رسول الله ﷺ قال " لو كنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر "

وروى عبد الرزاق عن عكرمة قال : قال رسول الله ﷺ : " لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه ! والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ، ولو كنت مكانه ما أجبتهم حتى اشترط أن يخرجونى .

ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له ،حين أتاه الرسول ، ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب ، ولكنه أراد أن يكون له العذر " [١]

وقد علق الدكتور / سيد طنطاوى ، على هذه الأحاديث التى ذكرها ابن كثير فقال : " وما ورد فى هذه الأحاديث ، إنما هو من باب التواضع من سيدنا رسول الله ﷺ ، وإلا فإنه ﷺ أقوى الرسل عزما ، وأرفعهم مقاما ، وأشدهم صبرا " [٢] .

قلت ويشهد على نزاهته ــ عليه السلام ــ وبعده عن مواطن الريبة والتهم ، قوله للمارين به فى معتكفه وعنده بعض نسائه " هى فلانة " ــ وسماها ــ إتقاء للتهمة ، وعنه ﷺ قال : " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم " .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٤٦٢ــ٤٦٣

(٢) التفسير الوسيط المجلد السابع ص ٣٧٥ .

وقال الزمخشرى [1] : " ومن كرمه وحسن أدبه أنه لم يذكر سيدته مع ما صنعت به وتسببت فى السجن والعذاب ، واقتصر على ذكر المقطعات أيديهن "

أيضا : ففى الإقتصار على ذكر المقطعات أيديهن ، دون التعرض لكيدهن له ، دليل آخر على كرمه وحسن أدبه ؛ سترا لهن ، وتنزها منه ــ عليه السلام ــ عن ذكرهن بما يسوؤهن .

ولذا فقد اكتفى بالإشارةِ الإجمالية إلى كيدهن ، وفوض أمرهن إلى الله تعالى ، فقال فى ختم الآيةِ :

﴿ إن ربى بكيدهن عليم ﴾ أى : إن الله هو العليم بكيدهن لى ، وهو الذى يتولى حسابهن على ما فعلن بى .

ثم حكى الله تعالى ما فعله الملك بعد أن بلَّغه الرسول بما طلبه يوسف منه ، فقال جل ذكره :

﴿ قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ﴾

فى الكلام حذف تقديره : فرجع الرسول ، فأخبره بما قال يوسف ، فجمع الملك النسوة وامرأة العزيز ، وقال لهن : **﴿ ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ﴾** .

الخطب : الشأن أو الأمر ، صغر أو عظم ، وقيل : هو سبب الأمر . يقال ما خطبك ؟ أى ما أمرك ؟ وتقول هذا خطب جليل ، وخطب يسير ، ... ومنه قولهم : جَلَّ الخطب ، أى : عظم الأمر والشأن ... [2]

---

(١) تفسير الكشاف ٢/٢٦١ .

(٢) لسان العرب ١/٣٦١ .

والمعنى : لما جمع الملك النسوة سألهن : ما الأمر الـــذى حملكـــن على مراودة يوسف عن نفسه : هل كان عن ميل منه إليكـــــن ، وهـــل رأيتن منه مواتاة واستجابة بعدها ، وماذا كان السبب فـــى القائـــه فـــى السجن مع المجرمين .

قال الشيخ سيد قطب (1) : " والخطب الأمر الجلــــل والمصـــاب : فكأن الملك كان قد استقصى فعلم أمرهن قبل أن يواجههن ، وهو المعتاد فى مثل هذه الأحوال ، ليكون الملك على بينة من الأمر وظروفه قبـــل الخوض فيه .فهو يواجههن مقررا الاتهام ، ومشيرا إلى أمر لـــــهن جلل ...

ومن هذا نعلم شيئا مما دار فى حفل الاستقبال فى بيت العزيز ، ما قالته النسوة ليوسف وما لَمَّحن به وأشرن إليه ، من الإغراء الذى يبلـــغ درجة المراودة . ومن هذا نتخيل صورة لهذه الأوساط ونسائها حتى فى ذلك العهد الموغل فى التاريخ . فالجاهلية دائما هى الجاهلية . إنه حيثما كان الترف ، وكانت القصور والحاشية ، كان التحلل والتميع والفجـــور الناعم الذى يرتدى ثياب الأرستقراطية " أ .هـــ

وأمام هذه المواجهة التى واجههن بها الملك ، لم يملكن الإنكـــار ، بل قلن : ﴿ **حاش لله ما علمن عليه من سوء** ﴾ أى : معاذ الله . مـــا علمنا عليه سوءا يشينه ويسوءه لا قليلا ولا كثيرا ، وإنما الذى علمنـــاه منه هو الإستعصام عن كل سوء . هكذا أنطقهن الله تعالى بالحق .

وهنا تتقدم امرأة العزيز لتقول كل شئ فـــــى صراحـــة ، وتشـــهد ليوسف شهادة إثبات .

---

(1) فى ظلال القرآن ١٢/٢٩٩٥.

﴿ قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق * أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾

قوله : ﴿ حصحص ﴾ أى : ظهر بعد أن كان خفيا ؛ فهن من شهدن بما علمن شهادة نفى ، وهأنذا أشهد على نفسى شهادة إيجاب .

وهكذا يشاء الله تعالى أن تثبت براءة يوسف على رؤوس الأشهاد ، تنطق بها النسوة اللائى قطعن أيديهن ، وامرأة العزيز .

قال الزمخشرى [١] : " ولا مزيد على شهادتهن له بالبراءة والنزاهة واعترافهن على أنفسهن بأنه لم يتعلق بشئ مما قرفته به لأنهن خصومة وإذا أعترف الخصم بأن صاحبه على الحق وهو على الباطل لم يبق لأحد مقال "

وقوله : ﴿ ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ﴾

فقد اختلفوا على قولين ــ كما قال الخازن [٢] ــ

أحدهما : أنه من قول المرأة ووجه هذا القول أن هذا كلام متصل بما قبله وهو قول المرأة : ﴿ الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ ، ثم قالت :﴿ ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ﴾ ، والمعنى : ذلك ليعلم يوسف أنى لم أخنه فى حال غيبته وهو فى السجن ، ولم أكذب عليه ، بل قلت : ﴿ أنا راودته عن نفسه * وإنه لمن الصادقين ﴾ ، وإن كنت قد قلت فيه ما قلت فى حضرته ، ثم بالغت فى تأكيد هذا القول فقالت : ﴿ وأن الله لا يهدى كيد الخائنين ﴾ يعنى : أنى لما

---

(١) تفسير الكشاف ٢٦١/٢ .

(٢) انظر تفسير الخازن ٢٨٩/٢ .

أقدمت على هذا الكيد والمكر لا جرم أنى افتضحت ، لأن الله لا يرشد ولا يوفق كيد الخائنين .

والقول الثانى :أنه من قول يوسف ــ عليه السلام ــ ، وهذا قول الأكثرين من المفسرين والعلماء ، ووجه هذا القول أنه لا يبعد وصل كلام إنسان بكلام إنسان آخر إذا دلت القرينة عليه ، فعلى هذا يكون معنى الآية : أنه لما بلغ يوسف قول المرأة : ﴿ **أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين** ﴾ . قال يوسف ﴿ **ذلك ..** ﴾ أى : الذى فعلتُ من ردِّى رسول الملك إليه ، ليعلم يعنى العزيز أنى لم أخنه فى زوجته بالغيب يعنى فى حال غيبته ، فيكون هذا من كلام يوسف اتصل بقول اتصل بقول امرأة العزيز ﴿ **أنا راودته عن نفسه** ﴾ من غير تمييز بين الكلامين لمعرفة السامعين لذلك .. ونظيره قوله تعالى ﴿ **يريد أن يخرجكم من أرضكم** ﴾ [1] هذا من قول الملأ ، (فماذا تأمرون) من قول فرعون ، ومثله قوله تعالى : ﴿ **إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة** ﴾ [2] هذا من قول بلقيس ، ﴿ **وكذلك يفعلون** ﴾ من قوله عز وجل تصديقا لها " [3].أ . هـ

ومما سبق يتبين لنا أن الخازن يرجح القول الثانى . كما ذهب إليه الزمخشرى فقال : " قوله : ﴿ **ذلك ليعلم** ﴾ من كلام يوسف ، أى : ذلك التثبت والتشمر لظهور البراءة ، ليعلم العزيز أنى لم أخنه بظهر

---

(١) سورة الأعراف من الآية ١١٠ .

(٢) سورة النمل من الآية ٣٤ .

(٣) تفسير الخازن ٢٨٩/٢ .

الغيب فى حرمته ... وليعلم ﴿ أن الله لا يهدى كيد الخـــائنين ﴾ لا ينفذه ولا يسدده وكأنه تعريض بامرأته فى خيانتها أمانة زوجها وبه فى خيانته أمانة الله حين ساعدها بعد ظهور الآيات على حبسه ، ويجوز أن يكون تاكيدا لأمانته ، وأنه لو كان خائنا لما هدى الله كيده ولا سدده " [1] .

ولكنى أميل إلى أن قوله ﴿ ذلك ليعلم أنى لم أخنه .. ﴾ من كلام امرأة العزيز ، لأن سياق الكلام : سباقه ولحاقه فى غاية الإنسجام فـــلا يحتاج إلى تكلف للربط بينه وبين ما قبله ، ولا دليل يدل على أنه مـــن كلام يوسف ــ عليه السلام ــ ، ولا سيما أنه بداية الكلام صراحة مـــن امرأة العزيز كما نطق الحق **﴿ قالت امرأة العزيز .. ﴾** .

والمعنى : ذلك الذى قلته واعترفت به هو الحق ، ليعلم يوسف أنـــى لم أخنه فى غيبته ، وأرميه بذنب هو برئ منه ، وإنما أقـــر وأعـــترف أمام الملك وحاشيته بأنه من الصادقين ..

وقد ذهب إلى هذا الرأى الإمام ابن كثير فقد قال : ﴿ ذلـــك ليعلـــم أنى لم أخنه بالغيب ... ﴾ تقول : إنما اعترفت بهذا علـــى نفســـى ، ليعلم زوجى أنى لم أخنه بالغيب فى نفس الأمر ولا وقع المحذور الأكـــبر ، وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع فلهذا اعترفت ليعلم أنى بريئة " [2]

وقال الشيخ ابن عاشور [3]: " ظاهر نظم الكلام أن الجملة من قول امرأة العزيز ، وعلى ذلك حملة الأقل من المفسرين ، وعزاه ابن عطية إلى فرقة من أهل التأويل ، ونُسب إلى الجبائى ، واختاره المـــاوردى ،

---

(١) تفسير الزمخشرى ٢/٢٦١ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٤٦٣ .

(٣) فى تفسير التحرير والتوير المجلد السادس ص ٢٩٢ .

وهو فى موقع العلة لما تضمنته جملة ﴿ **أنا راودته عن نفسه** ﴾ وما عطف عليها من إقرار ببراءة يوسف ـ عليه السلام ـ بما كانت رمته به ، فالإشارة بذلك إلى الإقرار المستفاد من جملة ﴿ **أنا راودته** ﴾ أى ذلك الإقرار ليعلم يوسف عليه السلام أنى لم أخنه .

كما أشار صاحب التفسير الوسيط [1] إلى أن هذا الرأى هو الجدير بالقبول وذلك :

لأنه هو المناسب لسياق الآيات من غير تكلف .

ولأنه لا يؤدى إلى تفكك الكلام وانقطاع بعضه عن بعض ، بخلاف الرأى الثانى الذى يرى أصحابه أن كلام امرأة العزيز قد انتهى عند قوله تعالى ﴿ **وإنه لمن الصادقين** ﴾ فإنه يؤدى إلى تفكك الكلام ، وعدم ارتباط بعضه ببعض .

كما أن وقائع التاريخ لا تؤيده ، لأن يوسف ـ عليه السلام ـ كان فى السجن عندما أحضر الملك النسوة وقال لهن : ﴿ **ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه** ﴾ . وعندما قالت امرأة العزيز أمام الملك وأمامهن : ﴿ **الأن حصحص الحق** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **إن ربى غفور رحيم** ﴾ أ . هـ

وعلى الجملة فقد أسفر التحقيق عن أن يوسف ـ عليه السلام ـ كان مثل الكمال الإنسانى فى عفته ونزاهته لم يمسه سوء من فتنة أولئك النسوة ، وأن امرأة العزيز أقرَّت

---

(١) الدكتور / سيد طنطاوى شيخ الأزهر المجلد السابع ص ٣٧٨ .

فى خاتمة المطاف بذنبها فـــى مجلـس الملـك ، إيثــارا للحــق وإثباتا لبراءة يوسف ــ عليه السـلام ــ ، وذلـك لتتحقــق ســنة الله تعالى فى الكون التى جــرت علــى أن فنــون البــاطل وإن راجــت أوائلها لا تلبث أن تنقشع قال تعــالى : ﴿ **بــل نقـذف بـالحق علـى الباطل فيدمغه فإذا هو زاهـــق** ﴾ [1]

******

(١) سورة الأنبياء من الآية ١٨ .

النفس أمارة بالسوء

قال تعالى : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

لقد اختلف العلماء فى تفسير هذه الآية مثلما اختلفوا فيما قبلها فمن قال : إن قوله ﴿ ذلك ليعلم أنى أخنه بالغيب ﴾ كلام يوسف كان هذا أيضا من كلام يوسف ، ومن قال : إن ﴿ ذلك يعلم ٠٠ ﴾ من تمام كلام امرأة العزيز كان هذا أيضا كذلك .

فالذين قالوا إنه من كلام يوسف تقولوا عليه بأقاويل يندى لها الجبين لا تليق بالصالحين ، فما بالنا لو كانت على رسول كريم .

فالحشوية قالوا : " إنه عليه السلام لما قال ﴿ ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ﴾ قال جبريل عليه السلام : ولا حين هممت بفك سراويلك فعند ذلك قال يوسف ﴿ وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ أى بالزنا ﴿ إلا ما رحم ربى ﴾ أى عصم ربى ﴿ إن ربى غفور ﴾ للهم الذى هممت به ﴿ رحيم ﴾ أى : لو فعلته لتاب على " (١) .

أيضا فقد أخرج ابن جرير الطبرى هذا القول عن ابن أبى الهزيل (٢) .

ولكنى أرى أن من قال إن قوله ﴿ وما ابرئ نفسى ٠٠ ﴾ من كلام يوسف فقد افترى افتراء عظيما على يوسف ــ عليه السلام ــ ،

---

(١) تفسير الفخر الرازى ١٥٦/١٨ .

(٢) تفسير ابن جرير ٣/١٣ .

فقد ظهرت براءته ظهور الشمس ، وأقرت بها المرأة التى ادعت عليه الباطل ، ونزهته النسوة اللائى قطعن أيديهن .

أما كونه من كلام امرأة العزيز ، فهو واقع على الحقيقة ، لأنها قد أقرت بالذنب ، واعترفت بالمراودة وبالافتراء على يوسف .

كما أن ظاهر ترتيب الكلام أن هذا من كلامها ، حيث مضت فى بقية إقرارها فقالت : **﴿ وما أبرئ نفسى .. ﴾** أى ما أبرئ نفسى من محاولة هذا الإثم ، لأن النفس أمارة بالسوء وقد أمرتنى بالسوء ، ولكنه لم يقع .

قال ابن كثير [1] : " وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعانى الكلام " .

﴿ إلا ما رحم ربى ﴾ أى عصمه الله تعالى .

قال أبو حيان [2] : " والظاهر أن **﴿ إلا ما رحم ربى ﴾** استثناء متصل من قوله : لأمارة بالسوء ، لأنه أراد الجنس بقوله : إن النفس ، فكأنه قال : إلا النفس التى رحمها ربى فلا تأمر بالسوء ، فيكون استثناء من الضمير المستكن فى أمارة .

ويجوز أن يكون مستثنى من مفعول أمارة المحذوف إذ التقدير : لأمارة بالسوء صاحبها ، إلا الذى رحمه ربى فلا تأمره بالسوء .

وجوزوا أن يكون مستثنى من ظرف الزمان المفهوم عمومه من ما قبل الإستثناء ، و " ما " ظرفية إذ التقدير : لأمارة بالسوء مدة بقائها إلا وقت رحمة الله العبد وذهابه بها عن اشتهاء المعاصى .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٤٦٣ .

(٢) البحر المحيط ٦/٢٨٩ـ ٢٩٠.

وجوزوا أن يكون استثناء منقطعا ، و " ما " مصدرية .وذكر ابن عطية أنه قول الجمهور أى : ولكن رحمة ربى هى التى تصرف الإساءة " . أ . هـ

ثم ذُيلت الآية بجملة : ﴿ إن ربى غفور رحيم ﴾ وهى تعليل لما قبلها ، فبينها وبين ما قبلها شبه كمال اتصال ؛ حيث أراد الله تعالى أن يختم القسم الأول الذى تعرض فيه يوسف عليه السلام لألوان من المحن والآلام ، بعضها من إخوته ، وبعضها من امرأة العزيز ، وبعضها فى السجن . فهى ثناء على الله تعالى بأنه شديد المغفرة لمن أذنب ، وشديد الرحمة لعبده إذا أراد صرفه عن الذنب .

ومما سبق يتبين لنا بدلالة القرآن الكريم على براءة يوسف ــ عليه السلام ــ والذين شهدوا بذلك هم :

أولا : يوسف ــ عليه السلام ــ : ﴿ قال هى راودتنى عن نفسى ﴾ الآية ٢٦ وقوله : ﴿ قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه ﴾ الآية ٣٣ .

ثانيا : اعتراف امرأة العزيز : ﴿ قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴾ الآية ٣٢ وقوله : ﴿ قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ الآية ٥١ . .

ثالثاً : إقرار الزوج : ﴿ قال إنه من كيدكن عن كيدكن عظيم ﴾ الآية ٢٨ .

رابعا : شهادة النسوة : ﴿ **قلن حاشا لله ما علمنا عليه من سوء** ﴾ الآية ٥١ .

خامسا : الشاهد : ﴿ **وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصابرين** ﴾ الآيتان ٢٦ ، ٢٧.

سادسا : شهادة الله تعالى : ﴿ **كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين** ﴾ الآية ٢٤ .

فقد شهد الله تعالى فى هذه الآية على طهارته أربع مرات :

أولها : قوله ﴿ **لنصرف عنه السوء** ﴾ واللام للتأكيد والمبالغة .

والثانى : قوله : ﴿ **والفحشاء** ﴾ أى كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء .

والثالث : قوله : ﴿ **إنه من عبادنا** ﴾ وقد قال تعالى ﴿ **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما** ﴾

والرابع : قوله : ﴿ **المخلصين** ﴾ وقد سبق أن وضحناها فى موضعها .

سابعا : بيان ابليس وإقراره بطهارته لقوله : ﴿ **فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين** ﴾ . فكان هذا إقرارا من ابليس بأنه ما أغواه وما أضله عن طريق الهدى .

تولية يوسف رئيسا لحكومة مصر ومهيمنا على ماليتها

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ(٥٤)قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ(٥٥)وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ(٥٦)وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ(٥٧) ﴾ .

بعد انتهاء التحقيق فى أمر النسوة ، وظهر للملك براءة يوسف من كل سوء ونزاهة ساحته عما نسبوه إليه ، طلب الملك إحضاره إليه من السجن ، ومن هنا يبدأ الحديث عن المرحلة الثانية من حياته ــ عليه السلام ــ ، وهى مرحلة الرخاء والعز والتمكين فقال تعالى :

﴿ وقال الملك ائتونى به استخلصه لنفسى ... ﴾

قوله : ﴿ استخلصه ﴾ أى : أجعله خالصا لى وموضع ثقتى ، فى تصريف أمورى ، وكتمان أسرارى ، ولا يشاركه أحد فى إدارة ملكى .

والسين والتاء فى قوله ﴿ أستخلصه ﴾ للمبالغة فى الخلوص له .

وقد جرت عادة الملوك أن يجعلوا الأشياء النفيسة خالصة لهم دون غيرهم . فكان الملك قد شبه يوسف ــ عليه السلام ــ بالشئ النفيس النادر الذى يجب أن يستأثر به الملك دون ان يشاركه فيه أحد .

قوله : ﴿ **فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين** ﴾

والظاهر أن الفاعل فى " كلمه " هو ضمير الملـك أى : فلما كلمه الملك ورأى حسن جوابه ومحاورتـه . ويحتمل أن يكون الفاعل ضمير يوسف أى : فلما كلم يوسف الملـك ، ورأى الملك حسن منطقه قال له :

﴿ **إنك اليوم لدينا مكين أمين** ﴾

المراد باليوم : الزمان الذى حدث فيه التخاطب بين الملك ويوسف **والمكين** : صفة مشبهة من مكُن ـ بضم الكاف ـ إذا صار ذا مكانة ، وهى المرتبة العظيمة .

والأمين : فعيل بمعنى مفعول ، أى : مأمون على شئ . موثوق به فى حفظه .

والمعنى : لما كلمه وسمع ما أجاب به ، قال له الملك : إنك منذ اليوم عندنا ذو مكانة سامية ، ومنزلة عالية ، وأمانة تامة يجعلنا نأتمنك على كل شئ فى هذه المملكة ، فأنت غير منازع فى تصرفك ، ولا متهم فى أمانتك .

وترتب هذا القول على تكليمه إياه دال على أن يوسف ـ عليه السلام ـ كلم الملك كلاما حكيما ، فلما رأى الملك حسن منطقه وبلاغة قوله وأصالة رأيه رآه أهلا لثقته وتقريبه منه .

وفى هذا إيماء إلى أن الحوار بين المتخاطبين يُظْهر معارف الإنسان وأخلاقه وآدابه وجميع شمائله ، فيقدره من يعرف أقدار الرجال ويزنهم بفضائلهم ومزاياهم .

قال الشيخ محمد بن عاشور [1] : " فى قوله : ﴿ **إنك اليوم لدينا مكين أمين** ﴾ هذه صيغة تولية جامعة لكل ما يحتاج إليه ولى الأمر من الخصال ، لأن المكانة تقتضى العلم والقدرة ، إذ بالعلم يتمكن من معرفة الخير والقصد إليه ، وبالقدرة يستطيع فعل ما يبدو له من الخير والقصد إليه ؛ والأمانة تستدعى الحكمة والعدالة ، إذ بالحكمة يوثر الأفعال الصالحة ويترك الشهوات الباطلة ، وبالعدالة يوصل الحقوق إلى أهلها . وهذا التنويه بشأنه والثناء عليه تعريض بأنه يريد الإستعانة به فى أمور مملكته وبأن يقترح عليه ما يرجو من خير ٠٠ "

وهنا طلب يوسف ــ عليه السلام ــ من الملك بعزة وإباء أن يجعله فى الوظيفة التى يحسن القيام بأعبائها ﴿ **قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم** ﴾

الخزائن : جمع خزانة ــ بكسر الخاء ــ وهى اسم للمكان الذى يخزن فيه الشئ ، والمراد بالأرض : أرض مصر .

أى : قال يوسف ــ عليه السلام ــ للملك : ولِّنى خزائن أرضك كلها ، واجعلنى مشرفا عليها ، لأنقذ البلاد من مجاعة مقبلة عليها تهلك الحرث والنسل .

قال الشيخ محمد بن عاشور [2] : " واقتراح يوسف ــ عليه السلام ــ ذلك إعداد لنفسه للقيام بمصالح الأمة على سنة أهل الفضل والكمال من ارتياح نفوسهم للعمل فى المصالح ، ولذلك لم يسأل مالا لنفسه ولا

---

(١) تفسير التحرير والتنوير المجلد السابع ج ١٢ ص ٨ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير المجلد السابع ج ١٢ ص ٨ .

عرضا من متاع الدنيا ، ولكنه سأل أن يوليه خزائن المملكة ليحفظ الأموال ويعدل فى توزيعها ويرفق بالأمة فى جمعها وإبلاغها لمحالها .

وقد علل طلبه ذلك بقوله ﴿ إنى حفيظ عليم ﴾ صفة الحفظ المحقق للإئتمان ، وصفة العلم المحقق للمكانة " أ . هـ

قال الزمخشرى [١] : " وصف يوسف نفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما طلبة الملوك ممن يولونه ، وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى وإقامة الحق وبسط العدل والتمكن مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد ولعلمه أن أحدا غيره لا يقوم مقامه فى ذلك فطلب التولية ابتغاء وجه الله لا لحب الملك والدنيا " أ. هـ

ومن هذه الآية أخذ فقهاء المذهب جواز طلب القضاء لمن يعلم أنه أهل ، وأنه إن لم يُوَلَّ ضاعت الحقوق .

قال القرطبى [٢] : " ودلت الآية على جواز أن يطلب الإنسان عملا يكون له أهلا ؛ فإن قيل : فقد روى عن عبد الرحمن بن سَمُرة قال : قال لى رسول الله ﷺ : " ياعبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أُعطيتها عن مسألة وُكِلْت إليها ، وإن أُعطيتها عن غير مسألة أُعنت عليها " [٣] .

وعن أبى بردة عن أبى موسى قال : أقبلت إلى النبى ﷺ ومعى رجلان من الأشعريين أحدهما عن يمينى والآخر عن يسارى فكلاهما

---

(١) تفسير الزمخشرى ٢٦٣/٢ .

(٢) تفسير القرطبى ١٤١/٩ ــ ١٤٢ بتصرف .

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه . كتاب الإمارة باب النهى عن طلب الإمارة والحرص عليها ٢٠٦/١٢ـ٢٠٧ شرح النووى .

سأل العمل والنبى ﷺ يستاك فقال : " ما تقول يا أبا موسى أو يا عبد الله بن قيس . قال : فقلت : والذى بعثك بالحق ما أطلعانى على ما فى أنفسهما وما شعرت أنهما يطلبان العمل . قال : وكأنى أنظر إلى سواكه تحت شفتيه وقد قلصت . فقال : " لن أو لا نستعمل على عملنا من أراده .. " (١) .

فالجواب :

أولا : أن يوسف ــ عليه السلام ــ إنما طلب الولاية لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه فى العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم ، فرأى أن ذلك فرض متعين عليه فإنه لم يكن هناك غيره ، وهكذا الحكم اليوم ، لو علم إنسان من نفسه أنه يقوم بالحق فى القضاء أو الحسبة ولم يكن هناك من يصلح ولا يقوم مقامه لتعين ذلك عليه ، ووجب أن يتولاها ويسأل ذلك ، ويخبر بصفاته التى يستحقها به من العلم والكفاية وغير ذلك ...

الثانى : أنه لم يقل : إنى حسيب كريم ، وإن كان كما قال النبى ﷺ : " الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم .ولا قال : إنى جميل مليح ، إنما قال : ﴿ **إنى حفيظ عليم** ﴾ فسألها بالحفظ والعلم ، لا بالنسب والجمال .

الثالث : إنما قال ذلك عند من لا يعرفه فأراد تعريف نفسه ، وصار ذلك مستثنى من قوله تعالى : ﴿ **فلا تزكوا أنفسكم** ﴾ .

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الأمارة ٢٠٧/١٢ ــ ٢٠٨ شرح النووى .
ومعنى قلص : أى : انزوى وذهب . لسان العرب ٧٩/٧ .

الرابع : أنه رأى ذلك فرضا متعينا عليه ؛ لأنه لم يكن هنالك غيره ، وهو الأظهر ، والله أعلم " انتهى بتصرف .

وقال ابن عاشور [1] : " وهذه الآية أصل لوجوب عرض المرء نفسه لولاية عمل من أمور الأمة إذا علم أنه لا يصلح له غيره ، لأن ذلك من النصح للأمة ، وخاصة إذا لم يكن ممن يتهم على إيثار منفعة نفسه على مصلحة الأمة . وقد علم يوسف ــ عليه السلام ــ أنه أفضل الناس هنالك لأنه كان المؤمن الوحيد فى ذلك القطر .. " أ . هـ

والخلاصة : أن يوسف ــ عليه السلام ــ إنما طلب ما طلب من الملك ليس من أجل مصلحة شخصية ، بل من أجل خدمة الأمة ومصلحتها ، وما وصف به نفسه ليس من باب تزكية النفس المحظورة ، بل من باب التحدث بنعمة الله تعالى الذى أعطاه هذه الصفات .

ثم بين سبحانه سنته فى خلقه ، حيث لا يضيع أجر الصابرين المحسنين فقال جل ذكره :

﴿ **وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ...** ﴾ أى : ومثل هذا الإنعام الذى أنعمنا عليه فى انجائه من السجن ، وتقريبه إلى قلب الملك مكنا له فى أرض مصر ، حتى أصبح الآمر الناهى . وما ذلك إلا من صبره وجلده وقوة تحمله الشدائد ، ومن أمانته وعفته وخلقه ودينه ، وحسن تدبيره للأمور ؛ لهذا كانت رعاية الله له فى كل طور من أطوار حياته ﴿ **إن الله يدافع عن الذين آمنوا** ﴾ [2] .

---

(1) تفسير تحرير التنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور مجلد ٧ ج ١٢ ص ٩ .

(2) سورة الحج من الآية ٣٨ .

وقوله : ﴿ يتبوأ منها حيث يشاء ﴾ تفصيل للتمكين الذى منحه الله تعالى ليوسف فى أرض مصر .

والتبوء : النزول والإقامة . يقال تبوأت منزلا أى : نزلته وقوله تعالى : ﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان ﴾ جعل الإيمان محلا لهم على المثل ، وقد يكون أراد وتبوأوا مكان الإيمان وبلد الإيمان ، فحذف ، وتبوأ المكان : حله [1]

وقوله : ﴿ يتبوأ منها حيث يشاء ﴾ كناية عن تصرفه فى جميع مملكة مصر ، فهو عند حلوله بمكان من المملكة لو شاء أن يحل بغيره لفعل دون أن يمنعه مانع من الحلول فى أى مكان فيها ، كما يتصرف ويتنقل الرجل فى منزله الخاص .

وقوله : ﴿ نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ بيان لكمال قدرته ونفاذ إرادته سبحانه .

وهو تذييل لبيان ما أصاب يوسف ـ عليه السلام ـ من الرحمة فى أحواله فى الدنيا ، جزاء لصبره وعاقبة لفعله ، لقد صبر صبرا كثيرا على إخوته ، وعلى كيد امرأة العزيز له ، وعلى كيد النسوة ، وعلى أذى السجن وما فيه ، والله لا يضيع أجر المحسنين الذين أحسنوا العمل . ولأجره فى الآخرة خير من ذلك له ولكل من آمن واتقى .

---

(١) لسان العرب ٣٩/١ .

قال أبو حيان [1] : " وفى الآيى إشارة إلى أن حال يوسف فـــى الآخرة خير من حالته العظيمة فى الدنيا "

ومن جمال التعبير القرآنى فى قوله ﴿ .. خير للذين آمنـــوا وكانوا يتقون ﴾ أن عبر فى جانب الإيمان بصيغة الماضى ، وفـــى جانب التقوى بصيغة المضارع ؛ لأن الإيمان عقد القلب الجازم فهو حاصل دفعة واحدة وأما التقوى فهى متجددة بتجدد أســـباب الأمـــر والنهى واختلاف الأعمال والأزمان .

(١) تفسير البحر المحيط ٢٩٢/٦ .

اللقاء الأول بين يوسف وإخوته وطلبه أن يحضروا أخيهم من أبيهم

قال تعالى : ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ(٥٨)وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ(٥٩)فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلا تَقْرَبُونِ(٦٠)قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ(٦١)وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(٦٢) فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَاأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ(٦٣)قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ(٦٤)وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَاأَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ(٦٥) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ(٦٦) ﴾ .

انتقلت السورة بنا مباشرة بعد حديثها عن تمكين الله تعالى ليوسف – عليه السلام – فى الأرض إلى الحديث عن لقاء يوسف بإخوته وعما دار بينه وبينهم من محاورات ، وعن إكرامه لهم .

قال الفخر الرازى [١] : " اعلم أنه لما عم القحط فى البلاد ، ووصل أيضا إلى البلدة التى كان يسكنها يعقوب – عليه السلام – وصعب

---

(١) تفسير الفخر الرازى ١٨/١٦٥ .

الزمان عليهم فقال لبنيه إن بمصر رجلا صالحا يمير الناس فاذهبوا إليه بدراهمكم وخذوا الطعام فخرجوا إليه وهم عشرة ودخلوا على يوسف ـ عليه السلام ـ وصارت هذه الواقعة كالسبب فى اجتماع يوسف ـ عليه السلام ـ مع إخوته وظهور صدق ما أخبر الله تعالى عنه فى قوله ليوسف حال ما ألقوه فى الجب : ﴿ **لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون** ﴾ وكان مجيئهم فى السنة الثانية من سني القحط . وإنما جاء إخوته عدا بنيامين لصغره ، وإنما رحلوا للميرة كلهم . لأن التزويد من الطعام كان بتقدير يراعى فيه عدد الممتارين وأيضا ليكونوا جماعة لا يطمع فيهم قطاع الطريق (١) .

وعرف يوسف ـ عليه السلام ـ إخوته بعد مضى سنين على فراقهم لقوة فراسته وذكائه دونهم .

وجملة ﴿ **وهم له منكرون** ﴾ عطف على جملة ﴿ **فعرفهم** ﴾ . ووقع الإخبار عنهم بالجملة الأسمية للدلالة على أن عدم معرفتهم به أمر ثابت متمكن منهم ، وكان الإخبار عن معرفته إياهم بالجملة الفعلية المفيدة للتجدد للدلالة على أن معرفته إياهم حصلت بحدثان رؤيته إياهم دون توسم وتأمل .

قال الزمخشرى (٢) : " لم يعرفوه لطول العهد ومفارقته إياهم فى سن الحداثة ، ولاعتقادهم أنه قد هلك ولذهابه عن أوهامهم لقلة فكرهم فيه واهتمامهم بشأنه ولبعد حاله التى بلغها من الملك والسلطان عن حاله التى فارقوه عليها طريحا فى البئر مشريا بدارهم معدودة حتى لو تخيل

---

(١) تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد عاشور مجلد ٧ ج ١٢ ص ١٢ .

(٢) تفسير الزمخشرى ٢/٢٦٤ .

لهم أنه هو لكذبوا أنفسهم وظنونهم ولأن المُلك مما يبدل الزى ويلبس صاحبه من التهيب والإستعظام ما ينكر له المعروف . وقيل : رأوه على زى فرعون عليه ثياب الحرير جالسا على سرير فى عنقه طوق من ذهب وعلى رأسه تاج فما خطر ببالهم أنه هو . وقيل : ما رأوه إلا من بعيد بينهم وبينه مسافة وحجاب وما وقفوا إلا حيث يقف طلاب الحوائج وإنما عرفهم لأنه فارقهم وهم رجال ورأى زيهم قريبا من زيهم إذ ذاك ، ولأن همته كانت معقودة بهم وبمعرفتهم فكان يتأمل ويتفطن " أ . هـ

وقال الدكتور / سيد طنطاوى (١) : " ويؤخذ من هذه الآية الكريمة أن المجاعة التى حدثت فى السبع السنين الشداد شملت مصر وما جاورها من البلاد .

كما يؤخذ منها أن مصر كانت محط أنظار المعسرين من مختلف البلاد بفضل حسن تدبير يوسف ــ عليه السلام ــ وأخذه الأمور بالعدالة والرحمة وسهره على مصالح الناس ، ومراقبته لشئون بيع الطعام ، وعدم الاعتماد على غيره حتى إن إخوته قد دخلوا عليه وحده ، دون غيره من المسؤلين فى مصر " أ .هـ

قلت : ودخولهم عليه يدل على أنه كان يراقب أمر بيع الطعام بحضوره ، خشية إضاعة الأقوات لأن بها حياة الأمة .

ويستفاد من ذلك أنه على كل مسؤل أن يراقب بنفسه العمل الذى وُكل إليه واستُرعىَّ عليه ، ليسود الأمن والأمان والخير والرخاء .

قوله ﴿ **ولما جهزهم بجهازهم قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم** ﴾

---

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم مجلد ٧ ص ٣٨٤ .

أصل الجهاز ــ بفتح الجيم وكسرها ــ : ما يحتاج إليه المسافر من زاد ومتاع ، يقال : جهزت المسافر ، أى : هيأت له جهازه الذى يحتاج إليه فى سفره ، ومنه جهاز العروس وهو ما تزف به إلى زوجها ، وجهاز الميت وهو ما يحتاج إليه فى دفنه .

والمعنى : أن يوسف ــ عليه السلام ــ بعد أن دخل عليه إخوته وعرفهم ، أكرم وفادتهم ، وهيأ لهم كل ما يحتاجون من طعام وغيره .

أما قوله لهم : ﴿ **ائتونى بأخ لكم من أبيكم** ﴾ يستلزم أن حديثا نشأ بينه وبينهم عرف منه أن لهم أخا من أبيهم لم يحضر معهم .

قال أبو حيان [1] : " روى أنه لما عرفهم أراد أن يخبروه بجميع أمرهم ، فباحثهم بأن قال لهم ترجمانه : أظنكم جواسيس ، فاحتاجوا إلى التعريف بأنفسهم فقالوا : نحن أبناء رجل صديق ، وكنا اثنى عشر ، ذهب من واحد فى البرية ، وبقى أصغرنا عند أبينا ، وجئنا نحن للميرة ، وسقنا بعير الباقى منا وكانوا عشرة ولهم أحد عشر بعيرا . فقال لهم يوسف : ولم تخلف أحدكم ؟ قالوا لمحبة أبينا فيه قال فأتونى بهذا الأخ حتى أعلم حقيقة قولكم ، وأرى لم أحبه أبوكم أكثر منكم إن كنتم صادقين ؟ " أ . هـ

ونكَّر " أخ " ولم يقل " بأخيكم " مبالغة فى كونه لا يريد أن يتعرف لهم ، ولا أنه يدرى من هو .

وقوله : ﴿ **من أبيكم** ﴾ حال من ﴿ **أخ لكم** ﴾ أى : أخ لكم حالة كونه من أبيكم وليس من أمكم ، أى : ليس بشقيق .

---

(١) فى البحر المحيط ٦/٢٩٣ .

وهذا أيضا من باب المبالغة فى عدم إرادته فى الكشف لهم عن نفسه ، حتى كأنه لا معرفة له بهم .

ثم ذكر ما يحرضهم به على الإتيان بأخيهم فقال :

﴿ ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين ﴾

ترغيب واستمالة لهم فى العود إليه ومعهم أخيهم " بنيامين "

أى : ألا ترون أنى أوفى الكيل لكم ولا أبخس منه شيئا وأزيدكم حمل بعير آخر لأجل أخيكم .

وجملة **﴿ وأنا خير المنزلين ﴾** حالية أى : والحال أنى خير المضيفين ، وقد شاهدوا ذلك بأنفسهم ، لأنه أحسن ضيافتهم مدة إقامتهم عنده .

قال الفخر الرازى [1] : " هذا الكلام يضعف قول من يقول من المفسرين إنه اتهمهم ونسبهم إلى أنهم جواسيس ومن يشافههم بهذا الكلام فلا يليق بهم أن يقول لهم **﴿ ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين ﴾** ، وأيضا يبعد من يوسف ـ عليه السلام ـ مع كونه صديقا أن يقول لهم أنتم جواسيس وعيون ، مع أنه يعرف براءتهم عن هذه التهمة ، لأن البهتان لا يليق بحال الصديق "

ثم اتبع هذا الترغيب بالترهيب فقال : ﴿ فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون ﴾

أى : فإن لم تأتونى بأخيكم فى لقاءكم القادم معى ، فإنى لن أبيعكم شيئا مما تريدون من الأطعمة وغيرها ، وفضلا عن ذلك فلا ترجعون

---

(١) تفسير الفخر الرازى ١٨/١٦٧ .

ولا تقربوا بلادى . وهذا هو نهاية التخويف والـترهيب لأنـهم كـانوا محتاجين إلى تحصيل الطعام ولا يمكنهم تحصيله إلا من عنده فعند ذلك قالوا :

﴿ سنراود عنه أباه وإنا له لفاعلون ﴾ أى : سنجتهد ونحتال بكـل حيلة ، ونخادعه بكل خدعة حتى يسلم لنا بنيامين ، وإنا لفاعلون هـذه المراودة ، والغرض من التكرير التأكيد .

وقال الدكتور / سيد طنطاوى [1] : " وقولهم هذا يـدل دلالـة واضحة على أنهم كانوا يشعرون بأن إحضار أخيهم لأبيهم معـهم ٠٠ ليس أمرا سهلا أو ميسورا ، وإنما يحتاج إلى جهد كبـير مـع أبيهم حتى يقنعوه بإرساله معهم "

ثم بين سبحانه ما فعله يوسف مع إخوته وهـم علـى وشـك الرحيل فقال :

﴿ وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونـها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون ﴾

الفتيان : جمع فتى ، وهو من كان فى مبدأ الشباب ويطلق علـى الخادم تلطفا .

والمراد بالبضاعة هنا هى التى وصلوا بها من بلادهم ليشتروا بـها الطعام وكانت نعالا وجلودا .

والرحال : جمع رحل وهو ما يوضع على البعير مـن متـاع الراكب .

---

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم المجلد ٣٨٦/٧ .

والمعنى : وقال يوسف ـ عليه السلام ـ لفتيانه الكيالين : اجعلوا بضاعتهم التى اشتروا بها الطعام فى أمتعتهم ، وافعلوا ذلك دون أن يشعروا بكم .

وقوله : ﴿ **لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم** ﴾ تعليل لأمر فتيانه بجعل البضاعة فى رحال إخوته . إذ أن معرفتهم بأن بضاعتهم قد ردت إليهم لا تتم إلا بعد رجوعهم وتفريغهم إياها .

وقوله : ﴿ **لعلهم يرجعون** ﴾ جواب للأمر .

قال الفخر الرازى (١) : " اختلف المفسرون فى السبب الذى لأجله أمر يوسف بوضع بضاعتهم فى رحالهم على وجوه :

الأول : أنهم متى فتحوا المتاع فوجدوا بضاعتهم فيه ، علموا أن ذلك كان كرما من يوسف وسخاء محضا فيبعثهم ذلك على العود إليه والحرص على معاملته .

الثانى : خاف أن لا يكون عند أبيه من الورق ما يرجعون به مرة أخرى .

الثالث : أراد به التوسعة على أبيه ، لأن الزمان كان زمان القحط .

الرابع : رأى أن أخذ ثمن الطعام من أبيه وإخوته مع شدة حاجتهم إلى الطعام لؤم .

الخامس : قال الفراء : إنهم متى شاهدوا بضاعتهم فى رحالهم . وقع فى قلوبهم أنهم وضعوا تلك البضاعة فى رحالهم على سبيل السهو وهم أنبياء وأولاد الأنبياء فرجعوا ليعرفوا السبب فيه ، أو رجعوا ليردوا المال إلى مالكه .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ١٨/١٦٨ـ ١٦٩ .

السادس : أراد أن يحسن إليهم على وجه لا يلحقهم به عيب ولامنة .

السابع : مقصوده أن يعرفوا أنه لا يطلب ذلك الأخ لأجل الإيذاء والظلم ولا لطلب زيادة فى الثمن .

الثامن : أن يعرف أبوه أنه أكرمهم وطلبة له لمزيد الإكرام فلا يثقل على أبيه ارسال أخيه .

التاسع : أراد أن يكون ذلك المال معونة لهم على شدة الزمان ، وكان يخاف اللصوص من قطع الطريق . فوضع تلك الدراهم ـ يعنى الفخر الرازى أن البضاعة كانت دراهم ـ فى رحالهم حتى تبقى مخفية إلى أن يصلوا إلى أبيهم .

العاشر : أراد أن يقابل مبالغتهم فى الإساءة بمبالغته فى الإحسان إليهم .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حدثتنا عما دار بين يوسف وإخوته بعد أن دخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ، وبعد أن طلب منهم أن يعودوا ومعهم أخوهم لأبيهم .. فماذا كان بعد ذلك ؟

لقد حكت لنا السورة ما دار بين إخوة يوسف وبين أبيهم من محاورات طلبوا منه أن يأذن لهم فى اصطحاب " بنيامين " معهم فى رحلتهم القادمة إلى مصر ، كما حكت ما رد به أبوهم عليهم قال تعالى :

﴿ فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون ﴾ .

المراد بالكيل : الطعام المكيل الذى هم فى حاجة إليه .

ومعنى **﴿ منع منا الكيل ﴾** حيل بيننا وبين الكيل فى المستقبل . فلا كيل بعد هذه المرة إن لم ترسل معنا أخانا بنيامين . فالممنوع هو ابتداء الكيل منهم .

وقرأ حمزه والكسائى " فأرسل معنا أخانا يكتل " ــ بالياء ــ ، لهذا قال الفخر الرازى [1] ما ملخصه : " إذا كان بالياء تقوى القول : أنهم لما طلبوا الطعام لأبيهم وللأخ الباقى عنده منعوا منه ، فقولهم ﴿ منع منا الكيل ﴾ إشارة إليه "

ولكن هذا لا يلزم ، لأن الكلام لا يخلوا من أحد وجهين :

أن يكون المعنى : فأرسل أخانا يكتل معنا ، فيكون للجميع .

أو يكون المعنى : أنهم منعوا جميعا من الكيل إن لم يحضر معهم أخيهم .

وهذا هو المراد ، لأنه ــ عليه السلام ــ قال لهم : ﴿ **إن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون** ﴾ ثم أكدوا لأبيهم حفظهم له فقالوا :

﴿ **وإنا له لحافظون** ﴾ أى : قالوا : لا تخف عليه سنرده إليك ، وأكدوا حفظه بالجملة الاسمية الدالة على الثبات وبحرف التوكيد .

ولكن قولهم هذا حرك الأحزان والآلام فى نفس يعقوب ــ عليه السلام ــ لأنه تذكر ما قالوه فى شأن يوسف ، قالوا مثل ذلك :

﴿ أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون ﴾

لذا رد عليهم فى استنكار بقوله :

﴿ قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل .. ﴾

يعنى كيف آمنكم على ولدى بنيامين وقد فعلتم بأخيه يوسف ما فعلتم وإنكم ذكرتم مثل هذا الكلام فى يوسف وضمنتم لى حفظه وقلتم وإنا له لحافظون .. فلما لم يحصل الأمان والحفظ هنالك فكيف يحصل هاهنا . فالإستفهام انكارى فيه معنى النفى .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ١٨/١٦٩ .

ثم قال : ﴿ **فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين** ﴾

قال الشوكانى [1] : " لعل هذا إضمارا . والتقدير : فتوكل يعقـــوب على الله ودفعه إليهم ، وقال : فالله خير حافظا ... ومعنى الآيـة : أن حفظ الله إياه خير من حفظهم له ، لما وكل يعقـــوب حفظـه إلــى الله سبحانه حفظه وأرجعه إليه . ولما قال فى يوسف ﴿ **وأخاف أن يأكلــه الذئب** ﴾ وقع له الإمتحان ما وقع . "

قال كعب الأخبار : " لما قال يعقوب : ﴿ **فالله خير حافظا** ﴾ قـــال الله تعالى : وعزتى وجلالى لأردن عليك ابنيك كليهما بعد ما توكلــت علىّ " [2] .

قرأ أهل المدينة " حفظا " وهو منصوب على التمييز ، وهى قراءة ابـى عمرو وعاصم وابن عامر . وقرأ سائر الكوفيين " حافظا " وهو منصـــوب على الحال .

وبعد أن طلب من الله الحفظ لولده طلب منه سبحانه الرحمة بـه فقال : ﴿ **وهو أرحم والراحمين** ﴾ أى فأرجوا الله أن يرحمنى بحفظـه ولا يجمع علىّ مصيبتين .

" لا يلدغ مؤمن من جحر مرتين "

الظاهر من قول يعقوب ـــ عليه السلام ـــ ﴿ **فالله خير حافظا وهـو أرحم الراحمين** ﴾ موافقتة على إرسال " بنيامين " مع إخوته ، وبقيـــة القصة تؤكد ذلك . ولكنى أتساءل لمَ بعثه معهم ؟ وقد شاهد ما شـــاهد ،

---

(١) فى فتح القدير ٣/٣٨ـ٣٩ .

(٢) انظر تفسير القرطبى ٩/١٤٧ .

وحسرة يوسف ما زالت تحرق قلبه ، فكان عليه أن يحذرهم ويخاف سوء العاقبة . كما تذكرت حديث رسول الله ﷺ : " لا يلدغ مؤمن من جحر واحد مرتين " (1) أنا لا أشك فى إيمان سيدنا يعقوب ، **ولكن أرى** : أن الحلم ليس محمودا مطلقا .

وقد أجاب على ذلك الإمام الخازن (2) **فقال** : " وإنما أرسله معهم وقد شاهد ما فعلوا بيوسف ، لأنه لم يشاهد بينهم وبين بنيامين من الحقد والحسد مثل ما كان بينهم وبين يوسف .

أو أن يعقوب شاهد منهم الخير والصلاح لما كبروا فأرسله معهم أو أن شدة القحط وضيق الوقت أحوجه إلى ذلك " .

قلت : بالإضافة إلى ما سبق ، لعل الله تعالى أوحى إليه وضمن حفظه وإيصاله إليه .

وبعد ما أخذ أبناء يعقوب ـ عليه السلام ـ الموافقة من أبيهم عن طريق التلميح بإمكانية إرساله معهم وذلك من قوله ﴿ **والله خير حافظا ...** ﴾ ، اتجهوا إلى أمتعتهم ليخرجوا ما بها من زاد حملوه من مصر ، فكانت المفاجأة التى حكاها القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ **ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ..** ﴾

أى : وحين فتحوا أوعيتهم التى بداخلها الطعام الذى اشتروه من عزيز مصر وجدوا بضاعتهم التى كانوا قد أعطوها ثمنا للطعام قد ردت إليهم ، فدهشوا وقالوا لأبيهم :

---

(1) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب الأدب . باب لا يلدغ مؤمن من جحر مرتين ١٣/١٤٦ـ١٤٧ من الفتح .

(2) تفسير الخازن ٢/٢٩٧ .

﴿ يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردت إلينا ﴾ " ما " في قوله ﴿ ما نبغي ﴾ : يجوز أن تكون " ما " للإستفهام الإنكارى .

والمعنى : لما رأوا أنه رد إليهم بضاعتهم قالوا : ما نبغي بعد هذا ، أى : أعطانا الطعام ، ثم رد علينا ثمن الطعام على أحسن الوجوه ، فأى شئ نبغي وراء ذلك ؟

ويجوز كون " ما " نافية ، والمعنى : لا نبغي شيئا آخر ، هذه بضاعتنا ردت إلينا ، فهى كافية لثمن الطعام فى الذهاب الثانى .

وعلى هذا فالمعنى واحد فى الحالتين ، لأن الاستفهام الإنكارى في معنى النفى .

وجملة : ﴿ ونمير أهلنا ﴾ معطوف على محذوف يفهم من الكلام أى : هذه بضاعتنا ردت إلينا فننتفع ونستعين بها فى معاشنا ونمير أهلنا أى نأتيهم بالميرة .

والميرة : بكسر الميم وسكون الياء ـ هي الطعام المجلوب الذى يؤتى به من مكان إلى آخر .

﴿ ونحفظ أخانا ﴾ مما تخاف عليه حتى نرده إليك . وهى معطوفة على قوله ﴿ ونمير أهلنا ﴾

﴿ ونزداد كيل بعير ﴾ أى : ويعطينا العزيز حمل بعير من الزاد ، زيادة على هذه المرة ، لأجل أخينا .

وجملة ﴿ ونزداد كيل بعير ﴾ دليل على حرصهم على سلامة أخيهم لأن فى سلامته فائدة لهم بازدياد كيل بعير .

قال الشيخ سيد قطب [1] : " ويبـــدوا مــن قولــهم " ونـــزداد كيل بعير " أن يوســـف ــ عليــه الســـلام ــ كـــان يعطـــى كـــل واحد وسق بعير ــ وهو قـــدر معـــروف ولـــم يكـــن يبيـــع كـــل مشتر ما يريد ، وكان ذلك من الحكمـــة فـــى ســـنوات الجـــدب ، كى يظل هناك قوت للجميع " أ . هـــ

فهذه الجمل مرتبة ترتيبا بديعا ؛ لأن بعضها متولد عن بعض .

وجملة ﴿ **ذلك كيل يسير** ﴾ استئنافية وقعت تعليلا لما سبق .

والإشارة ﴿ **ذلك** ﴾ إلى الطعام الذى فى متاعهم أى : ذلك الطعام الذى أعطانا إياه عزيز مصر طعام يسير ، لا يكفينا إلا لمدة قليلة مـــن الزمان ، ويجب ان نعود مرة أخرى إلى مصر لناتى بطعام آخر .

قال الدكتور / سيد طنطاوى [2] : " وفى هذه الجمل المتعددة التـــى حكاها القرآن عنهم ، تحريض واضح منهم لأبيهم على أن يسمح لـــهم باصطحاب " بنيامين " معهم فى رحلتهم القادمة إلى مصر .

ومن مظاهر هذا التحريض : مدحـــهم لعزيـــز مصـــر الـــذى رد لهم أثمان مشـــترياتهم ، وحاجاتـــهم الملحـــة إلـــى اســـتجلاب طعام جديد ، وتعهدهم بحفظ أخيـــهم وازديـــاد الأطعمـــة بســـبب وجوده معهم " . أ . هـــ

---

(١) فى ظلال القرآن ٢٠١٧/١٣ .

(٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم للإمام الأكبر شيخ الأزهر د / سيد طنطاوى مجلد ٣٩٠/٧ــ٣٩١.

أخذ سيدنا يعقوب العهد على أبناءه ليعطيهم " بنيامين "

لما استجاب سيدنا يعقوب ـ عليه السلام ـ لأبنائه بأن يرسل معهم " بنيامين " اشترط لهذه الاستجابة بأن يعطوه عهدا مؤكدا بإشهاد الله وقسمه ليرجعن ابنه له ... وقد حكى القرآن الكريم هذا فى قوله تعالى :

﴿ قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتننى به إلا أن يحاط بكم ﴾

لقد جاءت ألفاظ القرآن الكريم موافقة لما كانت عليه عادات العرب فى الجاهلية ، وذلك فى قوله **﴿ تؤتون ﴾** ، قال الشيخ ابن عاشور (١) : " ولعل سبب إطلاق فعل الإعطاء ، أن الحالف كان فى العصور القديمة يغطى المحلوف له شيئا تذكرة لليمين مثل سوطه أو خاتمه ، او أنهم كانوا يضعون عند صاحب الحق ضمانا يكون رهينة عنده "

والموثق : العهد الموثق باليمين ، وجمعه مواثيق .

وسمى الحلف بالله ـ تعالى ـ موثقا ، لأنه مما تؤكد به العهود. وتقوى وقد أذن الله ـ تعالى ـ بذلك عند وجود ما يقتضى الحلف به سبحانه .

و **﴿ من الله ﴾** صفة ل **﴿ موثقا ﴾** ، و **﴿ من ﴾** للابتداء ، أى : موثقا صادرا من الله تعالى .

ومعنى ذلك : أن يجعلوا الله شاهدا عليهم فيما وعدوا به بأن يحلفوا بالله فتصير شهادة الله عليهم كتوثق صادر من الله تعالى بهذا الاعتبار . وذلك أن

---

(١) تفسير التحرير والتنوير المجلد السابع ج ١٣ ص ١٨ .

يقولوا : لك ميثاق الله أو عهد الله أو نحو ذلك ، وبهذا يضاف الميثاق إلـــى اسم الجلالة كأن الحالف استودع الله ما به التوثق للمحلوف له .

وجملة : ﴿ **لتأتننى به** ﴾ جواب لقسم محذوف دل عليه " موثقا " .

ومعنى : ﴿ **يحاط بكم** ﴾ يحيط بكم مُحيط . والإحاطـــة : الأخـذ بأسر أو هلاك مما هو خارج عن قدرتهم .

والإستثناء فى ﴿ **إلا أن يحاط بكم** ﴾ استثناء من عموم الأحوال والتقدير : لن أرسله معكم حتى تحلفوا بالله وتقولوا : والله لنـــأتينك به معنا عند عودتنا ، فى جميع الأحوال والظروف إلا فـــى حـــال هلاككم أو فى حال عجزكم التام عن مدافعة أمر حال بينكم وبيـــن الإتيان به معكم .

وقوله : ﴿ **فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيــل** ﴾ أى : فلما أعطى الأبناء أباهم العهد الموثق باليمين الذى اشترطه عليهم ، قال : الله شهيد على ما قاله واشترطه ، وعلى ما أجابوه به : أى : إنه سبحانه رقيب عليه وأمره موكول إليه ، فهو الذى يوفق للوفـــاء بالوعد والصدق فيما أعطوه من عهد .

*****

وصية يعقوب عليه السلام لأبنائه الذاهبين إلى مصر

لم يترك يعقوب ــ عليه السلام ــ أبناءه الذاهبين إلى مصر بدون وصية . وهذا شأن الآباء دائما يزودوا أبنائهم بتجاربهم ونصائحهم ــ فكانت وصيته لهم ألا يدخلوا مصر من باب واحد ولكن يدخلوها من أبواب متفرقة ، حتى لا يحسدهم حاسد أو يكيد لهم كائد فيحل بهم مكروه .

قال تعالى : **﴿ وَقَالَ يَابَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ(٦٧)وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(٦٨) ﴾** .

قوله **﴿ وقال يابنى ﴾** معطوف على جملة **﴿ قال الله على ما نقول وكيل ﴾** وإعادة فعل **﴿ قال ﴾** للإشارة إلى اختلاف زمن القولين ، فقوله **﴿ يابنى لا تدخلوا من باب واحد ﴾** صادر فى وقت إزماعهم الرحيل .

والأبواب : أبواب المدينة بمصر . وكانت مدينة " منفيس " من أعظم مدن العالم فهى ذات أبواب .قال القرطبى [1] : " وكانت مصر لها أربعة أبواب " .

---

(١) تفسير القرطبى ١٤٨/٩ .

وقد ذكر المفسرون أسبابا متعددة لوصية يعقوب هذه لأبنائه وكلها لها وجاهتها ويمكن ان تكون جميعها مقصودة

الأول : أنه خاف عليهم من العين ، وهو قول جمهور المفسرين .

قال الألوسى [(١)] : " نهاهم ــ عليه السلام ــ عن ذلك حــذرا مــن إصابة العين ، فإنهم كانوا ذوى جمال وشارة حسنة ، وقد اشتهروا بيـن أهل مصر بالزلفى والكرامة التى لم تكن لغيرهم عند الملك فكانوا مظنة لأن يعانوا إذا دخلوا كوكبة واحدة . "

وقال القرطبى [(٢)] : " وإنما خاف عليهم العين لكونهمَ أحــد عشـر رجلا لرجل واحد ، وكانوا أهل جمال وكمال وبسطة ؛ قاله ابن عبـاس والضحاك وقتادة وغيرهم .

ثم قال : إذا كان هذا معنى الآية فيكون فيها دليل علــى التحـرز من العين ، والعين حق ؛ وقد قال رسول الله ﷺ : " إن العين لتدخــل الرجل القبر والجمل القدر " وفى تعوذه ﷺ " أعوذ بكلمات الله التامــة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة " ما يدل على ذلك :

وروى مالك عن محمد بن ابى أمامة بن سهل بن حنيف أنه ســمع أباه يقول : اغتسل أبى سهل بن حنيف بالخرّار فنزع جُبة كانت عليـه ، وعامر بن ربيعة ينظر ، قال : وكان سهل رجلا أبيض حسن الجلــد ، قال : فقال له عامر بن ربيعة : ما رأيت كـاليوم ولا جلـد عـذراء ! فوُعك سهل مكانه واشتد وعكه ، فأتى رسول الله ﷺ فأخبر أن ســهلا وُعِك ... فأتاه رسول الله ﷺ فأخبره سهل بالذى كان من شــأن

(١) روح المعانى ١٥/١٣ .

(٢) تفسير القرطبى ١٤٨/٩ .

عامر ؛ فقال رسول الله ﷺ : " علام يقتل أحدكم أخـــاه ألا بركـــت إن العين حق توضأ له " فتوضأ عامر ، فراح سهل مع رسول الله ﷺ ليس به بأس ؛وفى رواية " أغتسلْ " فغسل له عامر وجهه ويديه ومرفقيـــه وركبتيه وأطراف رجليه وداخل إزاره فى قدح ثم صب عليه ؛ فـــراح سهل مع رسول الله ﷺ ليس به بأس " .

ما هية الحسد :

قال الفخر الرازى [1] : " فى الكشف عن ماهيته فنقـــول : إن أبـــا على الجبائى أنكر هذا المعنى إنكارا بليغا ولم يذكر فى إنكـــاره شـــبهة فضلا عن حجة ، وأما الذين اعترفوا به وأقروا بوجوده فقد ذكروا فيـــه وجوها منها :

قال الحافظ : إنه يمتد من العين أجزاء فتصل بالشخص المستحســن فتؤثر فيه وتسرى فيه كتأثير اللسع والسم والنار .. "

وقال القرطبى [2] : " قال الأصمعى : رأيت رجلا عيونا ســمع بقرة تحلب فأعجبه شخبها فقال : أيتهن هذه ؟ فقالوا : الفلانية لبقرة أخرى يورون عنها ، فهلكتا جميعا ، الموَرى بها والمورى عنـــها . وقال الأصمعى : وسمعته يقول : إذا رأيت الشئ يعجبنى وجـــدتُ حرارة تخرج من عينى " .

يفهم مما سبق أن العائن يخرج من عينه أشـــعة تؤثـــر علـــى المعيون ، وهذا يوافق ما استحدثه العلم وهو ما يعرف بـــالليزر وهـــو

---

(١) تفسير الفخر الر ازى ١٧٣/١٨ .

(٢) تفسير القرطبى ١٤٩/٩ .

تجميع أشعة تسلط على الجزء المصاب وليكن حصـــوات فـــى جســم الإنسان فتقوم بتفتيتها . وهكذا يقال : " العين فلقت الحجـــر " وهـــا هى ماهية الحسد .

علاج الحسد :

يجب على كل مسلم أعجبه شئ أن يُبَرِّك ، فإنه إذا دعى بالبركـــة صرف المحذور ولا محالة ، أل ترى قوله ــ عليه السلام ــ لعـــامر : " ألا برّكت " فدل على أن العيـــن لا تضـــر ولا تعـــدوا إذا بّـــرك العائن ، وأنها إنما تعدوا إذا لم يبرك . والتبريك أن يقول : تبـــارك الله أحسن الخالقين اللهم بارك فيه .

وعلى العائن إذا أصاب بعينه ولم يبرك فإنه يؤمـــر بالاغتســـال ، ويجبر على ذلك إن أباه ، لأن الأمر على الوجوب ، لا سيما هذا ، فإنه قد يخاف على المعين الهلاك ، ولا ينبغى لأحد أن يمنع أخاه ما ينتفع به أخوه ولا يضره هو ، ولا سيما إذا كان بسببه وكان هو الجانى عليه .

كما أن الأدعية والرقى من جملة الأسباب لدفع أذى العين .

ومما يدل على نفع الرقية من العين مشروعيتها كما تـــدل عليـــه الآثار ، وقد جاء فى بعضها أنه ﷺ قال : " لا رقية إلا مـــن عيـــن أو حُمَّة " والمراد منه أنه لا رقية أولى وأنفع من رقية العين والحمة .

وقال الألوسى [1] : " وينبغى لمن علم من نفسه أنـــه ذو عيـــن أن لا ينظر إلى شئ نظر إعجاب وأن يذكر الله تعالى عند رؤية مـــا يستحسن . فقد ذكر غير واحد من المجربين أنه إذا فعـــل ذلـــك لا

---

(١) روح المعانى ١٣/١٨ .

يؤثر ، وَنقل الأجهورى أنه يندب أنه يعوذ المعين فيقول : اللهم بـارك فيه ولا تضره ما شاء الله لا قوة إلا بالله .

وقال : وفى تحفة المحتاج أن من أدويتها أى العين المجربة التـى أمر النبى ﷺ بها أن يتوضأ العائن ... وأن يدعو للمعين وأن يقـول المعين : ما شاء الله لا قوة إلا بالله حصنت نفسى بالحى القيوم الـذى لا يموت أبدا ودفعت عنها السوء بألف لا حول ولا قوة إلا بالله .

وقال : ويسن عند القاضى لمن رأى نفسه سليمة وأحواله معتدلة أن يقول ذلك .

القول الثانى : أنه نهاهم أن يدخلوها من بـاب واحـد خشـية ان يسترعى عددهم أبصار أهل المدينة وحراسها وأزياؤهم أزياء الغربـاء من أهل المدينة أن يوجسوا منهم خيفة من تجسـس أو سـرقة فربمـا سجنوهم أو رصدوا الأعين إليهم . فيكون ذلك ضرا لهم وحـائلا دون سرعة وصولهم إلى يوسف ـ عليه السلام ـ ودون قضاء حاجتـهم . وقد قيل فى الحكمة : استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان .

ولما كان شأن إقامة الحراس والأرصاد أن تكـون علـى أبـواب المدينة اقتصر على تحذيرهم من الدخـول مـن بـاب واحـد دون أن يحذرهم من المشى فى سكة واحدة من سـكك المدينـة ووثـق بأنـهم عارفون بسكك المدينة فلم يخش ضلالهم فيها [1] .

---

(١) انظر تفسير التحرير والتنوير للشيخ / محمد بن عاشور مجلـد ٧ ج ١٣ ص ٢٠ـ٢١ .

القول الثالث : قال الفخر الرازى [1] : " أنه ــ عليه السلام ــ كان عالما بأن ملك مصر هو ولده يوسف إلا أن الله تعالى ما أذن له فى إظهار ذلك فلما بعث أبناءه إليه قال ﴿ **لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة** ﴾ وكان غرضه أن يصل بنيامين إلى يوسف فى وقت الخلوة ، وهذا قول ابراهيم النخعى " أ ٠ هـ

وقيل : طمع بافتراقهم أن يتسمعوا خبر يوسف .

وجملة ﴿ **وما اغنى عنكم من الله من شئ** ﴾ معترضة فى آخر الكلام ، أى : وإنى بوصيتى هذه لكم ، لا أدفع عنكم شيئا قدره الله عليكم .

فإن دخلوهم من الأبواب المتفرقة ، لن يحول بينهم وبين ما قدره ــ تعالى ــ وأراده لهم ، وهذا من الأدب والوقوف عند ما أمر الله ، فإن صادف ما قدره فقد حصل فائدتان ، وإن خالف ما قدره حصلت فائدة امتثال أوامره واقتناع النفس بعدم التفريط .

وجملة ﴿ **إن الحكم إلا لله** ﴾ فى موضع التعليل لمضمون ﴿ **وما أغنى عنكم من الله من شئ** ﴾

والحكم : هنا بمعنى التصرف والتقدير ، أى : ما الحكم فى كل شئ إلا لله ــ تعالى ــ لا ينازعه فى ذلك منازع . وليس للعبد أن ينازع مراد الله تعالى فى نفس الأمر ، ولكن واجبه أن يتطلب الأمور من أسبابها ، لأن الله أمر بذلك .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ١٨/١٧٤ .

وجملة ﴿ **عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون** ﴾ في موضع البيان لجملة ﴿ **وما أغنى عنكم من الله من شئ** ﴾ ليبين لهم أن وصيته بأخذ الأسباب مع التنبيه على الاعتماد على الله هو معنى التوكل الذى يضل فى فهمه كثير من الناس .

إذ أن كلا من التوكل والأخذ بالأسباب مطلوب من العبد ، إلا أن العاقل عندما يأخذ فى الأسباب يجزم بأن الحكم لله وحده في كل الأمور ، وأن الأسباب ما هى إلا أمور عادية ، يوجد الله ـ تعالى ـ معها ما يريد فى إيجاده ، ويمنع ما يريد منعه ، فهو الفعال لما يريد .

ويعقوب ـ عليه السلام ـ عندما أوصى أبناءه بهذه الوصية ، أراد بها تعليمهم الاعتماد على توفيق الله ولطفه ، مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة تادبا مع الله تعالى واضع الأسباب ومقدر الألطاف فى رعاية الحالين ، لأنا لا نستطيع أن نطلع على مراد الله تعالى .

قال الشيخ محمد بن عاشور (1) : "وهذا سر مسألة القدر كما أشار إليه قول النبى ﷺ " اعملوا فكل ميسر لما خلق له " (2) وفى الآثر " إذا أراد الله أمرا يسر أسبابه " قال الله تعالى : ﴿ **ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا** ﴾ (3) . ذلك أن شأن الأسباب أن تحصل عندها مسبباتها . وقد يتخلف ذلك بمعارضة أسباب أخرى مضادة لتلك الأسباب حاصلة فى وقت واحد ، أو لكون

---

(1) تفسير التحرير والتنوير مجلد ٧ ج ١٣ ص ٢١ـ٢٢ .

(2) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب القدر . باب جف القلم ٢٩٣/١٤ ـ ٢٩٤ من الفتح .

(3) سورة الإسراء الآية ١٩ .

السبب فى مصادفة المسبب المقصود . ولولا نظام الأسباب ومراعاتها لصار المجتمع البشرى هملا وهمجا " . أ . هـ

ثم بين سبحانه أن الأبناء قد امتثلوا أمر أبيهم لهم فقال :

﴿ ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغنى عنهم من الله من شئ إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها ﴾

جملة اعتراضية .

وقد أغنت جملة : **﴿ ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ﴾** عن جمل كثيرة هى أنهم ارتحلوا ودخلوا من حيث أمرهم أبوهم ، ولما دخلوا من حيث أمرهم سلموا ما كان يخافه عليهم .

وما كان دخولهم من حيث أمرهم يغنى عنهم من الله من شئ لو قدر الله أن يحاط بهم .

ومعنى : **﴿ ما كان يغنى عنهم من الله من شئ ﴾** أنه ما كان يرد عنهم قضاء الله لولا أن الله قدر سلامتهم .

وقوله : **﴿ إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها ﴾** أى : إن يعقوب كان عليما بأن الحذر لا يغنى من القدر ، ولكن كانت هناك حاجة تدور بخلده ، وهى خوفه عليهم من العين ومن أن ينالهم مكروه فى هذه الرحلة إذا دخلوا من باب واحد . وتعليمهم الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله .

وجملة **﴿ وإنه لذو علم لما علمناه ﴾** معترضة بين جملة **﴿ ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ... ﴾** وبين جملة **﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾**

والمعنى : وإن يعقوب عليه السلام لذو علم عظيم ، لما علمناه من تأويل الرؤيا الصادقة ، واعتقاده أن الإنسان يجب عليه في كل أمر يحاوله أن يتخذ له من الأسباب ما يصل به إلى غرضه ، ثم يتوكل بعد ذلك على الله .

وقوله : ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ أي : لا يعلمون ما يعلمه يعقوب ـ عليه السلام ـ من أن الأخذ بالأسباب لا يتنافى مع التوكل على الله ـ تعالى ـ أو : ولكن أكثر الناس لا يعلمون ما أعطاه الله ـ تعالى ـ لأنبيائه وأصفيائه من العلم والمعرفة وحسن التأني للأمور .

****

اللقاء الثانى بين يوسف وإخوته وتدبير حيلة لإبقاء أخيه بنيامين عنده

قال الله تعالى : ﴿ ولَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٦٩)فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ(٧٠)قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ(٧١)قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ(٧٢)قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ(٧٣)قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ(٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ(٧٥)فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ(٧٦)قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ(٧٧) قَالُوا يَاأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ(٧٨)قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ(٧٩)فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي

أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ(٨٠) ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَاأَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ(٨١)وَاسْأَلْ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ(٨٢)قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(٨٣)وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاأَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ(٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنْ الْهَالِكِينَ(٨٥)قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ(٨٦)يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ(٨٧) ﴾

اخبار يوسف لأخيه عن ذات نفسه :

قال تعالى : ﴿ ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إنى أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون ﴾

ذكر الله تعالى ما كان من أمرهم حين دخلوا بأخيهم بنيامين على شقيقه يوسف ، وإيوائه إليه ، وإخباره له سرا عنهم بأنه أخوه ، وأمره بكتم ذلك عنهم وسلاه عما كان منهم من الإساءة إليه .

وقوله ﴿ آوى ﴾ من الإيواء بمعنى الضم . يقال : آوى فلان فلاناً إذا ضمه إلي نفسه .

وأطلق الإيواء هنا مجازاً علي الإدناء والتقريب كأنه إرجاع إلي مأوى ، وإنما أدناه ليتمكن من الإسرار إليه بقوله ﴿ إني أنا أخوك ﴾ .

وقوله : ﴿ فلا تبتئس ﴾ إفتعال من البؤس وهو الشدة والضر والبؤس : هو الحزن والكدر ٠أى : فلا يلحقنك بعد الآن بؤس أى مكـــروه ولا شـــدة بسبب ما كانوا يعملون من الجفاء وسوء المعاملة بحسدهم لي ولك ٠

أخرج الطبرى [١]عن ابن اسحاق قال : لما دخلوا يعنى ولد يعقـوب علي يوسف قالوا:هذا أخونا الذي أمرتنا أن نأتيك به قد جئنـــاك بــه ٠ فذكر لي أنة قال لهم : قد أحسنتم وأصبتم وستجدون ذلك عندي ٠٠٠ ثم قال : إني أراكم رجالاً وقد أردت أن أكرمكم ٠٠٠ ثم أنزل كل رجليـن علي حدة ثم أكرمهما وأحسن ضيافتهما ٠

ثم قال :" إني أري هذا الرجل الذي جئتم به ليـس معــه ثــان ، فأضمه إليّ فيكون منزله معي فأنزلهم رجلين رجلين في منازل شـــتي وأنزل أخاه معه فآواه إليه فلما خلا به قال : إني أنا أخوك ٠ أنا يوسف فلا تبتئس بشيُ فعلوه بنا فيما مضي فإن الله قد أحسن إلينا ولا تعلمـــهم شيئا مما أعلمتك " أ٠هـ

وأضاف ابن كثير [٢] فقال :" وتواطأ معه أنه سيحتال علي أن يبقيه عنده معززاً مكرماً معظماً " ٠

أذان المؤذن أن العير قد سرقوا :

ثم بين ــ سبحانه ــ ما فعله يوسف ــ عليه السلام ــ مع اخوتـه ، لكي يبقي أخاه معه فلا يسافر معهم عند رحيلهم فقال :

﴿ فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون ﴾ ٠

---

(١) تفسير الطبرى ١٣/١٠

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٤٦٦

والجهاز كما سبق أن بينا : ما يحتاج إليه المسافر من زاد ومتاع .

والسقاية : إناء من فضة في قول الأكثرين ، وقيل من ذهب . قال ابن زيد:كان الملك يشرب فيه ، ويكيل للناس به من عزة الطعام إذ ذاك قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة [١] .

وهذه السقاية هي التي أطلق عليها القرآن بعد ذلك لفظ الصواع .

ويأبي الدكتور/ابراهيم عوض [٢] ويستغرب أن تكون السقاية التي كان الملك يشرب فيها هى ذلك الصواع الذي كان يستعمل مكيالاً للقمح .

فقال :" ولعلهم قالوا هذا ليسوغوا وجوده هناك . ولكن من قال إن الصواع لا يكون في موضع الأمتيار إلا للكيل ؟ أليس من الممكن أن الملك كان حاضرا عملية الامتيار وكان معه ساقية وشرابه وكأسه؟ أليس هذا أقرب إلي العقل من القول بأنهم كانوا يستخدمون صواع الملك في كيل القمح وكأن الدنيا قد خلت من المكاييل والآنية فلم يجدوا إلا كأس الملك النفيسة ؟ إليس في هذا إساءة إلي الملك بكل جلاله وهيلمانه؟ "

وقال أبو حيان [٣]:" قيل : كانت الدواب تسقي بها ويكال بها ."

وقال الشيخ : سيد قطب [٤] :" وقيل : إنها كانت تستخدم للشرب ، ويستخدم قعرها الداخل المجوف من الناحية الأخرى في كيل القمح ، لندرته وعزته في تلك المجاعة ".

---

(١) انظر المرجع السابق نفس الجزء والصفحة .

(٢) سورة يوسف دراسة أسلوبية فنية مقارنة ص ٨٦.

(٣) تفسير البحر المحيط ٣٠٢/٦ .

(٤) في ظلال القرآن ٢٠١٩/٤ .

ولكنى أميل ألي رأى الدكتور إبراهيم عوض في تفسيره للصواع ٠

أما ما قيل إن الملك كان يشرب فيه ويكال به وتسقي الدواب فيها ٠٠

فكل هذا في رأيي تكلف وإساءة للملك ٠ أيضا كان نصيب كل فرد بضعة جرامات من القمح وليس حمل بعير ٠

والعير : اسم للحمولة من إبل وحمير وما عليها من أحمال وما معها من ركابها ، فهو اسم لمجموع هذه الثلاثة ٠ وأسندت السرقة إلي جميعهم جرياً علي المعتاد من مؤاخذة الجماعة بجرم الواحد منهم ، وقد يكون للتمويه بعدم معرفتهم للسارق ٠

قال أبو حيان [1] :"ونسبة السرقة إليهم جميعاً : وإن كان الصواع إنما وجد في رجل واحد منهم كما تقول : بنو فلان قتلوا فلاناً ، والقاتل واحد منهم "٠

استشكال ودفعة :

قال الخازن :" هل كان هذا النداء ـ ﴿ **إنكم لسارقون** ﴾ ـ بأمر يوسف أم لا ؟ فإن كان بأمره فكيف يليق بيوسف مع علو منصبه وشريف رتبته من النبوة والرسالة أن يتهم أقواماً وينسبهم إلي السرقة كذباً مع علمه ببراءتهم من ذلك ، وإن كان ذلك النداء بغير أمره فهلا أظهر براءتهم عن تلك التهمة التي نسبوا إليها ؟ ٠

قال : قلت : ذكر العلماء عن هذا السؤال أجوبة :

أحدها : أن يوسف لما أظهر لأخيه أنه أخوه ، قال : لست أفارقك

قال : لا سبيل إلي ذلك إلا بتدبير حيلة أنسبك فيها إلي ما لا يليق

(١) تفسير البحر المحيط ٣٠٣/٦ ٠

قال : رضيت بذلك . فعلي هذا التقدير لم يتألم قلبه بسبب هذا الكلام بل قد رضي به فلا يكون ذنباً .

الثاني : أن يكون المعني إنكم لسارقون ليوسف من أبيه إلا أنهم ما أظهروا هذا الكلام فهو من المعاريض ، وفي المعارض مندوحة عن الكذب .

أقول : إن يوسف ـ عليه السلام ـ لم يخبر فتيانه أو المؤذن بأمر إخوته وما كان يلقي منهم قديماً من الأذى ، ولم يكشف لهم أن هؤلاء هم إخوته فكيف يكون قولهم ﴿ **إنكم لسارقون** ﴾ من المعاريض وهم لم يعلموا شيئاً من أمره ؟ !.

الثالث : يحتمل أن يكون المنادى ربما قال ذلك علي سبيل الاستفهام وعلي هذا التقدير لا يكون كذباً .

الرابع : ليس في القرآن ما يدل علي أنهم قالوا ذلك بأمر يوسف وهو الأقرب إلي ظاهر الحال لأنهم طلبوا السقاية فلم يجدوها ولم يكن هناك أحد غيرهم وغلب علي ظنهم أنهم هم الذين أخذوها فقالوا ذلك بناء علي غلبة ظنهم .

أقول : كيف غاب علي الإمام الخازن تساؤله :... " وإن كان ذلك النداء بغير أمره ـ أى يوسف ـ فهلا أظهر براءتهم عن تلك التهمة التى نسبوا إليها " حتى يقول :" غلب علي ظنهم أنهم هم الذين أخذوها فقالوا ذلك بناء علي غلبة ظنهم ".

أقول والله أعلم : أن الذي جعل الساقية في رحل أخيه هم فتيان يوسف عليه السلام ، لأن كونه ملكاً فلم يباشر ذلك بنفسه ، بل جعل غيره من فتيانه ، أو غيرهم أن يجعلها في الرحل .

إذن جعل الصواع في رحـل أخيـه وتـأذين المـؤذن كـان بعلمه وبأمره لفتيانه ويدل علي هـذا طريقـه تفتيـش الأوعيـة ، وهي البدأ بتفتيش أوعيتهم قبـل وعـاء بنيـامين لنفـي التهمـة ، وتمكين الحيلة . كل هـذا كـان بوحـى مـن الله تعـالي إلـي يوسف ، لهذا قال سـبحانه ﴿ **كذلـك كدنـا ليوسـف مـا كـان ليأخذ أخاه في دين الملـك إلا أن يشـاء الله . .** ﴾ [1].

ثم بين سبحانه ما قاله إخوة يوسف بعد أن سمعوا المؤذن يستوقفهم ويتهمهم بالسرقة .

فقال تعالي :﴿ **قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون** ﴾ .

قالوا : أى : إخوة يوسف . وجملة ﴿ **وأقبلوا عليهم** ﴾ حال من ضمير " قالوا " والمعني : قال إخوة يوسف وأقبلوا علي فتيان العزيز فـي دهشـة وحيرة ماذا تفقدون من أشياء حتى اتهمتمونا بأننا سارقون ؟!

وهكذا يكون البرئ من التهمة ، فقد نزل الخبر عليهم ــ حينمـا قالوا لهم إنكم لسارقون ــ كالصاعقة عليهم ، وقولهم : ﴿ **ماذا تفقـدون** ﴾ أنكروا ضياع شئ ، ولم ينفوا عن أنفسهم سرقة لأنهم يعلمون أنها بعيدة كل البعد لا تحتاج إلي نفي .

وهنا رد عليهم الفتيان ﴿ **قالوا نفقد صواع الملك** ﴾ أى : صاعـه الذي يشرب فيه .

﴿ **ولمن جاء به حمل بعير** ﴾ أى : ولمن دل علي سـارقه حمـل بعير من القمح زيادة علي حقه كمكافأة له .

---

(١) سورة يوسف من الآية ٧٦

﴿ **وأنا به زعيم** ﴾ أي : وأنا بحمل البعير كفيل أؤديه إلي من جاء به

وهنا نجد إخوة يوسف يردون عليهم رداً يدل علي استنكارهم لهذه التهمة وعلي تأكدهم من براءتهم فيقولون : ﴿ **قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين** ﴾ ٠

تالله : التاء بدل من الواو ، ولا تدخل إلا علي لفظ الله من بين أسمائه تعالي ، لا تقول تالرحمن ولا تالرحيم ، ولكن حكي عن العرب دخولها علي الرب وعلي الرحمن وعلي حياتك ٠ قالوا تـرب الكعبة وتالرحمن وتحياتك [1] ٠

قال الخازن [2] :" قال المفسرون : إن إخوة يوسف حلفوا علي أمرين :

أحدهما : أنهم ما جاءوا لأجل الفساد في الأرض ٠

والثاني : أنهم ما جاءوا سارقين ٠

وإنما قالوا هذه المقالة لأنه كان قد ظهر من أحوالهم ما يدل علي صدقهم وهو أنهم كانوا مواظبين علي أنواع الخير والطاعة والبر حتى بلغ من أمرهم كانت أنهم شدوا أفواه دوابهم لئلا تؤذى زرع الناس ٠ ومن كانت هذه صفته فالفساد في حقه ممتنع ٠

وأما الثاني : " وهو أنهم ما كانوا سارقين فلأنهم قد كانوا ردوا البضاعة التي وجدوها في رحالهم ولم يستحلوا أخذها ومن كانت هذه صفته فليس بسارق فلأجل ذلك قالوا لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين "٠أ ٠ هـ

---

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه تأليف : محي الدين الدرويش ٢٦/٥ ٠

(٢) تفسير الخازن ٣٠١/٢ـ٣٠٢ ٠

ولما تبينت براءتهم من هذه التهمة رد عليهم المنادي وأعوانه بقولهم : ﴿ قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ﴾ .

أى : قال المنادي وأعوانه لإخوة يوسف الذين نفوا عن أنفسهم تهمة السرقة نفياً تاماً .

إذاً فما جزاء وعقاب هذا السارق لصواع الملك في شريعتكم ، إن وجدنا هذا الصواع في حوزتكم ، وكنتم كاذبين في دعواكم أنكم ما كنتم سارقين .

فرد عليهم إخوة يوسف ببيان حكم هذا السارق في شريعتهم بقولهم : ﴿ قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه * كذلك نجزى الظالمين ﴾

أى : قال إخوة يوسف : جزاء هذا السارق الذى يوجد صواع الملك فى رحله ومتاعه أن يسترق لمدة سنة ، هذا هو جزاؤه فى شريعتنا .

قال أبو حيان [1] ما ملخصه : " جزاؤه " : مبتدأ ، أى : جزاء سرقة الصاع ، والخبر " من وُجد فى رحلة " أى : أخذ من وجد فى رحلة .

والتقدير : جزاء سرقة الصاع أخذ من وجد فى رحله ـ أى استرقاقه لمدة سنة .

وقولهم : ﴿ فهو جزاؤه ﴾ ، تقرير وتأكيد للجملة الأولى .

قال الدكتور / سيد طنطاوى [2] : " وقالوا : " جزاؤه من وجد فى رحله " ولم يقولوا : جزاء السارق أو جزاء سرقته ، للإشارة إلى كمال

---

(١) تفسير البحر المحيط ٣٠٥/٦

(٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم للإمام الأكبر شيخ الأزهر د / سيد طنطاوى . المجلد السابع ص ٣٩٨ .

نزاهتهم ، وبراءة ساحتهم فى السرقة ، حتى لكأن ألسنتهم لا تطاوعهم بأن ينطقوا بها فى هذا المقام " .

وقوله : ﴿ **كذلك نجزى الظالمين** ﴾ مؤكد لما قبله ، أى : مثل ذلك الجزاء ، وهو الاسترقاق نجزى الظالمين أى بالسرقة وهو ديننا وسنتنا فى أهل السرقة .

قال الخازن [1] : " وكان فى حكم ملك مصر أن يضرب السارق ويغرم ضعفى قيمة المسروق وكان هذا فى شرعهم فى ذلك الزمان يجرى مجرى القطع فَى شرعنا فأراد يوسف أن يأخذ بحكم أبيه فى السارق ، فلذلك رد الحكم إليهم " .

تفتيش الأوعية :

قال تعالى : ﴿ **فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم** ﴾

بعد هذه المحاورة التى دارت بين إخوة يوسف وبين الذين اتهموهم بالسرقة أخبر الأخوة بتفتيش أوعيتهم للبحث عن الصواع بداخلها .

حينئذ أقبل يوسف ــ عليه السلام ــ فبدأ بتفتيش الإخوة العشرة قبل وعاء أخيه بنيامين .

قال أبو حيان [2] : " فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين لنفى التهمة ، وتمكين الحيلة ، وإبقاء ظهورها حتى بلغ وعاءه ، فقال : ما

---

(١) تفسير الخازن ٣٠٢/٢ .

(٢) تفسير ابى حيان ٣٠٦/٦ .

أظن هذا أخذ شيئا فقالوا : والله ما نتركه حتى تنظر فى رحله ، فإنـــه أطيب لنفسك وأنفسنا ، فاستخرجوه منه " .

فلما وصل إلى وعاء " بنيامين " وقام بتفتيشه وجد السقاية بداخله ، فاستخرجها منه على مشهد منهم جميعا .

ويطوى القرآن ما اعترى إخوة يوسف من دهشة وخـــزى ، بعـد أن وجدت السقاية فى رحل " بنيامين " وبعد أن أقسموا بالله على براءتـــهم مـن تهمة السرقة .. يطوى القرآن كل ذلك ، ليترك للعقولِ أن تتصوره ...

ثم يعقب على ما حدث ببيان الحكمة التى من أجلــها ألــهم الله ــ تعالى ــ يوسف أن يفعل ما فعل من دس السقاية فى رحل أخيه ، ومـن سؤال إخوته عن جزاء السارق فى شريعتهم فيقــول : ﴿ **كذلــك كدنـا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله ..** ﴾ .

وقوله : ﴿ كدنا ﴾ من الكيد وأصله الاحتيال والمكر ، وهو فعـل يتوصل بظاهره إلى مقصد خفى ويكون للخير أو للشر سواء . وإن كان الشر قد غلب عليه . وظاهر الأمر هنا أنه شر يحل بأخيه وهــو شــر يحل بإخوته لإحراجهم أمام أبيه . وهو سوء ــ ولو مؤقتا ــ لأبيه فلهذا اختار تسميته كيدا على اجمال اللفظ .

والكيد هنا : هو الهام يوسف ــ عليه السلام ــ لهذ الحيلة المحكمة فـى وضع الصواع وتفتيش الرحل وسؤال إخوته عن حكم السارق فى شريعتهم .

قال الفخر الرازى (١) : " قيل : المراد من هذا الكيد هو انه تعــالى ألقى فى قلوب إخوته أن حكموا بأن جزاء السارق هو أن يســترق ، لا

---

(١) تفسير الفخر الرازى ١٨/١٨٢ .

جرم لما ظهر الصواع فى رحله حكموا عليه بالاسترقاق ، وصار ذلـك سببا لتمكن يوسف ــ عليه السلام ــ من إمساك اخيه عند نفسه "

وهذا بيان لمظهر من مظاهر فضل الله ــ تعالى ــ علـى يوسـف حيث ألهمه ما يوصله بأحكم أسلوب .

وأسند الكيد إلى الله لأنه ملهمه فهو مسببه . وجعل الكيـد لأجـل يوسف ــ عليه السلام ــ لأنه لفائدته . فاللام فى " ليوسف " للنفـع لا كاللام فى قوله ﴿ فيكيدوا لك كيدا ﴾ فإنها للضرر وهو الشائع .

ولما كانت هذه الوسيلة إلى تلك الغاية منكرة فى الظـاهر لأنـها تهمة باطلة حكى الله ــ تعالى ــ عن يوسف أنه فعلها بوحى منـه وإذن فقال : ﴿ **ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله ...** ﴾ .

قال الفخر الرازى [1] : "والمعنى : أنه كان حكم الملك في السـارق أن يضرب ويغرم ضعفي ما سرق ، فما كان يوسف قادراً علي حبـس أخيه عند نفسه بناء علي دين الملك وحكمه ، إلا أنه تعالي كاد له مـا جرى علي لسان اخوته أن جزاء السارق هو الاسترقاء فقد بينا أن هذا الكلام توسل به إلي أخذ أخيه وحبسه عند نفسه وهو معنى قوله : ﴿ **إلا أن يشاء الله** ﴾ " .

وقوله ﴿ **إلا أن يشاء الله** ﴾ أي : " لم يكن يوسف ليتمكن من أخـذ أخيه في حال من الأحوال ، إلا في حال مشيئته ــ تعالي ــ التي هـي عبارة عن ذلك الكيد المذكور .." [2]

---

(١) المرجع السابق .

(٢) تفسير الألوسى ٢٩/١٣ .

قال الخازن[1] وقوله :﴿ **نرفع درجات من نشاء** ﴾ يعنى بالعلم كما رفعنا درجة يوسف علي إخوته ٠

وفي هذه الآيه دلالة علي أن العلم الشريف أشرف المقامات وأعلي الدرجات لأن الله تعالي مدح يوسف ورفع درجته علي إخوته بالعلم وبما ألهمه علي وجه الهداية والصواب في الأمور كلها ٠

وقوله : ﴿ **وفوق كل ذي علم عليم** ﴾ قال ابن عباس : فوق كل عالم عالم إلي أن ينتهي العلم إلي الله تعالي فوق كل عالم لأنه هو الغني بعلمه عن التعليم . وفي الآية دليل علي أن إخوة يوسف كانوا علماء وكان يوسف أعلم منهم ٠

وقال : قال ابن الأنباري : يجب أن يتهم العالم نفسه ويستشعر التواضع لمواهب ربه تعالي ولا يطمع نفسع فى الغلبة لأنه لا يخلو عالم من عالم فوقه " أ . هـ

قال الدكتور سيد طنطاوى [2] : " وقال ـ سبحانه ـ " نرفع " بصيغة الإستقبال ؛ للإشعار بأن ذلك سنة من سننه الإلهية التى لا تتخلف ولا تتبدل وأن عطاءه ـ سبحانه ـ لا يناله إلا الذين تشملهم إرادته ومشيئته كما تقتضى حكمته .

وجاءت كلمة " درجات " بالتنكير ؛ للإشارة إلى عظمها وكثرتها " .

---

(١) تفسير الخازن ٣٠٣/٢ ٠

(٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم . للإمام شيخ الأزهر / سيد طنطاوى المجلد السابع ص ٤٠٠ .

قول الإخوة إن أخاه قد سرق من قبل :

﴿ قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون ﴾ .

أى : قال إخوة يوسف ــ عليه السلام ــ بعد هذا الموقف المحــرج لهم . إن هذا الأمر ليس بغريب منه ، فقد سرق أخوه يوسف من قبـل ، فالسرقة جاءت وراثة من أمهما . وكان غرضهم من هذا إنا لسنا علــى طريقته ولا على سيرته ، بل هذا وأخوه كان على هذه الطريقة وهــذه السيرة ، لأنهما من أم أخرى غير أمنا .

وفى قولهم هذا إيماء إلى أن الحسد لا يزال كامنــا فــى قلوبــهم ، لاختلاف الأمهات ، ولمزيد محبة الأب لهما .

واختلف المفسرون فى السرقة التى نُسبت إلى يوسـف عليه السلام :

أخرج الطبرى [1] عن قتادة قال : " ذُكر أنه سرق صنما لجــده أبى أمه فعيروه بذلك "

وفى رواية أخرى بزيادة " وكان يعبده فأخذه يوسف وكسره وألقــاه فى الطريق لئلا يعبده " [2] .

وقال مجاهد " إن يوسف جاءه سائل يوما فأخذ بيضة مــن البيــت فناولها له " [3] .

---

(١) تفسير الطبرى ٢٠/١٣ .

(٢) تفسير الخازن ٣٠٤/٢ .

(٣) المرجع السابق .

وقال سفيان بن عيينة : " أخذ دجاجة من الطير الذى كان فى بيت يعقوب فأعطاها سائلا " . وقال وهب : " كان يخبأ الطعام من المائدة للفقراء .... [1] .

ويبدو أن هذه الروايات أخذت عن أهل الكتاب ، ولكن النفس غير مستريحة إلى ما قالوه عن سرقته ــ عليه السلام ــ الطعام من بيتهم للفقراء ، لأن هذا يوحى بأنه لم يكن بيت كرم ، وإلا فلماذا يسرق الطعام لهم من وراء أهله ؟ إن الطفل الذى يشب على رؤية أبويه يطعمان الضيفان ويكرمان الفقراء لا يفعل هذا ، بل يخبرهما وهو مطمئن إلى أنهما سيهبَّان لإعطاء المسكين وجبر حاجة المحتاج .

كما أن هذا القول يتعارض مع ما ورد عن نبينا محمد ﷺ عن يوسف ــ عليه السلام ــ " الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم " .

وهذا هو الذى عناه إخوته بقولهم ﴿ **إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل** ﴾ وهذه الروايات لا يوثق بها كما لا يدل شئ منها على سرقة حقيقية .

موقف يوسف ــ عليه السلام ــ من مقالتهم .

قال تعالى : ﴿ **فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون** ﴾

قوله ﴿ **فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم** ﴾ أى : فأضمر مقالتهم فى نفسه ولم يجبهم عنها ، ﴿ **ولم يبدها لهم** ﴾ أى : ولم يؤاخذهم بها لا قولا ولا فعلا ، صفحا عنهم وحلما .

---

(١) المرجع السابق .

أى : سمع يوسف ـ عليه السلام ـ ما قاله إخوته فى حقه وفى حق شقيقه فساءه ذلك ، ولكنه كظم غيظه ، ولم يظهر لهم تأثره مما قالوه .

ثم فسر ما أسره بقوله :﴿ **قال أنتم شر مكانا** ﴾ أى : قال فى نفسه ، وهو استئناف مبنى على سؤال كأنه قيل : فماذا قال يوسف لما سمع هذه المقالة ؟

﴿ **قال أنتم شر مكانا** ﴾ أى : شر موضعا ومنزلا ممن نسبتموه إلى السرقة وهو برئ ، فإنكم قد فعلتم ما فعلتم من إلقاء يوسف فى الجب والكذب على أبيكم وقلتم لقد أكله الذئب .

ثم قال : ﴿ **والله أعلم بما تصفون** ﴾ به غيركم من الباطل بنسبة السرقة إلى يوسف ، وأنه لا حقيقة لذلك .

طلب الإخوة أن يأخذ أحدهم بدلا من بنيامين :

حاول الإخوة أن يستعطفوا يوسف ـ عليه السلام ـ ليطلق لهم أخاهم بنيامين فيرجعوا به إلى أبيهم ، لأنه قد أخذ عليهم الميثاق بأن يردوه إليه • حكى ـ سبحانه ـ ما قالوه ليوسف فقال جل ذكره :

﴿ **قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين** ﴾

لما رأى الإخوة أن الموقف خطير ، ولا ينفع فيه إلا الاستعطاف ، قالوا : يا أيها العزيز إن لهذا الأخ أبا شيخا طاعنا فى السن كبير المقام جديرا بالرعاية والعناية ، وهذا الأب يحب هذا الأبن حبا جما لا يكاد يستطيع فراقه ، وهو موضع أنسه وعوضه عن ابنه المفقود فخذ أحدنا مكانه رحمة بهذا الشيخ الكبير .

ثم عللوا رجاءهم فى إجابتـــه بقولـــهم : ﴿ إنـــا نـــراك مـــن المحسنين ﴾ أى : فلا ترد سؤالنا لأنا نراك من المحسنين إلينـــا فـــى توفية الكيل وحسن الضيافة ورد البضاعة إلينا ، فسر على طريق هـــذا الإحسان والإكرام ، وأطلق سراح أخينا ليسافر معنا .

فأجابهم عن مقالتهم : ﴿ قال معاذ الله أن نـــأخذ إلا مـــن وجدنـــا متاعنا عنده ﴾ أى : حاش لله أن نأخذ إلا من وجدنا الصواع عنـــده ، لأنا قد أخذنا بفتواكم **﴿ من وجد فى رحلة فهو جزاؤه ﴾** فلا يسوغ لنـــا أن نخل بموجبها .

ولم يقل : " إلا من سرق متاعنا " اتقاء للكذب ، لأنه يعلم أنـــه ليس بسارق .

قوله : ﴿ إنا إذا لظالمون ﴾ أى : إنا إذا أخذنا غيره لنكونن مـــن الظالمين لوجهين : مخالفة شرعكم ونص فتواكم ، ومخالفـــة شـــريعة الملك ، فهى تأبى الظلم كما تأباه شريعتكم .

بهذا الرد الحاسم يئس إخوة يوسف من محاولة تخليـــص أخيـــهم الصغير ، فانصرفوا من عنده ، وطفقوا يفكرون فى مصـــيرهم وفـــى موقفهم من أبيهم حين يرجعون إليه .

حكى القرآن ذلك بأسلوبه البليغ فقال : ﴿ فلمـــا استيأســـوا منـــه خلصوا نجيا قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا مـــن الله ومن قبل ما فرطتم فى يوسف . . . ﴾

﴿ استيأسوا ﴾ بمعنى يئسوا ، فالسين والتاء للتأكيد .

و ﴿ خلصوا ﴾ بمعنى اعتزلوا وانفردوا وتميزوا عن الناس يتناجون فيما أهمهم [1] .

و ﴿ نجيا ﴾ اسم من المناجاة ، حال من فاعل خلصوا .

والمعنى : خلا بعضهم ببعض ليس فيهم غيرهم يتناجون ويتشاورون سراً .

قال الدكتور / سيد طنطاوى [2] : " هذه الجملة الكريمة وهى ـ قوله ـ تعالى ـ ﴿ **فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا** ﴾ من أبلغ الجمل التى اشتمل عليها القرآن الكريم ، ومن العلماء الذين أشاروا إلى ذلك الإمام الثعالبى فى كتاب " الإيجاز والإعجاز " ، فقد قال : من أراد أن يعرف جوامع الكلم ، ويتنبه لفضل الاختصار ويحيط ببلاغة الإيجاز ، ويفطن لكفاية الإيجاز ، فليتدبر القرآن وليتأمل علوه على سائر الكلام .

ثم قال : فمن ذلك قوله ـ تعالى ـ فى إخوة يوسف ﴿ **فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا** ﴾ وهذه صفة اعتزالهم جميع الناس ، وتقليبهم الآراء ظهرا لبطن ، وأخذهم فى تزوير ما يلقون به أباهم عند عودتهم إليه ، وما يوردون عليه من ذكر الحادث .فتضمنت تلك الكلمات القصيرة معانى القصة الطويلة "

وقوله : ﴿ **قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم فى يوسف** ﴾

---

(١) لسان العرب لابن منظور ٧/٢٧ .

(٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم المجلد السابع ص ٤٠٢ .

لم يذكر القرآن اسم كبيرهم ، لأنه لا يتعلق بذكره غرض منـــهم ، " وقد ذكر بعض المفسرين هو " روبيل " لأنـــه الأســن ، وقيــل " يهوذا " لأنه الأوفر عقلا ، وقيل " شمعون " لأنه رئيسهم " [1] .

وجملة : ﴿ **قال كبيرهم** ﴾ بدل من جملة ﴿ **خلصــوا نجيــا** ﴾ وهو بدل اشتمال ، لأن المناجاة تشتمل على أقوال كثيرة منها قــول كبيرهم هذا .

والاستفهام في قوله ﴿ **ألم تعلموا** ﴾ تقريرى للتذكير بعدم اطمئنــان أبيهم بحفظهم لابنه .

أى : لقد علمتم علما يقينا بعهد أبيكم عليكم بشـــأن بنيــامين ، وعلمتم علما يقينا بخيانتكم لعهد أبيكم فى شأن يوسف ، فبأى وجــه تعودون إلى أبيكم وليس معكم أخوكم بنيامين ؟

قال الشوكانى [2] : " قوله ﴿ **ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله** ﴾ أى : عهدا من الله ــ تعالى ــ بحفظ ابنـــه ورده إليه . ومعنى كونه من الله : أنه بإذنه .

وقوله : ﴿ **ومن قبل ما فرطتم فى يوسف** ﴾ معطوف على مــا قبله . والتقدير : ألم تعلموا أن أباكم ... وتعلموا تفريطكـــم فـــى يوسف ، فقوله : ﴿ **ومن قبل** ﴾ متعلق بتعلمـــوا . أى : تعلمــوا تفريطكم فى يوسف من قبل . على أن " ما " مصدرية .

---

(١) فتح القدير للشوكانى ٤٦/٣ .

(٢) المرجع السابق نفس الجزء والصفحة .

القرار الذى اتخذه كبيرهم قال :

﴿ فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى وهو خـير الحاكمين ﴾

قال كبير إخوة يوسف لهم : فلن أفارق أرض مصر .

قال الشيخ محمد عاشور (١) : " قرر كبيرهم أن يبقى فـي مصـر ليكون بقاؤه علامة عند يعقوب ـ عليه السلام ـ يعرف بها صدقهم فى سبب تخلف بنيامين ، إذ لا يرضى لنفسه أن يبقى غريبا لولا خوفه مـن أبيه ، ولا يُرضى بقية أشقائه أن يكيدوا له كما يكيدون لغير الشقيق " .

وقال أبو حيان (٢) : " ثم غيا بذلك بغايتين :

أحدهما : خاصة وهى قوله : ﴿ حتى يأذن لـى أبـى ﴾ يعنـى فـى الانصراف إليه .

والثانية : عامة وهى قوله : ﴿ أو يحكم الله لى ﴾ ، لأن إذن الله له هو من حكم الله له فى مفارقته أرض مصر .

وكأنه لما علق الأمر بالغاية الخاصة رجع إلـى نفسـه فـأتى بغاية عامة تفويضا لحكم الله تعالى ، ورجوعـا إلـى مـن لـه الحكم حقيقة ، ومقصوده التضييق علـى نفسـه ، كأنـه سـجنها فى القطر الذى أداه إلى سـخط أبيـه ..

وحكم الله تعالى له بجميع أنواع العذر كالموت ، وخلاص أخيـه ، أو انتصافه من أخذ أخيه ... "

---

(١) تفسير التحرير والتنوير مجلد ٧ ج ١٣ ص ٤٠ .

(٢) تفسير البحر المحيط ٣١٢/٦ .

وقال الشيخ محمد عاشور [1] : " وجملة : ﴿ **وهو خير الحاكمين** ﴾ تذييل . و ﴿ **خير الحاكمين** ﴾ إن كان للتعميم ، فهو الذى حُكمه لا جور فيه أو الذى حُكمه لا يستطيع أحد نقضه ، وإن كان على إرادة : وهو خير الحاكمين لى ، فالخبر مستعمل فى الثناء للتعريض بالسؤال أن يقدر له ما فيه رأفة فى رد غربته .

ثم أمرهم أن يقولوا لأبيهم ما يزيلون به التهمة عن أنفسهم فقال :

١ ــ ﴿ **ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق** ﴾ أى : صواع الملك فاسترقه وزيره عملا بشريعتنا .

٢ ــ **وقولوا له :** ﴿ **وما شهدنا إلا بما علمنا** ﴾ أى : وما شهدنا عليه بالسرقة بسماع أو إشاعة أو تهمة إلا بعلمنا ويقيننا بأنه سرق إذ رأينا الصواع قد استخرج من متاعه .

٣ ــ **وقولوا له :** ﴿ **وما كنا للغيب حافظين** ﴾ أى : وما كنا نعلم الغيب بأنه سيسرق حين أعطيناك المواثيق .

٤ ــ **وقولوا أيضا على سبيل زيادة التأكيد** ﴿ **واسأل القرية التى كنا فيها** ﴾ أى : إن كنت فى شك من قولنا اسأل أهل القرية التى كنا نمتار فيها ، وهى مصر ، فقد اشتهر فيهم أمر هذه السرقة حتى لو سئلوا لشهدوا . ﴿ **والعير التى أقبلنا فيها** ﴾ أى : واسأل قوافل التجارة التى كنا فيها ، فإن أصحاب هذه القوافل يعلمون ما حدث من ابنك .

٥ ــ **وقال لهم : ثم أكدوا صدق مقالكم بقولكم :** ﴿ **وإنا لصادقون** ﴾ فيما أخبرناك به . فكن واثقا من صدقنا .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير مجلد ٧ ج ١٣ ص ٤٠ .

وقد ختم كبيرهم كلامه بهذه الجملة ﴿ وإنا لصادقون ﴾ زيادة فى تأكيد صدقهم ، لأن ماضيهم معه يبعث على الريبة والشك ، فهم الذين قالوا له من قبل ذلك فى شأن يوسف : ﴿ أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون ﴾ ثم ألقوا به فى الجب " ..

بعد ذلك عاد الإخوة إلى أبيهم وتركوا بمصر كبيرهم وأخاهم بنيامين .

هل صدقهم أبوهم بعد هذه المقالة التى كلفهم بها أخوهم الكبير ؟

﴿ قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله ان يأتينى بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم ﴾

لما رجع الإخوة إلى أبيهم وقالوا له ما لقنهم كبيرهم فلم يصدقهم فيما قالوا ، بل قال لهم ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمرا .. ﴾

قال أبو حيان [1] : " و " بل " للإضراب ، فيقتضى كلاما محذوفا قبلها حتى يصح الإضراب فيها وتقديره : ليس الأمر حقيقة كما أخبرتم ، بل سولت .. قال ابن عطية : والظاهر أن قوله ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمرا ﴾ ، إنما هو ظن سوء بهم كما كان فى قصة يوسف قبل ، فاتفق أن صدق ظنه هناك ، ولم يتحقق هنا .

وقال الزمخشرى [2] : " ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمرا ﴾ أردتموه وإلا فما أدرى ذلك الرجل أن السارق يؤخذ بسرقته لولا فتواكم وتعليمكم " .

---

(١) البحر المحيط ٣١٣/٦ .

(٢) تفسير الكشاف ٢٧٠/٢.

وقال ابن كثير [1] : قال لهم حين جاءوا على قميص يوسف بدم كذب ﴿ **بل سولت ..** ﴾ قال محمد بن اسحاق : لما جاءوا يعقوب وأخبروه بما جرى اتهمهم فظن أنها كفعلتهم بيوسف فقال : ﴿ **بل سولت** ﴾ .

وقال بعض الناس : لما كان صنيعهم هذا مرتبا على فعلهم الأول ، سحب حكم الأول عليه ، وصح قوله ﴿ **بل سولت لكم أنفسكم أمرا** ﴾ . أ . هـ

والخلاصة : أن الذى حمل يعقوب – عليه السلام – على هذا القول لهم ، هو ماضيهم معه ، فإنهم قد سبق لهم أن فجعوه في يوسف بعد أن عاهدوه على المحافظة عليه .

ثم ترجى من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة : يوسف وبنيامين وكبيرهم الذى أقام بمصر ينتظر أمر الله فيه فقال عليه السلام ﴿ **عسى الله أن يأتينى بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم** ﴾ أى العليم بحالى . الحكيم فى أفعاله وقضائه وقدره .

يقول الدكتور سيد طنطاوى [2] : " وهذا القول من يعقوب – عليه السلام – يدل دلالة واضحة على كمال إيمانه ، وحسن صلته بالله – تعالى – وقوة رجائه فى كرمه وعطفه ولطفه – سبحانه – .

وكأنه بهذا القول يرى بنور الله الذى غرسه فى قلبه ، ما يراه غيره بحواسه وجوارحه "

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٦٩/٢.

(٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم مجلد ٧ ص ٤٠٦ .

وقد جرت فى سنته ـ تعالى ـ أن الشدة إذا تناهت جعل وراءها فرجا ، والمصيبة إذا عظمت جعل بعدها المخلص منها ؛ كما قال ﴿ فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا ﴾ [١] .

وجود غشاوة على عينى يعقوب من الحزن :

ثم صور ـ سبحانه ـ ما اعترى يعقوب من حزنه على يوسف ، جددها فراق بنيامين له فقال تعالى ﴿ **وتولى عنهم وقال يا أسفا على يوسف ، وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم** ﴾

قوله : ﴿ **يا أسفا على يوسف** ﴾ الأسف : المبالغة فى الحزن والغضب [٢] .

ونداء الأسف مجاز : نزّل الأسف منزلة من يعقل فيقول له : احضر فهذا أوان حضورك .

وإنما تأسف على يوسف دون أخويه ، مع أن الحزن الأحدث أشد على النفس ، " لأنه لا يعلم أحى هو أم ميت ؟ بخلاف إخوته . ولأنه كان أصل الزرايا عنده ، إذ ترتبت عليه ، وكان أحب أولاده إليه ، وكان دائما يذكره ولا ينساه . " [٣] .

قال الزمخشرى [٤] : " والتجانس بين لفظتى الأسف ويوسف مما يقع مطبوعا غير مستعمل فيملح ويبدع ، ونحوه : (اثاقلتم إلى الأرض) ،

---

(١) سورة الشرح الآيتان ٥،٦.

(٢) لسان العرب ٩/٥ .

(٣) تفسير البحر المحيط ٦/٣١٤ .

(٤) تفسير الكشاف ٢/٢٧١ .

(وهم ينهون عنه وينأون عنه) ، (ويحسبون أنهم يحسنون صنعا) ، (من سبإ بنبإ) .

قوله : ﴿ **وابيضت عيناه من الحزن** ﴾ أي : أصابتهما غشاوة بيضاء غطت على البصر فانقلب سواد العين إلى بياض كدر من كثرة البكاء .

وابيضاض العينين : ضعف البصر . قال أبو حيان [1] : " والظاهر أنه كان عمى لقوله : ﴿ **فارتد بصيرا** ﴾ وقال : ﴿ **وما يستوى الأعمى والبصير** ﴾ [2] فقابل البصير بالأعمى . وقيل : كان يدرك إدراكا ضعيفا .

ولكنى أرى : أنه لم يكن عمى ولكن ضعف بصر ، لأن تبدل سوادهما أدى إلى الهزال وابيضاض العينين وهو ما يعرف عند الأخصائيين فى أمراض العيون ب " كتاركت " بسبب الحزن مع تقدم السن .

﴿ **فهو كظيم** ﴾ مبالغة للكاظم . والكظم : الامساك النفسانى ، أى كاظم للحزن لا يظهره بين الناس .

قال الزمخشرى [3] : " فإن قلت : كيف جاز لنبى الله أن يبلغ من الجزع ذلك المبلغ ؟

قلت : الإنسان مجبول على أن لا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن ... ولقد بكى رسول الله ﷺ على ولده ابراهيم ، وقال : القلب يجزع

---

(١) تفسير أبى حيان ٩/٣١٤ .

(٢) سورة فاطر الآية ١٩ .

(٣) تفسير الكشاف ٢/٢٧١ .

والعين تدمع ولا نقول ما يسخط الرب وإنـــا عليـك يـا ابراهيـم لمحزونون .

وإنما الجزع المذموم ما يقع من الجهلة من الصياح والنياحة ولطـم الصدور والوجوه وتمزيق الثياب .

وعن النبى ﷺ أنه بكى على ولد بعض بناته وهو يجود بنفسه فقيل يا رسول الله : تبكى وقد نهيتنا عن البكاء فقال : ما نهيتكم عن البكـــاء وإنما نهيتكم عن صوتين أحمقين صوت عند الفرح وصوت عنـــد الترح .

وعن الحسن أنه بكى على ولد له أو غيره فقيل له فى ذلـــك ؟ فقال : ما رأيت الله جعل الحزن عارا على يعقوب " أ . هـ

لما سمع أبناء يعقوب ـ عليه السلام ـ أسف أبيهم على يوسف وحزنه العميق عليه ماذا قالوا له ؟

﴿ قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكـــون مـن الهالكين ﴾

قوله : **﴿ تالله تفتأ تذكر يوسف ﴾** تالله : تاء القسم ولفظ الجلالـــة مجرور بتاء القسم .

وتفتأ : أى لا تفتأ من أخوات كان ، واسمها مستتر تقديره " أنـت " وجملة تذكر : خبرها ، و " يوسف " : مفعول به .

قال الأستاذ / محى الدين الدرويش [1] : " فى قوله : **﴿ تالله تفتـــأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا ﴾** فن أصيل فى البلاغة وهو ما يسـمى

---

(١) اعراب القرآن الكريم وبيانه ٣٧/٥، ٣٩ .

" **ائتلاف اللفظ مع المعنى** " وهو نسمة الحياة فى الفن ، وعموده الـــذى يقوم عليه . ويتلخص بأن تكون ألفاظ المعنى متلائمة بعضها مع بعـض ليس فيها لفظة نابية أو قلقة عن أخواتها بحيث يمكن استبدالها ٠٠٠٠

وقال : أقسام الألفاظ : والواقع أن الألفاظ تنقسم فى الاستعمال إلـــى جزلة ورقيقة ولكل منها مواضع يحسن استعمالها فيه فالجزل يســـتعمل فى مواقف الشدة وقوارع التهديد والتخويف ، والرقيـــق تســـتعمل فـــى وصف نباريح الأشواق ، ولوعة الفراق والآية التى نحن بصددها مـــن أروع الأمثلة على ذلك فإنه سبحانه لما أتى بأغرب ألفاظ القسم بالنسـبة إلى أخواتها وهى التاء ، لأن الواو والباء أكثر دورانا على الألسنة منـــها . أتى سبحانه بأغرب صيغ الأفعال الناقصة التى ترفع الأسماء وتنصـــب الأخبار بالنسبة إلى أخواتها وهى تفتأ وحذف منها حرف النفى زيادة فى الاغراب ولأن المقام لا يلتبث بالاثبات على حد قول امرئ القيس :

فقلت : يمين الله أبرح قاعدا ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى" أ ٠ هـ

أى : لا أبرح قاعدا .

وحرضا : مصدر حرض . والحارض : الذى قد قارب الـهلاك والحرض : الذى أذابه الحزن أو العشق [١] .

"**وقال مجاهد** : الحرض: هو ما دون الموت . وقـــال قتـادة : البالى الهرم ٠٠ وقال ابن اسحاق : الفاسد الذى لا عقل له . وكأنهم قالوا له ذلك على جهة تفنيد الرأى أى : لا تزال تذكر يوسف إلـــى حال القرب من الهلاك ، أو إلى أن تهلك " [٢]

---

(١) انظر لسان العرب ١٣٣/٧،١٣٤ .

(٢) تفسير أبى حيان ٣١٥/٦ .

وهنا يرد الأب على أبنائه الذين لا يشعرون ما به من ألم وأمل .

﴿ قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾

والبث : الحزن والغم الذى تفضى به إلى صاحبك [١] .

قال الشوكانى [٢] : " والبث : ما يرد على الإنسان من الأشياء التى يعظم حزن صاحبها بها حتى لا يقدر على إخفائها . كذا قال أهل اللغة ، وهو مأخوذ من بثثته : أى فرقته ، فسميت المصيبة بثا مجازا ...

وقد ذكر المفسرون أن الإنسان إذا قدر على كتم ما نزل به من المصائب كان ذلك حزنا ، وإن لم يقدر على كتمه كان ذلك بثا ، فالبث على هذا أعظم الحزن وأصعبه .

وقيل : البث : الهم ، وقيل : هو الحاجة ، وعلى هذا القول يكون عطف الحزن على البث واضح المعنى .

وأما على تفسير البث بالحزن العظيم ، فكأنه قال : إنما أشكو حزنى العظيم وما دونه من الحزن إلى الله لا إلى غيره من الناس " .أ . هـ

وقد أعقب كلامه بقوله **﴿ وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾** لينبههم إلى قصور عقولهم عن إدراك المقاصد العالية ليعلموا أنهم دون مرتبة أن يعلموه أو يلوموه .

أى : أنا أعلم علما من عند الله علَّمنيه لا تعلمونه وهو علم النبوة .

---

(١) لسان العرب ٢/١١٤ .

(٢) فتح القدير ٣/٤٩ .

وفى هذا تعريض برد تعرضهم بأنه يطمع فى المحـــال بـــأن مـــا يحسونه محالا سيقع .

قال ابن كثير [1] : " قوله ﴿ **وأعلم من الله ما لا تعلمـــون** ﴾ أى : أرجوا منه كل خير ، وعن ابن عباس ﴿ **وأعلم من الله ما لا تعلمـــون** ﴾ يعنى : رؤيا يوسف أنها صدق وأن الله لابد أن يظهرها ، وقال العوفـــى عنه فى الآية أعلم أن رؤيا يوسف صادقة وانى سوف أسجد له .

قال الشيخ سيد قطب [2] : " وفى هذه الكلمـــات يتجلـــى الشـــعور بحقيقة الألوهية فى هذا القلب الموصول ، كما تتجلى هذه الحقيقة ذاتـــها بجلالها الغامر ، ولألائها الباهر .

إن هذا الواقع الظاهر الميئس مـــن يوســـف ، وهـــذا المـــدى الطويل الذى يقطع الرجاء من حياته فضلا على عودته إلى أبيـــه ، واستنكار بنيه ... إن هذا كله لا يؤثر شيئا فى شعور الرجل الصـــالح بربه . فهو يعلم من حقيقة ربه ومن شأنه ما لا يعلمه هؤلاء المحجوبون عن تلك الحقيقة ...

وهذه قيمة الإيمان بالله ....

إن هذه الكلمات ﴿ **أعلم من الله ما لا تعلمون** ﴾ تجلو هذه الحقيقـــة بما لا تملك كلماتنا نحن أن تجلوها . وتعرض مذاقا يعرفه من ذاق مثلـــه ، فيدرك ماذا تعنى هذه الكلمات فى نفس العبـــد الصـــالح يعقـــوب ... والقلب الذى ذاق هذا المذاق ، لا تبلغ الشدائد منه ـــ مهما بلغـــت ـــ إلا أن يتعمق اللمس والمشاهدة والمذاق ... "

---

(1) تفسير القرآن العظيم ٤٦٩/٢ .

(2) فى ظلال القرآن ٢٠٢٦/١٣ .

ثم **يوجههم يعقوب** ــ عليه السلام ــ إلى أن يواصلوا البحث عن يوسف وأخيه وألا ييأسوا من رحمة الله ، فى العثور عليهما ، فإن رحمة الله واسعة .

يقول جل ذكره : ﴿ **يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون** ﴾

التحسس : التبحُّث ، وهو شبه التسمع والتبصر [1]

وقيل : " هو طلب الشئ بالحواس ، مأخوذ من الحس ، أو من الاحساس : أى : اذهبوا فتعرفوا خبر يوسف وأخيه وتطلبوه " [2]

وفى التعبير بقوله ﴿ **فتحسسوا** ﴾ إشارة إلى أمره لهم بالبحث الجاد الحكيم المتأنى .

والأصل أن يقال : تحسس عن فلان ولا يقال : تحسس من فلان ، ولكن قيل ههنا : ﴿ **من يوسف** ﴾ فأقام " من " مقام " عن " ، لدلالة " من " على التبعيض . والمعنى : تحسسوا خبرا من أخبار يوسف ، واستعلموا بعض أخبار يوسف .

وفى خطابهم بوصف البنوة منه ترقيق لهم وتلطف ليكون أبعث على الامتثال .

﴿ **ولا تيأسوا من روح الله** ﴾ أى : لا تقنطوا من فرجه .

قال الشخ ابن عاشور [3] : " والرَوْح ــ بفتح الراء : النفس ــ بفتح الفاء ــ استعير لكشف الكرب لأن الكرب والهم يطلق عليهما الغم

---

(١) لسان العرب ٦/٥٠ .

(٢) فتح القدير للشوكانى ٣/٤٩ .

(٣) تفسير التحرير والتنوير المجلد السابع ١٣/٤٥ .

وضيق النفس وضيق الصدر بكذلك يطلق النفس والترويح على ضد ذلك ، ومنه استعارة قولهم : تنفس الصبح إذا زالت ظلمة الليل "

وقوله : ﴿ **إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون** ﴾ تعليل للنهى عن اليأس .

قال الفخر الرازى [1] : " واعلم أن اليأس من رحمة الله تعالى لا يحصل إلا إذا اعتقد الإنسان أن الإله غير قادر على الكمال أو غير عالم بجميع المعلومات أو ليس بكريم بل هو بخيل وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر ، فإذا كان اليأس لا يحصل إلا عند حصول أحد هذه الثلاثة ، وكل واحد منهما كفر ثبت أن اليأس لا يحصل إلا لمن كان كافرا والله أعلم " .

أما المؤمنون فإنهم لا ييأسون من فرج الله أبدا ، حتى ولو أحاطت بهم الكروب ، واشتدت عليهم المصائب .

****

---

(١) تفسير الفخر الرازى ١٨/١٩٩ .

اللقاء الثالث بين يوسف وإخوته وتعرفهم عليه

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَاأَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ(٨٨)قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ(٨٩)قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ(٩٠)قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ(٩١) قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ(٩٢)اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ(٩٣) ﴾

قال تعالى ﴿ **فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا** ﴾ .

والتزجية : دفع الشئ ..يقال : أزجيت أيامى وزجيتها أى : دافعتها بقوت قليل [1] والمزجى : القليل . وبضاعة مزجاه قليلة .

قال أبو السعود [2] : " قوله ﴿ **وجئنا ببضاعة مزجاة** ﴾ مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقاراً لها من أزجيته إذا دفعته وطردته والريح تزجى السحاب . قيل : كانت بضاعتهم من متاع الأعراب

---

(١) لسان العرب ١٤/٣٥٤ .

(٢) تفسير ابى السعود ٤/٣٠٣ .

صوفاً وسمناً • وقيل : الصنوبر وحبة الخضراء ••• وقيل : دراهم زيوفاً لا تؤخذ إلا بوضيعة •

وإنما قدموا ذلك ليكون ذريعة إلى إسعاف مرامهم ببعث الشفقة وهز العطف والرأفة وتحريك سلسلة المرحمة " •أ • هـ

ثم قالوا : ﴿ **فأوف لنا الكيل** ﴾ أى : فأتمه كما تعودنا من جميل رعايتك وإحسانك •

﴿ **وتصدق علينا** ﴾ أى : بما تزيده علي حقنا ببضاعتنا بعد أن تُغْمِض عن رداءتها تفضلاً منك وقال أبو السعود [1] : ﴿ **وتصدق علينا** ﴾ برد أخينا إلينا . قاله الضحاك وابن جريج ، وهو الأنسب بحالهم نظرا إلى أمر أبيهم ••• إنما لم يبدءوا بما أمروا به استجلابا للرأفة والشفقة ، ليبعثوا بما قدموا من رقة الحال رقة القلب والحنو •• ﴿ **إن الله يجزى المتصدقين** ﴾ تعليل لاستدعائهم التصدق عليهم •

قال الخازن[2] : "لم يقولوا : " يجزيك " بل عدلوا إلى الظاهر لشكهم فى إيمانه بل لتيقنهم كفره على عادة ملوك مصر فى ذلك الوقت فعبروا بهذه العبارة المحتملة "

وعندما بلغ الأمر بهم إلى هذا الحد من الاسترحام والضيق والانكسار لم يستطع يوسف – عليه السلام – المضى فى تمثيل دور العزيز ، والتخفى عنهم بحقيقة شخصيته ، فبادرهم بقوله : ﴿ **قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذا انتم جاهلون** ﴾

---

(١) تفسير أبى السعود ٤ /٣٠٣ .

(٢) تفسير الخازن ٤٧٨/٢ •

الاستفهام يفيد التوبيخ وتعظيم الواقعة ، ومعناه : ما أعظم ما ارتكبتم في يوسف وما أقبح ما أقدمتم عليه ، حيث ألقيتم يوسف في الجب وحيدا عاريا من اللباس ، وما فعلتموه في أخيه بنيامين من المعاملة الجافة وتعريضه للغم بسبب افراده عن أخيه لأبيه وأمه ، إذ أنتم جاهلون قبح فعلتكم .

قال الفخر الرازي [1] : " وأما قوله ﴿ **إذ أنتم جاهلون** ﴾ فهو يجري مجرى العذر كأنه قال : أنتم إنما أقدمتم على ذلك الفعل القبيح المنكر حال ما كنتم في جهالة الصبا أو في جهالة الغرور ، يعني والآن لستم كذلك " أ . هـ

وقوله هذا يدل على سمو أخلاقه حتى لكأنه يلتمس لهم العذر .فلله أخلاق الأنبياء ما أوزنها وأرجحها .

وكان سؤاله إياهم عما فعلوه بيوسف وأخيه وهو سؤال العارف بأمرهم فيه من البداية إلى النهاية مصداقا لما أوحاه الله إليه حين ألقوه في غيابة الجب من قوله : ﴿ **وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون** ﴾ إذ يبعد أن يعرف هذا سواه ، فأرادوا أن يتثبتوا من ذلك ويستيقنوا به ، فوجهوا إليه سؤالا هو سؤال المتعجب المستغرب لما يسمع .

﴿ **قالوا أئنك لأنت يوسف** ﴾ أي : قالوا : من المؤكد قطعا أنك أنت يوسف .

قال الألوسي [2] : " واختلفوا ــ أي أهل التحقيق ــ في تعيين سبب معرفتهم إياه ــ عليه السلام ــ فقيل : عرفوه بروائه وشمائله وكان قد

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٢٠٣/١٨ .

(٢) تفسير الألوسي ٤٩/١٣ .

أدناهم إليه ولم يدنهم من قبل ، وقيل : كان يكلمهم من وراء حجاب فلما أراد التعرف إليهم رفعه فعرفوه ، وقيل : تبسم فعرفوه بثناياه وكـــانت كاللؤلؤ المنظوم وكان يضئ ما حواليه من نور تبسمه ، وقيل : إنه عليه السلام رفع التاج عن رأسه فنظروا إلى علامة بقرنه كـــان ليعقـــوب ، واسحاق ، وسارة مثلها تشبه الشامة البيضاء فعرفوه بذلك ، وينضم إلى كل ذلك علمهم أن ما خاطبهم به لا يصدر مثله إلا عن حنيف مسلم من نسل ابراهيم ــ عليه السلام ــ لا عن بعض أعزاء مصـــر ، وزعـــم بعضهم أنهم إنما قالوا ذلك على التوهم ولم يعرفوه حتى أخبر عـــن نفسه " .

لما سألوه أجابهم قائلا :

﴿ **قال أنا يوسف** ﴾ الذى ظلمتمونى غاية الظلم ، أنا ذلك العاجز الذى أردتم قتله بإلقائه فى غيابة الجب ، ثم صرت إلى ما ترون .

﴿ **وهذا أخى** ﴾ الذى فرقتم بينى وبينه وظلمتموه .

وقال أبو السعود [1] : " وقوله : ﴿ **قال أنا يوسف** ﴾ جوابا عـــن مسئلتهم وقد زاد عليه قوله ﴿ **وهذا أخى** ﴾ أى : من أبوى مبالغة فـــى تعريف نفسه وتفخيما لشأن أخيه وتكملة لما أفاده قوله: ﴿ **قد علمتم مـــا فعلتم بيوسف وأخيه** ﴾ حسبما يفيده قوله ﴿ **قد مـــن الله علينـــا** ﴾ فكأنه قال : هل علمتم ما فعلتم بنا من التفريق والإذلال فأنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا بالخلاص عما ابتلينا به والاجتماع بعـــد الفرقـــة

---

(١) تفسير أبى السعود ٣٠٤/٤ .

والعزة بعد الذلة والأنس بعد الوحشة ولا يبعد أن يكون فيه إشـــارة إلى الجواب عن طلبهم لرد بنيامين بأنه أخي لا أخوكم فـــلا وجـــه لطلبكم " . أ ٠ هـ

ثم علل ذلك بما حكاه القرآن عنه في قوله : ﴿ إنــــه مــن يتــق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ تعليل لجملـــة **﴿ مــن الله علينا ﴾**

﴿ من يتق ﴾ : من يخف الله .

﴿ ويصبر ﴾ : عن المعاصي وعلى الطاعات .

﴿ فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ أي : أجرهم .

قال الزمخشري [1] : " إنما وضع **﴿ المحســـنين ﴾** موضـــع الضمير لاشتماله على المتقين والصابرين " .

قال الشيخ ابن عاشور [2] : " أراد يوسف ــ عليه الســـلام ــ تعليمهم وسائل التعرض إلى نعم الله تعالى ، وحثهم علـــى التقـــوى والتخلق بالصبر تعريضا بأنهم لم يتقوا الله فيه وفـــي أخيـــه ولـــم يصبروا على إيثار أبيهم إياهم عليهم .

وهذا من أفانين الخطابة أن يغتنم الواعـــظ الفرصـــة لإلقـــاء الموعظة ، وهي فرصة تأثر السامع وانفعاله وظهور شواهد صـدق الواعظ في موعظته "

---

(١) تفسير الكشاف ٢/٢٧٤ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير المجلد السابع ١٣/٤٩ .

وهنا يتجسد فى أذهان إخوة يوسف ما فعلوه معه فى المـــاضى ، فينتابهم الخزى والخجل ، حيث قابل إساءتهم إليه بالإحسـان عليـهم ، فقالوا له فى استعطاف وتذلل :

﴿ **قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين** ﴾ أى : قال إخوة يوسف له : نقسم بالله لقد فضلك الله علينا وآثرك بالعلم والحلم والفضل .

أما نحن فقد كنا متعمدين الخطيئة ، ولا عذر لنا فيها عنـــد الله ولا عند الناس ، ولذلك اعزك الله وأذلنا ، ونرجو منك الصفح والعفو .

العفو عند المقدرة :

بعد أن قدموا له المعذرة أجابهم بالصفح عما فعلوا والعفو عنـهم فرد يوسف ـ عليه السلام ـ بقوله : ﴿ **قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين** ﴾ .

قال ابن منظور : الثرب لغة : الشحم الرقيق الذى يغشى الكَــرِشَ والأمعاء . الواحد ثرب وجمعها فى القلة : أثرب ، والأثارب : جمـــع الجمع .

والتثريب كالتأنيب والتعبير والاستقصاء فى اللوم .

وثرَّب عليه : لامه وعيره بذنبه ، وذكَّره به [١]

قال الزمخشرى [٢] : " ﴿ **لا تثريب عليكم** ﴾ لا تأنيب عليكـم ولا عتب وأصل التثريب من الثرب وهو الشحم الذى هو غاشـية الكـرش

---

(١) لسان العرب ٢٣٥/١ .

(٢) تفسير الكشاف ٢٧٤/٢ .

ومعناه إزالة الثرب كما أن التجليد والتقريع إزالة الجلد والقرع لأنه إذا ذهب كان ذلك غاية الهزال والعجف الذى ليس بعده فضرب مثلا للتقريع الذى يمزق الأعراض ويذهب بماء الوجوه " .

وجملة : ﴿ **لا تثريب عليكم ٠٠** ﴾ مقول القول ، و " لا " نافية للجنس ، و " تثريب " : اسمها ، و " عليكم " جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر لا ، و " اليوم " ظرف متعلق بذلك الخبر المحذوف .

أى : لا تقريع ولا تأنيب ثابت أو مستقر عليكم اليوم .

وليس التقييد باليوم لإفادة أن التقريع ثابت فى غيره ، بل المراد نفيه عنهم فى كل ما مضى من الزمان ، لأن الإنسان إذا لم يوبخ صاحبه فى أول لقاء معه على أخطائه فلأن يترك ذلك بعد أول لقاء أولى .

قال الألوسى [1] : " وقال المرتضى : إن ﴿ **اليوم** ﴾ موضوع موضع الزمان كله كقوله :

اليوم يرحمنا من كان يغبطنا واليوم نتبع من كانوا لنا تبعا

كأنه أريد بعد اليوم "

ولكن لم يصفح عليه السلام عن إخوته فحسب بل دعا لهم بمغفرة ما فرط منهم فقال : ﴿ **يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين** ﴾ أى : يعفو الله لكم عن ذنبكم وظلمكم ويستره عليكم ، وهو أرحم الراحمين لمن أقلع عن ذنبه وأناب إليه طاعته بالتوبة من معصيته .

وقد تمثل النبى ﷺ بالآية يوم فتح مكة حين طاف بالبيت وصلى ركعتين ، ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتى الباب وقال : " ماذا تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : نظن خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال : وأنا

---

(١) تفسير الألوسى ١٣/٥٠ .

أقول كما قال أخي يوسف ﴿ لا تثريب عليكم اليـــوم ﴾ فخرجــوا كأنما نشروا من القبور " [1]

وفي رواية قال : " يا معشر قريش ما ترون أني فاعل فيكـــم ؟ قالوا : خيرا أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء " [2] .

ثم انتقل يوسف ــ عليه السلام ــ من الحديـــث عـــن العفـــو والصفح إلى الحديث عن أبيه الذي ابيضت عيناه من الحزن فقال :

﴿ اذهبوا بقيصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين ﴾

قال المفسرون [3]: " لما عرّفهم يوسف بنفسه سألهم عن أبيـــه فقالوا : ذهبت عيناه ، فأعطاهم قميصه "

قال الشوكاني [4] : " قيل : هذا القميص هو القميـــص الـــذي ألبسه الله ابراهيم لما ألقي في النار وكساه ابراهيم اسحاق وكســـاه اسحاق يعقوب وكان يعقوب أدرج هذا القميص في قضيبة وعلقـــه في عنق يوسف لما كان يخاف عليه من الغيـــن ، فـــأخبر جـــبريل يوسف أن يرسل به إلى يعقوب ، ليعود عليه بصره لأن فيه ريـــح الجنة ، وريح الجنة لا يقع على سقيم إلا شفي ولا مبتل إلا عوفي "

---

(١) أخرجه ابن مردوية عن ابن عباس والبيهقي عن أبي هريرة .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٥٥/٤ .

(٣) انظر تفسير الفخر الرازي ٢٠٦/١٨ .

(٤) فتح القدير ٥٣/٣ .

وهذا القول ضعيف ، لقوله تعالى على لسان يعقوب **﴿ إني لأجد ريح يوسف ﴾** وهو يدل على أنه ـ عليه السلام ـ كان لابسا له .

قال الشيخ محمد بن عاشور (1) : " وفائدة إرساله إلى أبيه القميص أن يثق أبوه بحياته ووجوده في مصر ، فلا يظن الدعوة إلى قدومه مكيدة من ملك مصر . ولقصد تعجيل المسرة له .

والأظهر أنه جعل إرسال قميصه علامة على صدق إخوته فيما يبلغونه إلى أبيهم من أمر يوسف ـ عليه السلام ـ بجلبه فإن قمصان الملوك والكبراء تنسج إليهم خصيصا ولا توجد أمثالها عند الناس وكان الملوك يخلعونها على خاصتهم ، فجعل يوسف ـ عليه السلام ـ إرسال قميصه علامة لأبيه على صدق اخوته أنهم جاءوا من عند يوسف ـ عليه السلام ـ بخبر صدق " . أ . هـ

وقوله : **﴿ يأت بصيرا ﴾** أى : يصير بصيرا . وقيل : المراد : يأت إليّ وهو بصير .

قال الفخر الرازى (2) : " قال المحققون : إنما عرف أن القاء ذلك القميص على وجهه يوجب قوة البصر بوحى من الله تعالى ولولا الوحى لما عرف ذلك ، لأن العقل لا يدل عليه .

ويمكن أن يقال : لعل يوسف ـ عليه السلام ـ علم أن أباه ما صار أعمى إلا أنه من كثرة البكاء وضيق القلب ضعف بصره فإذا ألقى عليه قميصه فلابد أن ينشرح صدره وأن يحصل فى قلبه الفرح الشديد ،

---

(1) تفسير التحرير والتنوير المجلد السابع ج ١٣ ص ٥١ .

(2) تفسير الفخر الرازى ٢٠٦/١٨ .

وذلك يقوى الروح ويزيل الضعف عن القوى ، فحينئذ يقـــوى بصـــره ويزول عنه ذلك النقصان ، فهذا القدر مما يمكن معرفته بـــالقلب فـــإن القوانين الطبية تدل على صحة هذا المعنى " أ . هـــ

قوله : ﴿ **وأتونى بأهلكم أجمعين** ﴾ من الرجال والنســـاء والـــذرارى وغيرهم مما ينتظمه لفظ الأهل .

قال الألوسى [1] : " قال الكلبى : وكان أولئك الأهـــل نجـــوا مـــن سبعين إنسانا ، وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس أنـــــهم اثنـــان وسبعون من ولده وولد ولده ... وقد نموا فى مصر فخرجوا منها مـــع موسى عليه السلام .

*****

---

(١) تفسير الألوسى ٥٣/١٣ .

يعقوب وقد جاءه البشير

قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتْ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ(٩٤)قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ(٩٥)فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ(٩٦)قَالُوا يَاأَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ(٩٧)قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(٩٨) ﴾

قوله : ﴿ **فصلت العير** ﴾ أى : خرجت من مصر قاصدة مكان يعقوب عليه السلام .

و ﴿ **لولا تفندون** ﴾ من الفند وهو الخَرَفُ وإنكار العقل من الهرم أو المرض ... قال الفراء : أى : لولا أن تكذبونى وتعجزونى وتضعفونى .. [1]

وجواب " لولا " محذوف أى : لولا تفنيدكم إياى لصدقتمونى .

والمعنى : وحين غادرت الإبل التى تحمل إخوة يوسف حدود مصر وأخذت طريقها إلى الأرض التى يسكنها يعقوب وبنوه ، قال يعقوب — عليه السلام — لمن كان جالسا معه من أهله وأقاربه ، استمعوا إلى ﴿ **إنى لأجد ريح يوسف** ﴾ ولولا أن تنسبونى إلى الفند وضعف العقل لصدقتمونى فى انى أجد رائحته حقيقة ، وأنه حى قد قرب لقائه وبالتمتع برؤيته .

---

(١) لسان العرب ٣٣٨/٣ .

قال أبو حيان [١] : " قال ابن عباس : وجد ريحه من مسيرة ثمانيـة أيام ، هاجت ريح فحملت عرقه . وقال الحسن وابن جريج : من ثمانين فرسخا ، وكان مدة فرقه منه سبعا وسبعين سنة ...

وعن أبى أيوب المهروى : أن الريح استأذنت فى إيصال عرق يوسف إلى يعقوب ، فأذن لها فى ذلك . وقال مجاهد : صفقـت الريـح القميـص فراحت روائح الجنة فى الدنيا ، واتصلت بيعقوب فوجد ريح الجنة ، فعلم أنه ليس فى الدنيا ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص .أ . هـ

وعلى فرض صدق أو كذب الروايات السابقة فقد أثبت العلم حديثـا أن الريح تحمل الغبار وما فيه من قارة إلى أخرى ، وهذا ما نشـاهده ونسمعه فى النشرات الجوية فأحيانا تأتى ريح باردة من أوربا وأخـرى ساخنة من جنوب إفريقيا وهكذا .

ولكن الغريب شم البشر لها من مسافات بعيدة . ومن ثم فإن شـم يعقوب ــ عليه السلام ــ رائحة يوسف يعتبر من خوارق العادات .

وقد دلت الآية على أن يعقوب ــ عليه السلام ــ أخبر أنه وجـد رائحة يوسف لما فصلت العير من أرض مصر ، فعلينا أن نؤمن بـه لأنه معصوم من الكذب ، وقد تبين صدقه بعد .

ولكن المحيطين بيعقوب الذين قال لهم هذا القول ، لم يشموا مـا شمه ، ولم يجدوا ما وجده ، فردوا عليه بقولهم :

﴿ قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم ﴾ أى : قال حاضر مجلسـه : تالله إنك ما زلت غارقا فى خطئك القديم الذى لا تريد أن يفارقك وهـو حبك ليوسف ، واعتقادك أنه حى يرجى لقاؤه .

---

(١) البحر المحيط ٣٢٣/٦ .

قال **قتادة** : ﴿ **لفى ضلالك القديم** ﴾ أى : لفى حبك القديم لا تنساه ولا تذهل عنه وهو كقولهم ﴿ **إن أبانا لفى ضلال مبين** ﴾ ثم قال قتادة : قد قالوا كلمة غليظة ولم يكن يجوز أن يقولوها لنبى الله .

وقال الحسن : إنما خاطبوه بذلك لاعتقادهم أن يوسف قد مات وقد كان يعقوب فى ولوعه بذكره ذاهبا عن الرشد والصواب [١]

تحقق ما وجده يعقوب من رائحة يوسف :

لقد تحقق ما وجده يعقوب ـ عليه السلام ـ من رائحة ابنه يوسف فكانت المفاجأة التى حكاها القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ **فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لا تعلمون** ﴾ أى : فلما جاء البشير وهو أحد أبناءه الذى يحمل القميص من يوسف ألقاه على وجه يعقوب فعاد من فوره بصيرا كما كان .

و " أن " فى قوله ﴿ **فلما أن جاء البشير** ﴾ للتأكيد .

وفائدة التأكيد فى هذه الآية تحقيق هذه الكرامة الحاصلة ليعقوب ـ عليه السلام ـ لأنها خارقة للعادة ، ولذلك لم يؤت ب " أن " فى نظائر هذه الآية مما لم يكن فيه داع للتأكيد .

ورد البصر إلى يعقوب ـ عليه السلام ـ ليس بعجيب ولا منكر فكثيرا ما شفى السرور من الأمراض ، والتجارب شاهد صدق على صحة ذلك .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ١٨/٢٠٨ .

ولكن شفاء سيدنا يعقوب بوضع القميص على وجهه هو معجزة من المعجزات الخارجة عن قدرة الإنسان ، وليس المهم هو القميص أو وضعه على وجهه ، فقد كان ذلك لتسهيل وقع المعجزة على الحاضرين فحسب ، ولكن المهم هو طريقة الشفاء وهى إرادة الله المنحصرة فى ﴿ **كن فيكون** ﴾ وهى خارجة عن كل السنن الطبيعية التى أمر الإنسان أن يتعلمها ، فعظمة المعجزة ليست فى النتيجة فحسب ولكن فى طر يق الشفاء .

وهنا قال يعقوب لأبنائه ولمن أنكر عليه قوله ﴿ **إنى لأجد ريح يوسف** ﴾ ولمن لاموه بما كان عليه من علم قطعى من ربه .

قوله : ﴿ قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لا تعلمون ﴾

أى : ألم أقل لكم حين أرسلتكم إلى مصر وأمرتكم بالتحسس ونهيتكم عن اليأس من روح الله وأعلم من الله ما لا تعلمون من حياة يوسف .

وهنا طلب الأبناء من أبيهم فى تذلل واستعطاف أن يستغفر لهم ، ونادوه بعنوان الأبوة تحريكا للعطف والشفقة : ﴿ **قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا** ﴾ .

وعللوا ذلك بقولهم ﴿ إنا كنا خاطئين ﴾ فى حقك وفى حق أخوينا . ومن حق المعترف بذنبه أن يصفح عنه و يستغفر له .

فكان رد أبيهم عليهم أن وعدهم بالاستغفار فى المستقبل إذ قال : ﴿ **سوف أستغفر لكم ربى** ﴾

قال ابن جرير الطبرى [١] : " اختلف أهل التأويل فـــى الوقـــت الذى أخر الدعاء إليه يعقوب لولده بالاستغفار لهم من ذنبهم فقـــال بعضهم أخر ذلك إلى السحر "

وروى عن ابن عباس أنه قال بينما نحن عند رسـول الله ﷺ إذ جاءه على بن أبى طالب فقال : بأبى أنت وأمى تفلت هذا القـــرآن من صدرى فما أجدنى أقدر عليه ، فقال رسول الله ﷺ : يـــا أبـــا الحسن أفلا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن وينفع بهن مـــن علمتـــه ، ويثبت ما تعلمت فى صدرك ؟ قال : أجل يا رسول الله فعلمنـــى . قال : إذا كان ليلة الجمعة ، فإن استطعت أن تقوم فى ثلـــث الليـــل الآخر فإنها ساعة مشهودة والدعاء فيها مستجاب ، وقد قال أخـــى يعقوب لبنيه ﴿ **سوف استغفر لكم ربى** ﴾ يقول : حتى تأتى ليلـــة الجمعة ... " [٢]

وقيل : " إنما وعدهم بالاستغفار فى المســـتقبل للدلالـــة علـــى أنه يلازم الاستغفار لهم فى أزمنة المســـتقبل ، ويعلـــم منـــه أنـــه استغفر لهم فى الحال بدلالـــة الفحـــوى ، ولكنـــه أراد أن ينبهـــهم إلى عظم الذنب وعظمة الله تعالى وأنه ســـيكرر الاســـتغفار لـــهم فى أزمنة مســـتقبلة " [٣] .

---

(١) تفسير الطبرى ٤٢/١٣ .

(٢) حديث طويل أخرجه الترمذى فى سننه كتاب الدعوات . باب فى دعاء الحفـظ ٥٦٣/٥ ـ ٥٦٥ . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب .

(٣) تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ج ١٣ ص ٥٤ .

وعلل هذا بأن ربه واسع المغفرة والرحمة ، لا ينقطع رجاء المؤمن فيها وإن ظلم وأساء فقال : ﴿ **إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ .

وهكذا صورت لنا السورة الكريمة ما دار بين يوسف وإخوته ، وبين يعقوب وبنيه فى هذا اللقاء الحافل بالمفاجآت والبشارات .

ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد ، فقد كانت هناك مفاجآت وبشارات أخرى تحققت معها رؤيا يوسف وهو صغير ، كما تحقق معها تأويل يعقوب لها فقد رحل يعقوب ببنيه وأهله إلى مصر للقاء ابنه يوسف ، وهناك اجتمع شملهم .

****

تأويل رؤيا يوسف من قبل

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ(٩٩)وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَاأَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(١٠٠) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ(١٠١) ﴾

قوله ﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه ... ﴾ فى العبارة حذف وإيجاز يفهم من سياق الكلام ، والمعنى : بعد أن ذهب إخوة يوسف إلى أبيهم وأخبروه بمكانة يوسف فى مصر وأنه الحاكم المستقل فى أمرها ، وأنه يدعوهم كلهم للإقامة معه فيها ، فرحلوا حتى بلغوها ، ولما دخلوا على يوسف وكان قد استقبلهم فى الطريق فى جمع حافل ضم إليه أبويه واعتنقهما .

وظاهر الآية يدل على أن أمه كانت لا تزال حية ورجحه ابن جرير الطبرى [1] وقال جمع من المفسرين [2] إن المراد بأبويه أبوه وخالته ، لأن أمه قد ماتت قبل ذلك فتزوج أبوه خالته ، والخالة تنزل منزلة الأم لشفقتها كما ينزل العم منزلة الأب .

---

(١) انظر تفسير الطبرى ٤٤/١٣ .

(٢) راجع الكشاف للزمخشرى ٢٧٥/٢ ، وروح المعانى للألوسى ٥٧/١٣ .

قوله : ﴿ **وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين** ﴾ أى : وقال لهم ادخلوا بلاد مصر إن شاء الله آمنين على أنفسكم وأنعامكم من الجوع والهلاك .

قال الزمخشرى [1] : " فإن قلت : ما معنى دخولهم عليه قبل دخولهم مصر ؟

قلت : كأنه حين استقبلهم نزل لهم فى مضرب أو بيت ثم دخلوا عليه وضم إليه أبويه ثم قال لهم ﴿ **ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين** ﴾

أما قوله : ﴿ **ورفع أبويه على العرش** ﴾ قال ابن منظور [2] : " العرش : سرير الملك يدلك على ذلك سرير ملكة سبأ ، سماه الله عز وجل عرشا فقال عز من قائل ﴿ **إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم** ﴾ [3] .

والمراد بالعرش هنا السرير الذى كان يجلس عليه يوسف ـ عليه السلام ـ .

والمعنى : وأجلس يوسف أبويه معه على السرير الذى يجلس عليه ، تكريما لهما ، وإعلاء من شأنهما .

﴿ **وخروا له سجدا** ﴾ أى : وخر يعقوب وأسرته ساجدين من أجل يوسف ، وكان السجود تحية الملوك وأضرابهم ، ولم يكن يومئذ ممنوعا فى الشرائع وإنما منعه الإسلام لغير الله تحقيقا لمعنى مساواة الناس فى العبودية .

---

(١) فى الكشاف ٢/٢٧٥ .

(٢) لسان العرب ٦/٣١٣ .

(٣) سورة النمل الآية ٢٣ .

قال الزمخشرى [1] : " فإن قلت : كيف جاز لهم أن يسجدوا لغير الله ؟ قلت : كانت السجدة عندهم جارية مجرى التحية والتكرمة كالقيام والمصافحة وتقبيل اليد ونحوها مما جرت عليه عادة الناس من أفعال شهرت فى التعظيم والتوقير .

وقيل : ما كانت إلا انحناء دون تعفير الجباه وخرورهم سجدا يأباه .

وقيل : معناه وخروا لأجل يوسف سجدا لله تعالى شكرا " أ ٠ هـ

والإشارة فى قوله : **﴿ يا ابت هذا تأويل رؤياى من قبل ﴾** إشارة إلى سجود أبويه وإخوته له هو مصداق رؤياه الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا سجدا له .

ومعنى : **﴿ قد جعلها ربى حقا ﴾** أنها كانت من الأخبار الرمزية التى يكاشف بها العقل الحوادث المغيبة عن الحس ، أى : ولم يجعلها باطلا من أضغاث الأحلام الناشئة عن غلبة الأخلاط الغذائية .

ثم ذكر يوسف عليه السلام نعمة الله عليه فقال :

﴿ وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى ﴾

ومعنى **﴿ أحسن بى ﴾** أحسن إلى .

النعمة الأولى : إخراجه من السجن **﴿ إذ أخرجنى من السجن ﴾**

قال الخازن [2] : " إنما ذكر إنعام الله عليه فى إخراجه من السجن وإن كان الجب أصعب منه ، استعمالا للأدب والكرم لئلا يخجل إخوته

---

(١) تفسير الكشاف ٢/٢٧٦ .

(٢) تفسير الخازن ٢/٣١٧ .

بعد أن قال لهم لا تثريب عليكم اليوم ، ولأن نعمة الله عليه فى إخراجه من السجن كانت أعظم من إخراجه من الجب وسبب ذلك أن خروجه من الجب كان سببا لحصوله فى العبودية والرق وخروجه من السجن كان سببا لوصوله إلى الملك .

وقيل : إن دخوله الجب كان لحسد إخوته ودخوله السجن كان لزوال التهمة عنه وكان ذلك من أعظم نعمه عليه "(٢).هـ

النعمة الثانية : مجئ أهله من البادية ﴿ **وجاء بكم من البدو** ﴾

أى يسَّر لكم أموركم ، وجمعنى بكم فى مصر بعد الوحشة والانفراد وشوقى إلى لقائكم .

ثم أشار إلى مصائبه السابقة من الإبقاء فى الجب ومشاهدة مكر إخوته به بقوله : ﴿ **من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى** ﴾

فكلمة ﴿ **بعد** ﴾ اقتضت أن ذلك شئ انقضى أثره . وقد ألم به إجمالا اقتصارا على شكر النعمة وإعراضا عن التذكير بتلك الحوادث المكدرة للصلة بينه وبين إخوته فمر بها مر الكرام وباعدها عنهم بقدر الإمكان إذ أسندها للشيطان .

والنزغ : مجاز فى إدخال الفساد فى النفس . شُبه بنزغ الراكب الداية وهو نخسها ودفعها لتسرع فى سيرها .

وأسند النزغ إلى الشيطان ، لأنه هو الموسوس به ، والدافع إليه ، ولأن فى ذلك سترا على إخوته وتأدبا معهم .

ثم ذيل النعم بالثناء على الله تعالى فقال : ﴿ **إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم** ﴾

واللطيف : تدبير الملائم .

قال القرطبى [1] : " قال الخطابى : اللطيف هو البر بعباده الذى يلطف بهم من حيث لا يعلمون ، ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون ؛ كقوله تعالى : ﴿ **الله لطيف بعباده يرزق من يشاء** ﴾ [2]

وقيل : اللطيف : " العالم بدقائق الأمور . " أ . هـ

والمعنى : " أن حصول الإجتماع بين يوسف وبين أبيه وإخوته مع الألفة والمحبة وطيب العيش كان فى غاية البعد عن العقول إلا أنه تعالى لطيف فإذا أراد حصول شئ سهل أسبابه فحصل وإن كان فى غاية البعد عن الحصول .

وجملة ﴿ **إنه هو العليم الحكيم** ﴾ تعليل لجملة ﴿ **إن ربى لطيف لما يشاء** ﴾ وحرف التوكيد للاهتمام . وتوسيط ضمير الفصل " هو " للتقوية ، وزيادة التوكيد .

والمعنى : إنه سبحانه العليم بمصالح عباده الذى يفعل كل شئ على وجه الحكمة . حكيم فى أفعاله مبرأ من العبث والباطل .

قال الألوسى [3] : واختلفوا فى مقدار المدة بين الرؤيا وظهور تأويلها .

فقيل : ثمانى عشرة سنة ، وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد عن الحسن أن المدة ثمانون سنة ، وأخرج ابن جرير عن ابن جريج أنها سبع وتسعون سنة ، وعن حذيفة أنها سبعون سنة ، وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة أنها خمس وثلاثون سنة ، وأخرج جماعة عن

---

(١) تفسير القرطبى ١٧٥/٩ .

(٢) سورة الشورى الآية ١٩ .

(٣) تفسير الألوسى ٦١/١٣ .

سلمان الفارسى أنها أربعون سنة وهو قول الأكثرين ، وقال ابن شداد : وإلى ذلك ينتهى تأويل الرؤيا والله تعالى أعلم بحقائق الأمور . "

ثم أعقب يوسف ـ عليه السلام ـ ذكر نعمة الله عليه بتوجهه إلى مناجاة ربه بالاعتراف بأعظم نعم الدنيا والآخرة فقال :

﴿ رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الآحاديث فاطر السماوات والأرض أنت ولى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ﴾ .

" من " فى قوله : **﴿ من الملك ﴾** و **﴿ من تأويل الآحاديث ﴾** للتبعيض ، لأنه لم يؤت إلا بعض ملك الدنيا أو بعض ملك مصر وبعض التأويل .

قال ابن عاشور [1] : " وجعل الذى أوتيه بعضا من الملك ومن التأويل لأن ما أوتيه بعض من جنس الملك وبعض من التأويل ، إشعارا بأن ذلك فى جانب ملك الله وفى جانب علمه شئ قليل .

وعلى هذا يكون المراد بالمُلك التصرف العظيم الشبيه بتصرف المَلِك إذ كان يوسف ـ عليه السلام ـ هو الذى يسير الملك برأيه .

ويجوز أن يراد بالمُلك حقيقته ويكون التبعيض حقيقيا . أى : آتيتنى بعض المُلك لأن المُلك مجموع تصرفات فى أمر الرعية ، وكان ليوسف ـ عليه السلام ـ من ذلك الحظ الأوفر ، وكذلك تأويل الآحاديث " .

وقوله : **﴿ فاطر السموات والأرض ﴾** أى : مبدعها وخالقها ، ونصبه على أنه نعت ـ لرب ـ أو بدل أو بيان أو منصوب بأعنى أو منادى ثان .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ١٣ / ٦٠ .

والولى : فى قوله ﴿ **أنت ولى فى الدنيا والآخرة** ﴾ الناصر أى : ناصرى ومتولى أمورى فى الدنيا والآخرة .

وجملة ﴿ **أنت ولى فى الدنيا والآخرة** ﴾ من قبيل الخبر فى إنشاء الدعاء والمعنى : كن ولى فى الدنيا والآخرة .

أما قوله : ﴿ **توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين** ﴾

فقد ذكر كثير من المفسرين [1] أنه لما عد نعم الله عليه تشوق إلى لقاء ربه ولحاقه بصالحى سلفه .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : ما سأل نبى الوفاة غير يوسف [2] .

والحق أن الرأى الأول هو الرأى الصحيح ، والإلجاء فى الدعاء لا يدل على أنه تمنى الموت ، وهو ما لا وجود له فى الآية . ثم لماذا يتمنى الموت وقد أسعده الله حينما جمع شمله مع أبويه وإخوته ، وكان معززا مكرما فى مصر .

وبذلك تنتهى قصة يوسف وأهله .

---

(١) راجع تفسير الكشاف ٢/٢٧٦ ، وتفسير الطبرى ١٣/٤٨.

(٢) فتح القدير للشوكانى ٣/٥٧ ، وتفسير البحر المحيط ٦/٣٢٩.

قصة يوسف وما تشير إليه من أهداف

قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ(١٠٢)وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ(١٠٣)وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ(١٠٤)وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ(١٠٥)وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ(١٠٦)أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ(١٠٧) قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ(١٠٨)وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ(١٠٩)حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ(١١٠) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(١١١) ﴾

لقد ذيلت قصة يوسف ـ عليه السلام ـ بعدة أهداف وهى : ـ

١ ــ أن فى هذه القصة إثبات لنبوة محمد ﷺ .

٢ ــ تحذير المشركين من إنزال العذاب بهم كما حدث لمن قبلهم .

٣ ــ طريق النبى ﷺ الدعوة إلى التوحيد .

٤ ــ الفرج بعد الشدة .

٥ ـ فى قصص الرسل عبرة لأولى اللباب .

وتوضيح هذه الأهداف يأتى من خلال شرح هذه الايات .

فالهدف الأول يتحقق فى قوله تعالى :

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾

علاقة هذه الآية بما قبلها :

قال أبو حيان [1] : " قال ابن الأنبارى : سألت قريش واليهود رسول الله ﷺ عن قصة يوسف فنزلت مشروحة شرحاً وافيا ، وأمل أن يكون ذلك سببا لإسلامهم ، فخالفوا تأميله ، فعزاه الله تعالى بقوله : **﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾** . الآيات .

والإشارة ب (ذلك) إلى ما قصه الله من قصة يوسف وإخوته . **﴿ وما كنت لديهم ﴾** أى : عند بنى يعقوب حين أجمعوا أمرهم على أن يجعلوه فى الجب ، ولا حين ألقوه فيه ، ولا حين التقطه السيارة ، ولا حين بيع . **﴿ وهم يمكرون ﴾** أى : يبغون الغوائل ليوسف ، ويتشاورون فيما يفعلون به . أو يمكرون بيعقوب حين أتوا بالقميص ملطخا بالدم .

---

(١) البحر المحيط ٦/٣٣٠ـ ٣٣١ .

وفى هذا تصريح لقريش بصدق رسول الله ﷺ . وهذا النوع مـــن علم البيان يسمى بالاحتجاج النظرى ... وتقدم نظـــير ذلـــك فـــى آل عمران [1] وفى هود [2] .

وهذا تهكم بقريش وبمن كذبه ، لأنـــه لا يخفـــى علـــى أحـــد أنه لم يكن من علم قومه ، فإذا أخبر به وقصـــه هـــذا القصـــص الذى أعجز حملته ورواته لم تقع شـــبهة فـــى أنـــه ليـــس منـــه ، وإنما هو من جهة القرون الخاليـــة " أ . هـــ

ثم انتقل سبحانه من سوق هذه القصة إلـــى العـــبرة بتصميـــم المشركين على التكذيب بعد هذه الدلائل البينة ، وما يبعـــث علـــى التسلية والتعزية فى قلب النبى ﷺ فقال :

﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾

فالواو للعطف على جملة **﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليـــك ﴾** باعتبار إفادتها أن هذا القرآن وحى من الله وأنه حقيق بأن يكون داعيـــا

---

(١) قوله تعالى فى خلال حديثه عن مريم ـ عليها السلام ـ : **﴿ ذلك من أنبـــاء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنـت لديهم إذ يختصمون ﴾** الآية ٤٤ .

(٢) قوله تعالى فى خلال قصة نوح ـ عليه السلام ـ **﴿ تلك من أنبـــاء الغيـــب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فـــاصبر إن العاقبـــة للمتقين ﴾** الآية ٤٩ .أيضا فى قوله تعالى فى خلال قصة موسى ـ عليـــه السلام ـ **﴿ وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ﴾** سورة القصص الآية ٤٤ .

سامعيه إلى الإيمان بالنبى ﷺ . ولما كان ذلك من شأنه أن يكون مطمعا فى إيمانهم عقب بإعلام النبى ﷺ بأن أكثرهم لا يؤمنون .

وفى التعبير بقوله ــ سبحانه ــ ﴿ وما أكثر الناس ﴾ إشعار بأن الذين آمنوا بدعوة الرسول ﷺ دون تردد قلة قليلة من الناس .

وقوله : **﴿ ولو حرصت ﴾** جملة معترضة لبيان أنه مهما بالغ النبى ﷺ فى كشف الحق والدعوة إلى الله فإنهم متمادون فى ضلالهم وكفرهم ، وكأنه إشارة إلى ما ذكره الله تعالى فى قوله : **﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاءوهو أعلم بالمهتدين ﴾** [1] .

والحرص : شدة الطلب لتحصل الشئ . وتقدم فى قوله تعالى : **﴿ حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾** [2]

وقوله : **﴿ وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾** زيادة فى تسلية الرسول ﷺ وفى إعلاء شأنه .

وضمير الجمع فى قوله **﴿ وما تسألهم ﴾** عائد إلى الناس ، أى : الذين أرسل إليهم النبى ﷺ .

والمعنى : إنك أيها الرسول ما تسألهم أجراً على هذا القرآن الذى تتلوه عليهم لهدايتهم وسعادتهم . كما يفعل غيرك من الكهان والأحبار والرهبان ... وإنما تفعل كل هذا ابتغاء رضا الله ونشر دينه .

---

(١) سورة القصص الآية : ٥٦ .

(٢) سورة التوبة من الآية ١٢٨ .

وجملة : ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ تعليل لجملة ﴿ وما تسألهم عليه من أجر ﴾ . وضمير (عليه) عائد إلى القرآن المعلوم من قوله ﴿ ذلك من أنباء الغيب ﴾ .

أما الهدف الثانى : وهو تحذير المشركين من انزال العذاب بهم كما حدث لمن قبلهم ـ يتحقق فى قوله تعالى :

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ .

و ﴿ كأين ﴾ بمعنى : كم الخبرية المفيدة للتكثير .

قال الشوكانى [(١)] : " قال الخليل وسيبوية : والأكثرون أن كأين أصلها " أى " دخل عليها كاف التشبيه ، لكنه انمحى عن الحرفين المعنى الإفرادى ، وصار المجموع كاسم واحد بمعنى كم الخبرية .

و (الآية) : العلامة . والمراد هنا الدالة على وحدانية الله تعالى .

ومعنى ﴿ يمرون عليها ﴾ : يرونها . والمرور مجاز مكنى به عن التحقق والمشاهدة ، إذ لا يصح حمل المرور على المعنى الحقيقى بالنسبة لآيات السموات .

قال الشوكانى [(٢)] : " والمعنى : كم من آية تدلهم على توحيد الله كائنة فى السموات من كونها منصوبة بغير عمد ، مزينة بالكواكب

---

(١) فتح القدير ٥٨/٣ .

(٢) المرجع السابق ٥٨/٣ ـ ٥٩ .

النيرة السيارة والثوابت ، وفى الأرض من جبالها وقفارهـــا وبحارهـــا ونباتها وحيواناتها تدلهم على توحيد الله سبحانه . وأنه الخالق لذلـــك . الرزاق له المحى والمميت ، ولكن أكثر الناس يمرون على هذه الآيـــات غير متأملين لها ، ولا مفكرين فيها ، ولا ملتفتين إلى ما تدل عليه مـــن وجود خالقها . وأنه المتفرد بالألوهية مع كونهم مشاهدين لها " .أ ٠ هـ

ثم بين سبحانه ــ أنهم بجانب غفلتهم وجهالتهم ، لا يؤمنون إيمانـــا صحيحا فقال تعالى :

﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾

قال الفخر الرازى [1] : والمعنى أنهم كانوا مقرين بوجود الإله بدليل قوله : **﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولون الله ﴾** [2] إلا أنهم كانوا يثبتون له شريكا فى العبودية ، وعن ابن عباس رضـــى الله عنهما هم الذين يشبهون الله بخلقه ، وعنه أيضا أنه قال : نزلت هـــذه الآية فى تلبية مشركى العرب لأنهم كانوا يقولون : لبيك لا شريك لـــك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك ، وعنه أيضا أن اهل مكة قـــالوا : الله ربنا وحده لا شريك له والملائكة بناته فلم يوحدوا ، بل أشركوا ، وقـــال عبدة الأصنام : ربنا الله وحده والأصنام شفعاؤنا عنده ، وقالت اليهود : ربنا الله وحده وعزيز ابن الله ، وقالت النصارى : ربنـــا الله وحـــده لا شريك له والمسيح ابن الله ، وقال عبدة الشمس والقمر : ربنا الله وحـــده وهؤلاء أربابنا ، وقال المهاجرون والأنصار : ربنا الله وحده ولا شريك معه " أ . هـ

---

(١) تفسير الفخر الرازى ٢٢٤/١٨ .

(٢) سورة لقمان من الآية ٢٥ ، وسورة الزمر من الآية ٣٨ .

والآية تشمل كل شريك سواء أكان ظاهرا أم خفيا ، كبـــيرا أم صغيرا . وقد ذكر ابن كثير [1] هنا جملة من الأحاديث فـــى هـــذا المعنى كلها تنهى عن الشرك أياً كان نوعه .

منها قوله ﷺ : عندما سئل أى الذنب أعظم ؟ قال : " أن تجعل لله ندا وهو خلقك " [2]

ومنها قوله ﷺ : " إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغـــر ، قالوا : وما الشرك الأصغر ؟ قال : الرياء " [3]

ومنها قوله ﷺ : فيما يرويه عن ربه ــ عز وجل ــ : يقـــول الله تعالى " أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيـــه معى غيرى تركته وشركه "[4]

فالآية الكريمة تنهى عن كل شرك ، وتدعو إلى إخلاص العبادة لله رب العالمين .

ثم هددهم سبحانه بحلول قارعة تدمرهم تدميرا فقال تعالى :

﴿ أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الســـاعة بغتة وهم لا يشعرون ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٧٦/٢

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب التفسير ، باب قوله ﴿ **فلا تجعلـوا لله أندادا ..** ﴾ ٢٣٠/٩ من الفتح ،

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ٤٢٨/٥ ،

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب الزهد ، باب تحريم الرياء ١١٥/١٨ شـرح النووى ،

أى : أفأمن هـــؤلاء الضـــالون أن تأتيـــهم عقوبـــة تغشـــاهم وتشملهم أو أن تأتيهم الســـاعة فجـــأة دون أن يســـبقها مـــا يـــدل عليها ، بحيث لا يشعرون بإتيانها إلا عنـــد قيامـــها .

قال أبو حيان [1] : " أفأمنوا : اســـتفهام إنكـــار فيـــه توبيـــخ وتهديد ، غاشية : نقمة تغشاهم أى ، تغطيـــهم كقولـــه : ﴿ **يـــوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومـــن تحـــت أرجلـــهم** ﴾ [2] . وقـــال الضحاك : يعنى الصواعق والقـــوارع انتـــهى .

وإتيان الغاشية يعنى فـــى الدنيـــا ، وذلـــك لمقابلتـــه بقولـــه ﴿ **أو تأتيهم الساعة** ﴾ أى : يوم القيامـــة " أ . هـــ

قال الدكتور / سيد طنطاوى [3] : " إن كانوا قـــد أمنـــوا كـــل ذلك ، فهم فى غمرة ساهون ، وفـــى الكفـــر والطغيـــان غـــارقون ، فإنه ﴿ **فلا يأمن مكر الله إلا القـــوم الخاســـرون** ﴾ [4]

فالآية الكريمة تحذير للمشركين مـــن انـــزال العـــذاب بـــهم كما حدث لمن قبلهم أو تأتيهم الســـاعة فجـــأة .

---

(١) البحر المحيط ٣٣٢/٦ .

(٢) سورة العنكبوت من الآية ٥٥ .

(٣) التفسير الوسيط للقرآن الكريم للإمام الأكبر شيخ الأزهر المجلد السابع ص ٣٩٨ .

(٤) سورة الأعراف من الآية ٩٩ .

أما الهدف الثالث : وهو أن طريق النبى ﷺ الدعـــوة إلى التوحيد ويتحقق هـــذا فـــى قوله تعـالى :

﴿ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَـا وَمَـنْ اتَّبَعَنِـي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَـالا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْـفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِيـنَ اتَّقَـوْا أَفَـلا تَعْقِلُونَ ﴾ .

علاقة هذه الآيات بما قبلها :

بعد أن بين سبحانه أن أكثر الناس لا يفكرون فيما فـــى السموات والأرض من آيات ، ولا يعتبرون فيما فيها من علامات .. تدل علـــى أن الله هو الواحد الأحد ، الفرد الصمد أمر رسوله أن يخبر النـــاس أن طريقه عى الدعوة إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له وحده يدعو بـــها هو ومن أتبعه على بصيرة وبرهان .

قوله : **﴿ قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى ﴾**

والسبيل : الطريق والسنة . شُبهت المعتقدات والشريعة بها لمـــا أن الإنسان يمر عليها إلى الجنة .

والسبيل يؤنث كما فى هذه الآية ، ويذكر كما فى قوله تعـالى : ﴿ وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ﴾ [١] .

---

(١) الأعراف من الآية ٤٦ .

قال أبو حيان [1] : " قرأ عبد الله : ﴿ **قل هذا سبيلى** ﴾ علـــى التذكير .

والمعنى : قل أيها الرسول : هذه الدعوة التى أدعوا إليها والطريقة التى أنا عليها ، من توحيد الله وإخلاص العبادة له هى سنتى ومنهاجى .

والبصيرة : الحجة الواضحة والبرهان المتيقن .

قال الشوكانى [2] : " والبصيرة المعرفة التى يتميز بها الحق مـــن الباطل "

واسم الإشارة (هذه) مبتـــدأ . و (ســـبيلى) خـــبر ، وجملـــة ﴿ **أدعوإلى الله على بصيرة ...** ﴾ حالية ، وقد جئ بـــها علـــى سبيل التفسير للطريقة التى انتهجها الرسول ﷺ فى دعوته .

وفى قوله ﴿ **على بصيرة** ﴾ إيماء إلى أن هذا الدين الحنيـف لا يطلب التسليم بنظرياته ومعتقداته بحكايتها فحسب ، ولكنه دين حجة وبرهان . كما يدل على أن الدعاء إلى الله تعالى إنما يكون بـــالدليل والبرهان .

و" أنا " تأكيد للضمير المستتر فى ﴿ **أدعو** ﴾ **جئ** به لتحســـين العطف بقوله ﴿ **ومن اتبعنى** ﴾ .. وهو تحسين واجب فى اللغة [3]

وفى الآية دلالة على أن أصحاب النبى ﷺ والمؤمنيـــن الذيـــن آمنوا به مأمورون بأن يدعوا إلى الإيمان بما يستطيعون .

---

(١) ٦/٣٣٣ .

(٢) ٣/٥٩ .

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور ١٣/٦٥ .

وقد كانت الدعوة إلى الإسلام فى صدر زمان البعثة المحمديــة واجبا على الأعيان لقول النبى ﷺ : " بلغوا عنى ولو آيــة " [1] أى بقدر الاستطاعة .

ثم لما ظهر الإسلام وبلغت دعوته الأسماع صارت الدعوة إليـه واجبا على الكفاية كما دل عليه قوله تعالى: ﴿ ولتكن منكم أمـة يدعون إلى الخير .. ﴾ [2]

وقوله : ﴿ وسبحان الله ﴾ عطف على قولَه ﴿ ادعو إلــى الله ﴾ أى : أدعو إلى الله وأنزهه عن النقائص التى يشرك بها المشركون مـــن ادعــاء الشركاء .

وجملة : ﴿ وما أنا من المشركين ﴾ تذييل لما قبلها لأنـــها تعـم مـا تضمنته .

ثم بين سبحانه أن رسالته ﷺ ليست بدعا من بين الرسالات السماوية ، وإنما قد سبقه إلى ذلك رجال يشبهونه فى الدعوة إلـــى الله فقــال تعــالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى .. ﴾ .

قال الفخر الرازى [3] : " واعلم أن من جملة شبه منكرى نبوته ﷺ أن الله لو أراد إرسال رسول لبعث ملكا فقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا .. ﴾ فلما كان الكل هكذا فكيف تعجبوا فى حقـك يا محمد . " أ . هـ

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب الأنبياء . باب ما ذكر عن بنى اسرائيل ٣٠٩/٧من الفتح .

(٢) سورة آل عمران من الآية ١٠٤ .

(٣) تفسير الفخر الرازى ١٨ / ٢٢٥ ـ٢٢٦ .

وإنما جعل الرسل من الرجال ولم يجعلهم من الملائكـــــة أو مـــن الجن أو من غيرهم ، لأن الجنس إلى جنسه أميل ٠ وأكـــثرهم تفـــهما وإدراكا لما يلقى عليه من أبناء جنسه [١]

وقد اصطفاهم من بين أهل القرى والمدائن ، لكونهم أصفى عقـولا وأكثر حلما .

قال الفخر الرازى [٢] : " والآية تدل على أن الله ما بعث رســـولا إلى الخلق من النسوان وأيضا لم يبعث رسولا من أهل البادية . قال ﷺ " من بدا جفا ومن اتبع الصيد غفل "

ثم نعى سبحانه على هؤلاء المشركين غفلتهم وجهالتهم فقـــال : **﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذيـــن مـــن قبلهم ٠٠ ﴾**

علاقة هذه الآية بما قبلها :

هذه الآية تفريع على ما دلت عليه الآية التى قبلها **﴿ وما أرســـلنا من قبلك إلا رجالا ٠٠ ﴾** فكذبهم أقوامهم من قبل قومك مثل ما كذبـــك قومك وكانت عاقبتهم العقاب ، أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيـــف كان عاقبة الأقوام السابقين ، أى فينظروا آثار آخر أحوالهم من الـــهلاك والعذاب فيعلم قومك أن عاقبتهم على قياس عاقبة الذين كذبوا الرســـل قبلهم كقوم عاد وثمود ولوط وسائر من عذبهم الله من الأمم .

---

(١) التفسير الوسيط ٤٢٤/١٣ ٠

(٢) تفسير الفخر الرازى ٢٢٦/١٨ ٠

والاستفهام إنكارى ، فإن مجموع المتحدث عنهم ســـاروا فـــى الأرض فرأوا عاقبة المكذبين .

ثم رغّب فى العمل للآخرة فقال :

﴿ ولدار الآخرة خير للذين اتقوا ﴾

قال ابن عاشور [1] : " وجملة : **﴿ ولـــدار الآخـــرة خـــير .. ﴾** معطوفة على الاعتراض فلها حكمة ، وهو اعتراض بالتبشير وحســـن العاقبة للرسل عليهم السلام ومن آمن بهم وهم الذيـــن اتقـــوا ، وهـــو تعريض بسلامة عاقبة المتقين فى الدنيا ، وتعريـــض أيضـــا بـــأن دار الآخرة أشد أيضا على الذين من قبلهم من العاقبة التى كانت فى الدنيـــا فحصل إيجاز بحذف جملتين " . أ . هـــ

ثم ذيل سبحانه الآية بقوله : ﴿ أفـــلا تعقلـــون ﴾ أى : أفـــلا تعقلون أيها المشركون ما خطبناكم به فيحملكم هذا التعقل والتدبـــر إلى الدخول فى الإيمان ، ونبذ الكفر والطغيان .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ٦٨/٧ .

الهدف الرابع : الفرج بعد الشدة :

قال تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾

حتى : حرف غاية وهى متعلقة بمحذوف دل عليه الكلام كأنه قيل : وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا فتراخى نصرهم حتى إذا استيأسوا من النصر ...

وفى قوله : ﴿ **قد كذبوا** ﴾ وردت قراءتان : إحداهما : بتشديد الذال والثانية بالتخفيف .

قال الفخر الرازى [1] : " اعلم أنه قرأ عاصم وحمزة والكسائى ﴿ **كذبوا** ﴾ بالتخفيف والباقون ﴿ **كذّبوا** ﴾ بالتشديد .

ومعنى التخفيف من وجهين :

أحدهما : أن الظن واقع بالقوم ، أى : حتى إذا استيأس الرسل من إيمان القوم فظن القوم أن الرسل كذبوا فيما وعدوا من النصر والظفر .

فإن قيل : لم يجر فيما سبق ذكر المرسل إليهم فكيف يحسن عود هذا الضمير إليهم .

قلنا : ذكر الرسل يدل على المرسل إليهم وإن شئت قلت : إن ذكرهم جرى فى قوله ﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم** ﴾ فيكون الضمير عائدا إلى الذين من قبلهم من مكذبى الرسل والظن هنا : بمعنى التوهم والحسبان .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ١٨/٢٢٦ ـ ٢٢٧ .

والوجه الثانى : أن يكون المعنى أن الرسل ظنوا أنهم قد كذبـــوا فيما وعدوا وهذا التأويل منقول عن ابن أبى مليكة عن ابن عباس رضى الله عنهما قالوا : وإنما كان الأمر كذلك لأجل ضعف البشرية . إلا أنـــه بعيد ، لأن المؤمن لا يجوز أن يظن بالله الكذب ، بل يخرج بذلك عـــن الإيمان فكيف يجوز مثله على الرسل .

وأما قراءة التشديد ففيها وجهان :

الأول : أن الظن بمعنى اليقين ، أى : وأيقنوا أن الأمم كذبوهم تكذيبا لا يصدر منهم الإيمان بعد ذلك ، فحينئذ دعوا عليهم فهنالك أنـــزل الله سبحانه عليهم عذاب الاستئصال ، وورود الظن بمعنى العلم كثير فى القرآن الكريم قال تعالى : ﴿ **الذيـــن يظنـــون أنـــهم ملاقون ربهم** ﴾ أى : يتيقنون ذلك .

والثانى : أن يكون الظن بمعنى الحسبان والتقدير : حتى إذا اســـتيأس الرسل من إيمان قومهم فظن الرسل أن الذين آمنوا بهم كذبوهم وهذا التأويل منقول عن عائشة ــ رضى الله عنـــها ــ وهـــو أحسن الوجوه المذكورة فى الآية ، روى أن ابن أبى مليكة نقل عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ أنه قال : وظن الرســـل أنهم كذبوا ، لأنهم كانوا بشرا ألا ترى قوله ﴿ **حتـــى يقـــول الرسل والذين آمنوا متى نصر الله** ﴾ قـــال : فذكـــرت ذلـــك لعائشة ــ رضى الله عنها ــ فأنكرته وقالت : مـــا وعـــد الله محمدا ﷺ شيئا إلا وقد علم أنه سيوفيه ولكن البلاء لـــم يـــزل بالأنبياء حتى خافوا من ان يكذبهم الذين كانوا قد آمنـــوا بـــهم وهذا الرد فى غاية الحسن من عائشة " أ . هـ

ويجوز أن يكون المعنى : ولما أيقن الرسل أن قومهم قد كذبوا على الله بكفرهم جاء الرسل نصرنا .

وفى البخارى (١) : " عن عروة عن عائشة قالت له وهو يسألها عن قول الله عز وجل : ﴿ **حتى إذا استيأس الرسل** ﴾ قال : قلت أكُذِّبوا أم كُذِبوا ؟ قالت عائشة : كُذِّبوا . قلت : فقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم فما هو بالظن قالت : أجل لعمرى لقد استيقنوا بذلك ، فقلت لها : وظنوا أنهم قد كُذِبوا ، قالت : معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك بربها ، قلت : **فما هذه الآية** ؟ قالت : هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم فطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك "

وقال القرطبى (٢) : " وفى قوله تعالى : ﴿ **جاءهم نصرنا** ﴾ قولان :

أحدهما : جاء الرسلَ نصرُ الله ؛ قاله مجاهد .

الثانى : جاء قومهم عذابُ الله ؛ قاله ابن عباس "

وقوله تعالى : ﴿ **فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين** ﴾ معطوف على ما قبله ومتفرع عليه ، لأن نصر الرسل عليهم السلام هو تأييدهم بعقاب الذين كذبوهم بنزول العذاب وهو البأس فينجى الله الذين آمنوا ولا يرد البأس عن القوم المجرمين .

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب التفسير باب قوله حتى إذا استيأس الرسل ٤٣٨/٩ ـ ٤٤١ . فتح البارى .

(٢) تفسير القرطبى ١٨١/٩ .

والمعنى : جاءهم نصرنا الذى وعدناهم به ، بأن أنزلنا العذاب على أعدائهم ، فنجا من نشاء إنجاءه وهم المؤمنون بالرسل لأنهم هم الذين يستحقون النجاة دون غيرهم كما قال تعالى : ﴿ **قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها** ﴾ [1] .

هذا بالنسبة للمؤمنين أما الكفار المجرمون فلا يرد عقابنا وبطشنا عن هؤلاء الذين أجرموا وكفروا بالله وكذبوا رسله .

ومن الأهداف التى تشير إليها قصة يوسف ــ عليه السلام ــ أنها عبرة لأولى الألباب . قال تعالى :

﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ .

هذا من رد العجز على الصدر ، فهى مرتبطة بقوله تعالى : ﴿ **ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك** ﴾ [2] وهى بمنزلة البيان لما تضمنه معنى الإشارة فى قوله ﴿ **ذلك من أنباء الغيب** ﴾ .

والضمير فى " قصصهم " يعود على الرسل ، أو على يوسف و أبويه وإخوته ، أو عليهم وعلى الرسل .

قال الزمخشرى [1] : "الضمير فى " قصصهم " للرسل وينصره قراءة من قرأ فى" قصصهم " بكسر القاف . وقيل : هو راجع إلى يوسف وإخوته "

---

(١) سورة الشمس الآيتان ٩،١٠ .

(٢) سورة يوسف من الآية ١٠٢ .

وأرى : أن الضمير يعود على قصة يوسف ـ عليه السلام ـ حيث إن الحديث كله يدور حوله وحول أبويه وإخوته وهذه القصة نموذج من قصص المرسلين فيها عبرة لمن يعقل ، وفيها تصديق لما جاءت به الكتب المنزلة من قبل ، على غير صلة بين محمد ﷺ وهذه الكتب . فما كان يمكن أن يكون ما جاء به حديثا مفترى . فالأكاذيب لا يصدق بعضها بعضا ولا تحقق هداية .

قال أبو حيان [1] : " **والاعتبار بقصصهم من وجوه :**

ـ اعزاز يوسف ـ عليه السلام ـ بعد إلقائه فى الجب .

ـ واعلاؤه بعد حبسه فى السجن .

ـ وتملكه مصر بعد استعباده .

ـ واجتماعه مع والديه وإخوته بعد الفرقة الطويلة " .

واللب : العقل . وإنما خص أولو الألباب لأنهم هم الذين ينتفعون بالعبر .

وجملة ﴿ **ما كان حديثا يفترى ..** ﴾ إلى آخرها تعليل لجملة ﴿ **لقد كان فى قصصهم عبرة** ﴾ أى : لأن ذلك القصص خبر صدق مطابق للواقع وما هو بقصة خيالية مخترعة .

ووجه التعليل أن الاعتبار بالقصة لا يحصل إلا إذا كانت خبرا عن أمر حصل فى الواقع .

قال الفخر الرازى [2] : " واعلم أنه تعالى وصف هذه القصة بصفات :

---

(١) البحر المحيط ٣٣٧/٦ .

(٢) تفسير الفخر الرازى ٢٢٨/١٨ ـ٢٢٩ .

الصفة الأولى : كونها ﴿ **عبرة لأولى الألباب** ﴾ وقد سبق تقريره .

الصفة الثانية : قوله : ﴿ **ما كان حديثا يفترى** ﴾ وفيه قولان :

الأول : أن المراد الذى جاء به وهو محمد ﷺ لا يصح منه أن يفترى لأنه لم يقرأ الكتب ولم يتلمذ لأحد ولم يخالط العلماء فمن المحال أن يفترى هذه القصة بحيث تكون مطابقة لما ورد فى التوراة من غير تفاوت .

الثانى : أن المراد أنه ليس يكذب فى نفسه لأنه لا يصح الكذب منه ، ثم إنه تعالى أكد كونه غير مفترى فقال : ﴿ **ولكن تصديق الذى بين يديه** ﴾ وهو إشارة إلى أن هذه القصة وردت على الوجه الموافق لما فى التوراة وسائر الكتب الألهية . ونصب تصديقا على تقدير : ولكن كان تصديق الذى بين يديه كقوله تعالى : ﴿ **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله** ﴾ قاله الفراء والزجاج ؛ ثم قال : ويجوز رفعه فى قياس النحو على معنى : ولكن هو تصديق الذى بين يديه .

الصفة الثالثة : قوله : ﴿ **وتفصيل كل شئ** ﴾ وفيه قولان :

الأول : المراد وتفصيل كل شئ من واقعة يوسف ـ عليه السلام ـ مع أبيه وإخوته .

الثانى : أنه عائد إلى القرآن كقوله ﴿ **ما فرطنا فى الكتاب من شئ** ﴾ فإن جعل هذا الوصف وصفا لكل القرآن أليق من جعله وصفا لقصة يوسف وحدها ويكون المراد : ما يتضمن من الحلال والحرام وسائر ما يتصل بالدين .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ١٨/٢٢٨ ـ٢٢٩ .

الصفة الرابعة والخامسة : كونها هدى فى الدنيا وسببا لحصول الرحمة فى القيامة لقوم يؤمنون خصهم بالذكر لأنهم هم الذين انتفعوا به " .

وهكذا يتوافق المطلع والختام فى السورة ، كما توافق المطلع والختام فى القصة ..

وقد بدأت القصة وانتهت فى سورة واحدة ، لأن طبيعتها تستلزم هذا اللون من الأداء . فهى رؤيا تتحقق رويدا رويدا ، ويوما بعد يوم ، ومرحلة بعد مرحلة . فلا تتم العبرة إلا بأن يتابَع السياق خطوات القصة ومراحلها حتى نهايتها . وأفراد حلقة واحدة منها فى موضع لا يحقق شيئا من هذا كله كما يحققه افراد بعض الحلقات فى قصص الرسل الآخرين . كقصة سليمان مع بلقيس . أو حلقة قصة مولد مريم . أو حلقة قصة مولد عيسى . أو حلقة قصة نوح والطوفان ... الخ فهذه الحلقات تفى بالغرض منها كاملا فى مواضعها . أما قصة يوسف فتقتضى أن تتلى كلها متوالية حلقاتها ومشاهدها ، من بدئها إلى نهايتها [1] .

*****

(١) فى ظلال القرآن الكريم ١٣/٢٠٣٧ .

وبعد هذا العرض التحليلى لهذه السورة الكريمة نجدها قد أهتمت بأمور من أهمها ما يأتى :

أولا : ابراز الحقائق والهدايات بأسلوب المحاورات منها :

المحاورات التى دارت بين إخوة يوسف فى شأن الانتقام منـــه والتى منها قوله تعالى : ﴿ **إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينـــا منا ونحن عصبة إن أبانا لفى ضلال مبين ٠٠** ﴾

والمحاورات التى دارت بينهم وبين أبيهم فى شأن اصطحابهم ليوسف ، والتى منها قوله تعالى : ﴿ **قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنـــا على يوسف وإنا له لناصحون ٠٠٠** ﴾

والمحاورات التى دارت بين يوسف وإخوته بعـــد أن عرفـــهم وهم له منكرون ٠٠ والتى منها قوله تعالى : ﴿ **فلما دخلوا عليـــه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنـــا ببضاعـــة مزجـــاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين ٠٠** ﴾ .

وهكذا نجد السورة الكريمة زاخرة بأسلوب المحاورات . تـــارة بين يوسف وأبيه وتارة بين إخوته فيما بينهم ، وتارة بينـــهم وبيـــن أبيهم ، وتارة بين يوسف وإخوته ، وتارة بين يوسف وامرأة العزيـــز ، وتارة بينه وبين ملك مصر .

وهذا الأسلوب فى عرض الحقائق من الأساليب التـــى تعيـــن القارئ على حفظ القرآن الكريم ، وعلى تدبر معانيه ٠٠

ثانيا : الاهتمام بشرح أحوال النفس البشرية وتحليل ما يصدر عنها فى حال رضاها وغضبها ، وفى حال صلاحها وانحرافها ، وفى حال غناها وفقرها ، وفى حال عسرها ويسرها ، وفى حال صفائها وحقدها ..

قال الدكتور / سيد طنطاوى [1] ما ملخصه : " وقد حدثتنا عن الشخصيات التى وردت فيها حديثا صادقا أمينا كشفت لنا فيه عن جوانب متعددة من أخلاقهم وسلوكهم .. وأعطت كل واحد منهم حقه فى الحديث عنه

(١) — **فيوسف — عليه السلام** — وهو الشخصية الرئيسية فى القصة حدثتنا عنه حديثا مستفيضا نستطيع من خلاله ، **أن نرى له — عليه السلام — مناقب ومزايا متنوعة من أهمها ما يأتى :**

١ — امتلاكه لنفسه ولشهوته مهما كانت المغريات ، بسبب خوفه لمقام ربه ، ونهيه لنفسه عن الهوى .

ولا أدل على ذلك من قوله تعالى : ﴿ **وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون ..** ﴾

قال الشيخ القاسمى : قال الإمام ابن القيم ما ملخصه : " لقد كانت دواعى متعددة تدعوا يوسف إلى الاستجابة لطلب امرأة العزيز منها : ما ركبه الله فى طبع الرجل من ميله إلى المرأة .. **ومنها** : أنه كان شابا غير متزوج ..

---

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم المجلد السابع ص ٣٠٨ — ٣١٠ .

ومنها : أنها كانت ذات منصب وجمال ٠٠ وأنها كانت غير أبية ولا ممتنعة ٠٠ بل هى التى طلبت وأرادت وبذلت الجهد ٠٠

ومنها : أنه كان فى دارها وتحت سلطانها ٠٠ فلا يخشى أن تنم عليه .

ومنها : أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال فأردته إياهن ، وشكت حالها إليهن ٠٠

ومنها : أنها توعدته بالسجن والصغار إن لم يفعل ما تأمره به ٠٠

ومنها : أن الزوج لم يظهر من الغيرة والقوة ما يجعله يفرق بينه وبينها ٠٠

ومع كل هذه الدواعى ، فقد آثر يوسف مرضاة الله ومراقبته ، وحمله خوفه من خالقه على أن يختار السجن على ارتكاب ما يغضبه ٠٠ " [١]

٢ــ **صبره الجميل على المحن والبلايا** ، ولجوؤه إلى ربه ليستجير به من كيد امرأة العزيز وصواحبها : ﴿ **قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين ٠٠** ﴾

٣ــ **نشره للدين الحق** ، ودعوته لعبادة الله وحده حتى وهو بين جدران السجن ، فهو القائل لمن معه فى السجن : ﴿ **ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير ام الله الواحد القهار ٠٠** ﴾

٤ــ **حسن تدبيره للأمور** ٠٠ وحرصه الشديد على انقاذ الأمة مما يضرها ويعرضها للهلاك ، ﴿ **قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تاكلون ٠٠** ﴾

---

(١) تفسير القاسمى ٣٥٥٥/٩ .

٥- **عزة نفسه ، وسمو خلقه** ، فقد أبى أن يذهب لمقابلة الملـك إلا بعد إعلان براءته **﴿ وقال الملك ائتونى به فلما جاءه الرسـول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة الاتى قطعن أيديـهن إن ربى بكيدهن عظيم ٠٠ ﴾**

٦- **تحدثه بنعمة الله ، ومعرفته لنفسه قدرها** ، وطلبه المنصـب الذى يناسبه ، ويثق بقدرته على القيـام بحقوقـه : **﴿ قـال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم ﴾**

٧- **ذكاؤه وفطنته** ، فقد تعرف على إخوته مع طول فراقـه لـهم : **﴿ وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ﴾**

٨- **عفوه وصفحه عمن أساء إليه ﴿ قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ٠٠ ﴾**

٩- **وفاؤه لأسرته ولعشيرته ﴿ اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا وأتونى بأهلكم أجمعين ﴾**

١٠- **شكر الله تعالى على نعمه ومننه ﴿ رب قـد آتيتنـي مـن الملك وعلمتنى مـن تـأويل الآحـاديث فـاطر السـموات والأرض أنت ولى فـى الدنيـا والآخـرة توفنـى مسـلما وألحقنى بالصـالحين ﴾ .**

هذا جانب من حديث السورة الكريمة عـن يوسـف - عليـه السلام - وهو حديث يدل على أنه كان فى الذروة العليا من مكـارم الأخلاق ومحاسن الشيم ٠٠ "

(٢) **كما تحدثت السورة الكريمة عن يعقوب** ــ عليـــه السـلام ــ فذكرت من بين ما ذكرت عنه ، اتصافه بــالصبر الجميــل ، وحرصه على سلامة أبنائه من كل ما يؤذيـــهم حتـــى ولــو أساءوا إليه .

يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ **وجاءوا على قميصه بدم كـــذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **وقال يابنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلــوا من أبواب متفرقة** ﴾

(٣) **وتحدثت السورة عن إخوة يوسف** وكشفت عن غيرتـــهم منــه وحسدهم له ، وتآمرهم على حياته ، وحقدهم عليه حتى وهـــو بعيد عنهم .

(٤) **كما كشفت عن حال امرأة العزيز** وكيف حطمت كل الموانـــع النفسية والإجتماعية من أجل الحصول على رغبتها .

(٥) **كما كشفت عن تبلد شعور العزيز** ، مع إيقانه بخطأ امرأته فلـم يزد على أن قال ليوسف ولها : ﴿ **يوسف أعرض عـــن هــذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين** ﴾

وهكذا فقد حدثتنا السورة الكريمة عـــن نمـــاذج مـــن البشــر ووصفت كل نموذج بما يناسبه من صفات بصدق وأمانة .

وأخيراً .. نستخلص من هذه القصة الأمور التالية :

١ـ **أنها صورة من صور الكفاح والجهاد** ، فهى قصة إنسان تمرس من طفولته بآفات الطبائع البشرية من حسد الأخوة إلى غواية المرأة إلى ظلم السجن إلى تكاليف الولاية وتدبير المصالح فى إبان الشدة والمجاعة .

٢ـ **أن النقم قد تكون زريعة لكثير من النعم** ، ففى بدء القصة أحداث أحزان أعقبتها نتائج كلها أفراح .

٣ـ **أن الإخوة لأب قد توجد بينهم ضغائن وأحقاد** ربما تصل إلى تمنى الموت أو الهلاك .

٤ـ **أن العفة والأمانة والاستقامة تكون مصدر الخير والبركة لمن تحلى بها .**

٥ـ **أن أُس الزنى والرزيلة والفساد الخلقى هو خلوة الرجل بالمرأة ،** ومن أجل هذا حرم الدين خلوة الرجل بالمرأة قال ﷺ " لا يخلون رجل بامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما ... " (١)

٦ـ **أنه لا دافع لقضاء الله تعالى** ، وأنه تعالى إذا قضى للإنسان بخير ومكرمة واجتمع أهل العالم على دفعه لم يقدروا على دفعه .

٧ـ **كما تدل هذه القصة على أن الحسد سبب الخذلان والنقصان** ، وأن الصبر مفتاح الفرج كما فى حق يعقوب ـ عليه السلام ـ فإنه لما صبر فاز بمقصوده ، وكذلك فى حق يوسف ـ عليه السلام ـ .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه كتاب الفتن . باب ما جاء فى لزوم الجماعة ٤/٤٦٥ ـ ٤٦٦ . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه .

٨ـ أيضا فى هذه القصة دروس وعبر ينتفع بها الهداة ودعاة الإصلاح . وتهدأ بها نفس من قرأها .

هدانا الله إلى سبيل الفلاح ، وسدد خطانا إلى طريق النجاح ، إنه نعم المولى ونعم النصير . وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

تم تفسير هذه السورة الكريمة

بحمد الله تعالى يوم الجمعة

٤ جمادى الأولى ١٤٢١هـ

٤ من أغسطس ٢٠٠٠م

د . عفاف النجار

فهرس المراجع

ـ القرآن الكريم ٠

ـ **أسرار ترتيب القرآن : للحافظ جلال الدين السيوطى** ٠ دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا ٠ الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨ م ٠دار الاعتصام ٠

ـ **إعداد الرسول ﷺ لتحمل أعباء الرسالة فى القرآن الكريم والسنة النبوية** : د / عفاف النجَار ٠ مكتبة ومطبعة الغد للنشر والتوزيع ٠ ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م ٠

ـ **أنوار التنزيل** للقاضى ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوى المتوفى سنة ٦٩٢ هـ .

ـ **اعراب القرآن الكريم وبيانه** : تأليف محى الدين الدرويش : دار الارشاد ٠ حمص ـ سوريا ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م ٠

ـ **الاتقان فى علوم القرآن** : للحافظ جلال الدين السيوطى ٠ تحقيق ٠ محمد أبو الفضل ابراهيم ٠ الطبعة الأولى ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٧ م مكتبة ومطبعة المشهد الحسينى ٠

ـ **البحر المحيط : لأبى حيان** ٠ مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٩ هـ .

ـ **البرهان فى تفسير القرآن : للزركشى** ٠ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم دار الفكر ٠ الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م .

ـ **التحبير فى علم التفسير : للسيوطى** ٠ تحقيق : د / فتحى عبد القادر فريد دار المنار ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦ م ٠

ـ **التفسير الواضح** : للدكتور حجازى ٠ دار الجيل ـ بيروت الطبعة العاشرة ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م ٠

ـ **التفسير الوسيط للقرآن الكريم** ٠ للإمام الأكبر شيخ الأزهر د / محمد سيد طنطاوى نهضة مصر للطباعة والتوزيع ٠

ـ **الجامع لأحكام القرآن . للقرطبى** . دار الكتب العلمية ـ بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ ٠

ـ **الدر المنثور فى التفسير بالمأثور** : للحافظ جلال الدين السيوطى دار الكتب العلمية ٠ بيروت ـ لبنان ٠ الطبعة الأولى ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م ٠

ـ **الرؤيا فى الكتاب والسنة** للدكتور / الحسينى أبو فرحه ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧م ٠

ـ **الفتوحات الإلهية** : تأليف سليمان بن عمر العجيل الشهير بالجمل ٠ مطبعة عيسى البابى الحلبى ٠

ـ **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم** : وضعه محمد فؤاد عبد الباقى دار الحديث القاهرة الطبعة الأولى ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م ٠

ـ **المعجم الوجيز** : مجمع اللغة العربية ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م ٠

ـ **تفسير أبى السعود** : لأبى السعود محمد بن محمد العمادى ٠ دار احياء التراث العربى بيروت ٠ الطبعة الثانية ٠

ـ **تفسير التحرير والتنوير** . تأليف الشيخ محمد الطاهر بن عاشور دار سحنون للنشر والتوزيع تونس .

ـ **تفسير الخازن** . المسمى لباب التأويل فى معانى التنزيل . لعلاء الدين على بن محمد بن ابراهيم البغدادى . الشـــهير بالخـــازن . الطبعة ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٥ م . مطبعة مصطفى البابى الحلبى .

ـ **تفسير الفخر الرازى** (التفسير الكبير) للإمـــام الـــرازى . دار احياء التراث العربى . بيروت . الطبعة الثانية .

ـ **تفسير القرآن العظيم : لابن كثير** ، مؤسسة الكتب الثقافيـــة ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ ـ ١٩٩٣ م .

ـ **تفسير الكشاف : للزمخشرى** ، المعرفة بيروت ،

ـ **تفسير المراغى** : للأستاذ الكبـــير المرحـــوم أحمـــد مصطفـــى المراغى ، دار إحياء التراث العربى ـ بيروت ،

ـ **تفسير المنار** : للإمام محمد رشيد رضا ـ دار الفكر للطباعـــة والنشر والتوزيع ،

ـ **تفسير النسفى** : للإمام أبى بكر البركات عبد الله بن أحمد بـــن محمود النسفى دار احياء الكتب العربية ، عيسى البابى الحلبى ،

ـ **تهذيب التهذيب** : للإمام ابن حجر العسقلانى ـ المتوفـــى ســـنة ٨٥٢هـ ،

ـ **جامع البيان فى تفسير القرآن** : لأبى جعفر بن جرير الطـــبرى ، دار الحديث بالقاهرة ١٤٠٧ هـ .

ـ **جواهر البلاغة فى المعانى والبيان البديع** : للسيد أحمد الهاشمى دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة السادسة ،

ـ **دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين** : تأليف : محمد بن علان الصديقى الشافعى الأشعرى المتوفى سنة ١٠٥٧ هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ،

ـ **روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى** : للألوسى . دار احياء التراث العربى . بيروت . الطبعة الرابعة ١٤٠٩ هـ .

ـ **سنن ابن ماجه** ، القاهرة دار احياء التراث العربى ، بيروت ،

ـ **سنن الترمذى** : القاهرة ، المكتبة الإسلامية ١٩٦٢ م .

ـ **شرح النووى على صحيح مسلم** ، دار احياء التراث العربى بيروت ـ لبنان ، الطبعة الثالثة ،

ـ **صحيح البخارى** : دار التراث العربى ١٩٥٨ م .

ـ **صحيح مسلم** : دار احياء التراث العربى ١٩٥٦ م ،

ـ **غرائب القرآن ورغائب الفرقان على مصحف التهجد** : للإمام النيسابورى المتوفى سنة ٧٢٨هـ ، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م ،

ـ **فتح البارى** : **لابن حجر** ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى ، الطبعة الأولى ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م .

ـ **فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير** : للشوكانى . دار احياء التراث العربى ـ بيروت .

ـ **فى ظلال القرآن** : للشيخ سيد قطب ، الطبعة الرابعة والعشرون ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م ، دار الشروق ،

ـ **قصص الأنبياء : لابن كثير** ٠ تحقيق أبى عمار مراد بن عبـد الله ٠

دار العنان ٠ الطبعة الثالثة ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م ٠

ـ **لسان العرب : لابن منظور** ٠ دار صادر بيروت ٠

ـ **محاسن التأويل :** للعلامة محمد جمال الدين القاسمي ـ تحقيـق

محمد فؤاد عبد الباقى ٠ طبعة ٠ دار إحياء الكتب العربية ٠

ـ **مختار الصحاح :** لأبى بكر الرازى ٠ دار الكتـب العربيـة ـ

بيروت .

ـ **مسند الإمام أحمد بن حنبل** ٠ القاهرة ١٣١٣هـ ٠

ـ **مناهل العرفان فى علوم القرآن :** للأستاذ الشيخ محمد عبد العظيم

الزرقانى دار احياء الكتب العربية ٠ عيسى البابى الحلبى ٠

ـ **نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور** ٠ للبقاعى ٠

فهرس الموضوعات

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
١٤١٩١ / ٢٠٠٠